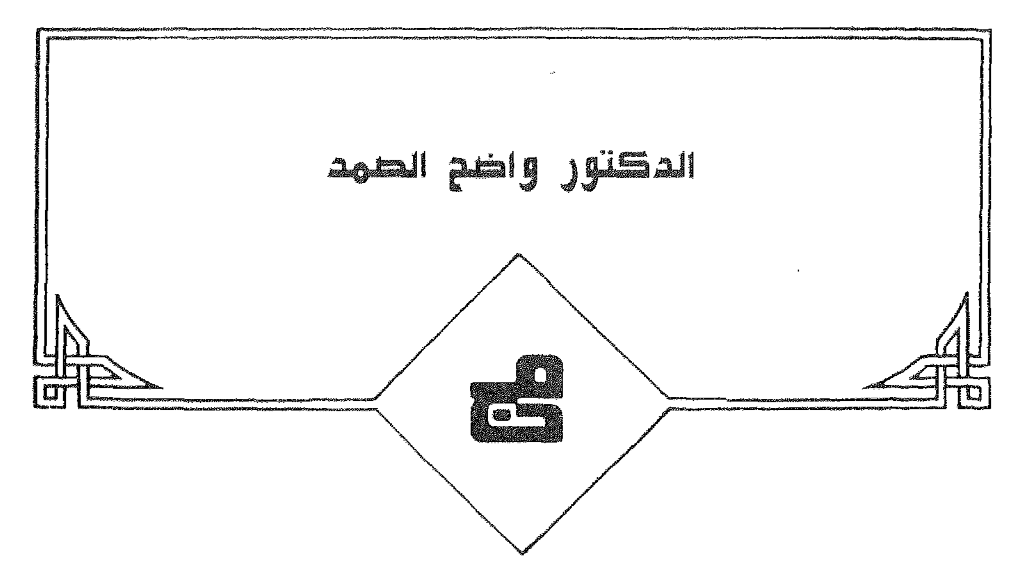
أدب صدر الإسلام



الدكتور واضح الصمد



أدب صدر الإسلام



الدكتور واضح الصمد

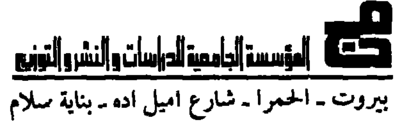
الجامعة اللبنانية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الفرع الثالث

أدب صدر الإسلام

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1414 هـ - 1994 م

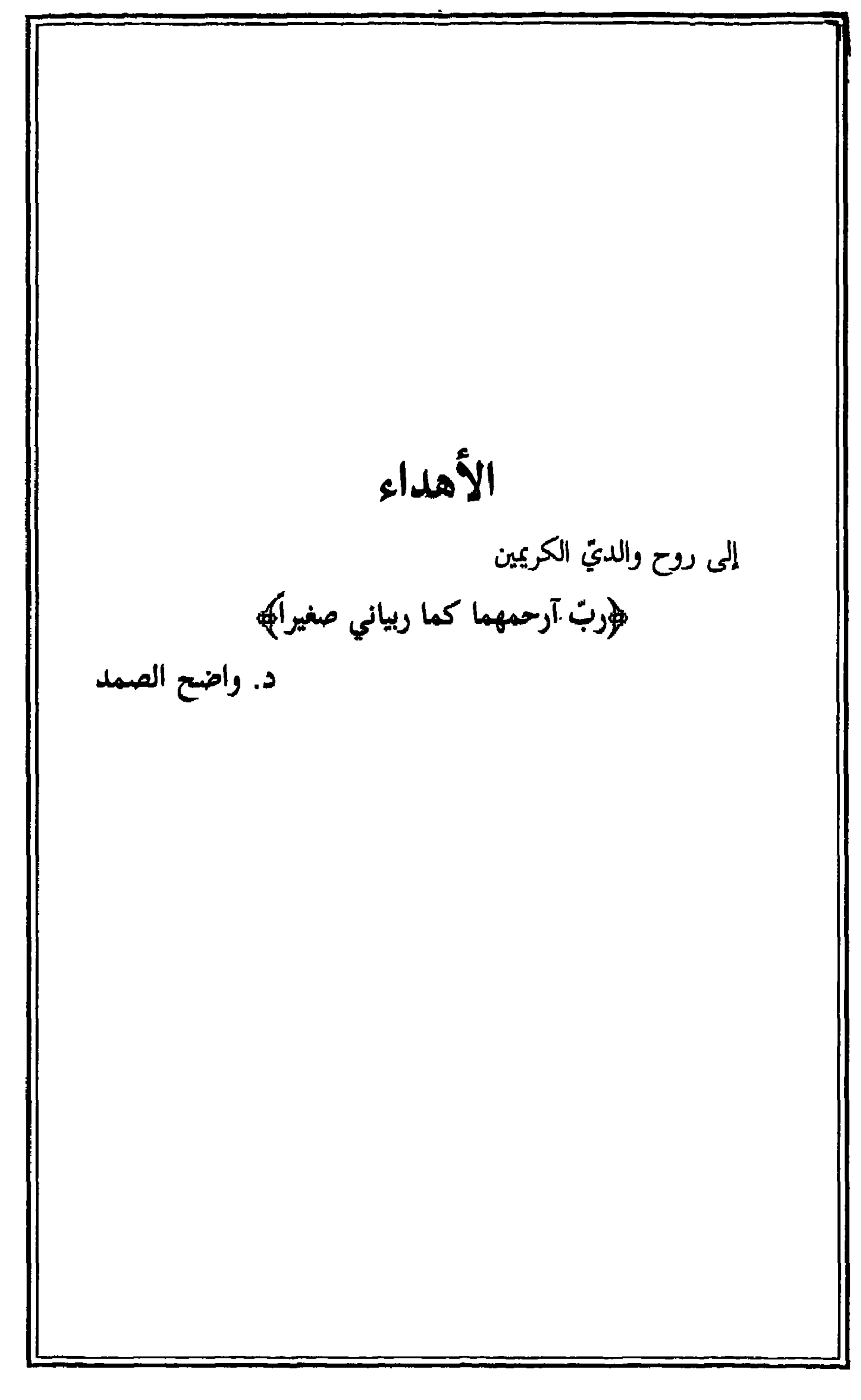


بيروت - الحمرا - شارع اميل اده - بناية سلام

هاتف : 802428 -802407 -802296

ص. ب : 113/6311 - بيروت - لبنان

تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D



الأهداء

إلى روح والديّ الكريمين

﴿ربّ ٱرحمهما كما ربياني صغيراً﴾

د. واضح الصمد



مقدمة

تبدلت أوضاع الحياة العربية بعد الاسلام تبدّلاً ملموساً، في المظهر والجوهر، والسلوك والمُثُل. فقد حمل العرب أعباء رسالة جديدة مجيدة، فانطلقوا يؤدونها في صبر واستجابة مُتَّشحة بما تستلزمه هذ الرسالة من دروع واقية، وحلل برّاقة، وأسلحة جديدة.

أجل كان عصر صدر الإسلام من أخطر العصور التي مرّ بها العرب عبر تاريخهم الطويل، لذلك كانت دراسة هذا العصر دراسة دقيقة ووافية، من الضرورة بمكان، نظراً لما تمثله تلك المرحلة من خطر، وما اضطربت به من أحداث بعيدة الأثر،فكان فيها أخطر ثورة في تاريخ الإنسانية، وأخطر صراع بين القيم الإنسانية الحقّة الخالصة التي جاء بها الإسلام، وبين القيم الفاسدة التي تكوّنت خلال العصور السابقة المتطاولة.

وطبيعي أن يكون لهذا الصراع أثره في الأدب، فكان من الضروري استجلاء غوامضه، وكشف مساتيره ليتبيّن لنا عناصر هذا الصراع وبالتالي جلاء الصدأ الذي تراكم على بعض جوانب أدب العصر، ثم البحث ما أمكن عمّا ضاع منه، وعمّا تعرّض منه لأسباب الزّيف، حتى نتمكن من بلوغ الغاية التي ننشدها وهي التعرف على حقيقة أدب عصر صدر الإسلام.

لقد نالت هذه الفترة من العناية والدرس والنقد والتحليل الشيء الكثير، وذلك منذ فجر التاريخ الإسلامي، على يَدِ أبناء هذه الأمة العربية المسلمة، وقد تساندت الدراسات وتشعبت، فقام بذلك عرب ومستعربون، مسلمون وغير مسلمين، أنصار الإسلام وأعداؤه، وما زالت الدراسات مستمرة.

لذلك ليس باستطاعة أحد القول إنّه فتح فتحاً جديداً في هذا المضمار، وما عملي هذا سوى لبنة صغيرة أسعى لإضافتها إلى بناء ذلك الصرح العظيم،

فقد بذلت في هذا السبيل جهداً صادقاً، آملاً أن يكون هذا الكتاب عوناً لطلابنا في الجامعات يساعدهم على توضيح المعالم الأدبية لعصر صدر الإسلام.

وإني لأرجو أن يكون هذا العمل الجامعي فاتحة أعمال مجيدة مرجوّة في ميادين الأدب العربي والفكر الإسلامي، تتضافر فيها الجهود لتضيء للعرب والمسلمين عصراً من أزهى عصور الأدب، وأكرمها جميعاً، ذلك العصر الذي كَرُمَ بظهور الدعوة الإسلامية وزها بسيرة الرسول الكريم وصحابته المؤمنين.

وقد حاولت في هذه العُجالة أن ألتزم، ما أمكن، بالمناهج التعليمية المقرّرة في الجامعة اللبنانية، لأسهّل على طلابنا سبيل الفهم والبحث في نطاق أدب صدر الإسلام (أي عصر النبوّة والخلفاء الراشدين)، ذلك الأدب الذي كان الاسلام هو الموجّه له لبناء الشخصية الاسلامية الانسانية السامية.

لذلك كان لا بدَّ من الإطلالة على الأدب الجاهلي وبالتالي متابعة الأدب الإسلامي، مبيّناً الأثر الإسلامي فيه.

ولكي تكون الدراسة وافية، كان لا بدّ من التعرّف على مهد الإسلام، أي البيئة التي عاش فيها الرسول ﷺ، والبعثة النبويّة والقرآن الكريم والحديث الشريف.

ثم عرضت في الأبواب التالية لمكانة الشعر في الجاهلية ومكانته في الإسلام ومظاهره وأغراضه، وكذلك النثر، حيث كان التركيز أكثر على الخطابة والكتابة. ثم اخترت بعضاً من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وأخيراً اخترت شخصيتين مميّزتين للعصر هما كعب بن زهير والخنساء.

وبعد، فإن أصبت في عملي هذا، فذاك فضل من الله، وإن تعثرت فإنّ لي أجر المجتهد. والله من وراء القصد، نعم المولى ونعم النصير.

الدكتور واضح الصمد

الجامعة اللبنانية

الباب الأول

أدب صدر الإسلام

أ ــ تعريف لفظ الأدب وبعض مدلولاته من الجاهلية حتى عصر النهضة

الأدب كلمة تغيّر مفهومها ومعناها، شأنها شأن الكثير من الألفاظ المفردة، التي كثيراً ما يطرأ عليها من التغيّر والانتقال من معنىً إلى آخر حسبما يقتضيه تغيّر أحوال الأمة الاجتماعية والعقلية والسياسية، والتقدم أو التقهقر في الصنائع والعلوم.

فما هي تلك التغييرات التي طرأت على معنى لفظ «الأدب»، وما مدى الانحراف عن المعنى الأصلي وذلك انطلاقاً من العصر الجاهلي ومروراً بالعصور التالية؟

لقد عرف الجاهليون لفظ «الآدِبْ» أي الداعي إلى المأدبة (أي الطعام) فقد ورد في شعر طرفة بن العبد قوله:

نحن في المَشْتاةِ ندعو الجَفَلى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ[1]

فهو يقول نحن في فصل الشتاء، حيث القِلّة والقرّ والبرد، ندعو عامة الناس إلى الطعام، وإن الآدب فينا لا يدعو إلى طعامه نفر منتخب من الناس، من عليّة القوم أو الوجهاء، وهو هنا يفتخر بكرمه وكرم قومه.

وعرف العرب في الجاهلية من معاني الأدب أنه الخلق المهذب، والطبع القويم والمعاملة الكريمة للناس وحثّهم على المحامد ونهيهم عن المقابح، فقد

(1) ديوان طرفة بن العبد ـ المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت. ص /55/.

ذكر صاحب «الأمالي» أن هنداً قالت لأبيها عُتبة بن ربيعة: «إنّي إمرأة قد ملكت أمري فلا تزوّجني رجلاً حتى تعرضه عليّ». قال: «لكِ ذاكَ». فقال لها ذات يوم: إنه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمّياً لك واحداً منهما حتى أَصِفَهُ لك، أما الأول:... وأما الآخر: ففي الحسب الحسيب... يؤدِّب أهلَه ولا يؤدّبونَه...». فقالت:... وأما الآخر فبعل الحرّة الكريمة.. وإني له لموافقة، وإنّي لآخُذُهُ بأدب البَعْلِ...»[1] فزوّجها إياه وهو أبو سفيان بن حرب، وقد أنجبت منه معاوية وغيره. وواضح من هذا النص أنه ذو خلق نبيل، وأنه يأخذ أسرته باتباع هذا الخلق، وفي ردِّ هندٍ ما يدلُّ على هذا المعنى أيضاً إذ تقول: إني سأعامله بالخلق الكريم الذي ينبغي أن يعامل به الزوج.

أما في العصر الاسلامي فنلاحظ أن كلمة أدب، لم ترد في القرآن الكريم، على الرغم من خفتها، وعلى الرغم من ورود أكثر من آية في معناها، وشدة اتصالها بأغراضه وموضوعاته.

ثم نلاحظ أن النصوص المنسوبة إلى الرسول ﷺ وصحابته كثيرة، تعدّد فيها معنى كلمة «أدب» كما تنوعت مادتها. منها ما روي أن علياً رضي الله عنه قال للرسول عليه السلام: «يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره». فقال الرسول: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي، وربّيت في بني سعد»[2]. وهنا المقصود التثقيف والتعليم، أي علمني أو ثقّفني ربّي فأحسن تثقيفي وأضاف الرسول أنه رُبّيَ في بني سعد، حيث أخذ عنهم اللغة العربية السليمة.

وعن ابن مسعود أن الرسول ﷺ قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فتعلّموا من مأدبته، يعني مدعاته»[3]. فالقرآن يجمع الآداب التي يدعو الله تعالى عباده إليها من خلق كريم، ومواعظ نافعة وكل ما يتصل بمعنى التهذيب النفسي، ويمكن تأويل الحديث أن الرسول شبّه القرآن بصنيع صنعه الله للناس

---

(1) كتاب الأمالي ـ أبو علي القالي 104/2 دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(2) أصول النقد الأدبي ـ أحمد الشايب ص/4/مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة السابعة 1964.

(3) لسان العرب ـ ابن منظور ـ مادة أدب ص /206/.

لهم فيه خيرٌ ومنافعُ ثم دعاهم إليه.

وفي حديث عليّ، كرّم الله وجهه: «أمّا إخواننا بنو أميّة فقادة أَدَبَةٌ». وكلمة أدبة هنا جمع آدِب ككاتب وكَتَبَة، وهو الداعي إلى المأدبة، وهي الطعام الذي يصنعه الرجل يدعو إليه الناس»[1].

فلما كان العصر الأموي شاع استعمال كلمة «أدب» وتعددت مشتقاتها، وتمايزت معانيها، وأصبحت عنواناً على الوسيلة الفذة للتربية والتعليم، ونشأ عن ذلك مهنة لجماعة من المدرّسين الممتازين الذين ينشئون الطبقة العالية وينهضون بتعليم أبناء الخلفاء والأمراء، وكانوا يسمون «المؤدبين».

والنصوص المرفوعة إلى هذا العصر ناطقة بذلك كله، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما جاء في خطبة زياد بن أبي سفيان بالبصرة وهي المسماة بالبتراء، قوله: «...فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا...»[2].

وواضح أن المادة هنا مستعملة في معنى الصلاح والتهذيب المتصل بالخلق والسلوك الحسن.

وذكر صاحب كتاب نقد النثر أن عبد الملك بن مروان قال لمؤدب ولده في وصيته إياه: «وعلّمهم الشعر يمجُدُوا وينجُدُوا»[3] والمؤدِّب هنا يقصد به المعلّم والمثقّف.

وذُكر في عيون الأخبار: قال عمر بن عبد العزيز (أحد الخلفاء الأمويين المشهورين) لمؤدبه: كيف كانت طاعتي إياك وأنت تؤدبني؟ قال: أحسن طاعة، قال: فأطعني الآن كما كنت أطيعك، خذ من شاربك حتى تبدوَ شفتاك، ومن ثوبك حتى يبدوَ عِقباك[4].

---

(1) المرجع السابق.

(2) البيان والتبيين ـ الجاحظ 244/1 تحقيق فوزي عطوي ـ دار صعب ـ بيروت.

(3) نقد النثر ـ مقدامة بن جعفر ص 81 ـ الكتبة العلمية ـ بيروت 1980.

(4) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ـ 301/1 نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية. الكامل للمجرد 214/1 مكتبة المعارف ـ بيروت.

وعليه يمكننا القول إن هؤلاء المؤدّبين كانوا يدرّسون الشعر لتلاميذهم وما يتصل به من أيام العرب وأخبارهم وأمثالهم، شرحاً له وتوسعة لمعارفهم، وبذلك يتم تمرينهم على الفضائل الاجتماعية من حلم وشجاعة وكرم وصدق وذلك لاكتساب الأخلاق الحميدة والسيرة الفاضلة في الناس، وهذا هو المنحى التهذيبي، وأما القيام على رواية الشعر والنثر وما يتصل بهما من معارف تزيد العقل نوراً، والذوق صفاءً، فإن ذلك يزيد من ثقافة التلاميذ، ويهذب لغتهم، ويغني ملكاتهم بالمفردات وحسن الصياغة، وهذا هو المنحى التعليمي.

لذلك يمكننا القول: إن كلمة «الأدب» صارت تدل منذ العصر الأموي على المعنى التهذيبي والتعليمي، أما في العصر العباسي فإننا نلاحظ أن كلمة أدب أصبحت تستعمل في مجالات شتى وأصبح المراد بها معرفة واتقان القوانين الضرورية لكل نوع من المعارف فهناك: أدب الكاتب، ويعني الالمام بكل ما لا غنى عنه لكل كاتب ماهر من العلوم اللغوية[1].

ودوّن الإمام الغزالي المتوفّى سنة 505هـ. في كتاب إحياء علوم الدين: آداب الأكل، وآداب النكاح، وآداب الكسب وآداب الألفة.. وآداب السفر وآداب السماع.. وغير ذلك مما يطول ذكره. وألّف ابن الطقطقي كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية[2]. حتى أنه ليخيّل إلينا أنّ غاية التربية والتهذيب والأدب آنذاك كانت في الوصول إلى الأناقة في كل شيء وفعل والتفنّن في جميع المعارف وعند بعض طبقات الناس كانت في الظّرف في اللّبس والتصرّف ورشاقة الكلام ورقة المعاني وحسن الاستئناس.

وعليه يمكننا القول إن كلمة أدب أخذت طريقها في اتجاهين: الأول يطابق ميول المتظرفين وفيه ما تستلذ به النفوس والعقول من مجالس الظرف ورواية الأمثال والحكايات والتحدث بالملح والنوادر والأخبار وتذاكر القصص والأشعار وذلك مع كراهة كلّ إطنابٍ مملّ.

---

(1) أنظر أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى حوالي 276 هـ.

(2) تاريخ الآداب العربية ـ كارلو نالينو ص 37 تقديم طه حسين ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر 1970.

وأما الاتجاه الثاني فهو عند قوم فضلوا صناعة الشعر والإنشاء البليغ ودقائق اللغة فاصطلحوا بلفظ الأدب على جميع الفنون الكتابية، ولفظ الأديب على من يحسن العربية ويتعاطى صناعتي النظم والنثر.

فلما كان القرن الرابع الهجري كانت العلوم اللغوية مستقلة منفصلة عن الأدب وبقي النقد متصلاً به، وفي القرن الخامس وقف الأدب عند الشعر والنثر الممتازين، وفريق ذهب في القرن السادس وما يتلوه إلى أن الأدب علم الصرف والنحو واللغة والبيان[1].

ومن المحاولات التي قام بها العرب لتحديد معنى الأدب تلك التي قام بها عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته، إذ قال تحت عنوان: علم الأدب:

«.. المقصود منه عند أهل اللسان ثمرتُه وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب مَا عساه تحصُل به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجعٍ متساوٍ في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو.. مع ذكر بعضٍ من أيام العرب يفهم بها ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة... ثم إذا أرادوا حدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث..»[2].

يبدو من كلام ابن خلدون أنه يخلط بين الأدب والتأدب، وأنه لا يفرق بين العلم والفن، والراجح أن العرب قبل عصرنا الحديث لم يفرقوا بين مدلول العلم ومدلول الفن.

ثم إن الخلفاء في العصر الإسلامي والعصور التالية كانوا يشجعون الأدب والأدباء ويغدقون عليهم من الأموال والعطايا، تقرباً منهم وطمعاً في مديح

---

(1) تاريخ الآداب العربية ـ كارلو نالينوص 52 ـ تقديم طه حسين ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية 1970.

(2) مقدمة ابن خلدون ص 553 ـ الطبعة الرابعة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

شعرائهم، لذلك نرى أن الأدب العربي مرّ بأفضل عصور ازدهاره وخصوبته حين احتضنته الطبقة الحاكمة لأنها تجد فيه لذة أو تتخذه أداة للدعاية لها بين جماهير الشعب.

ثم لما ضعفت السلطة المركزية وانقسمت الدولة إلى دويلات متنافسة، وتعرض المشرق العربي لغزو التتار وبالتالي للغزو العثماني، وسيطرة العثمانيين على البلاد العربية ما يزيد على خمسة قرون، أصبح هناك هوة سحيقة بين طبقة حاكمة جاهدة على جمع الأموال بأية وسيلة ممكنة، وطبقة شعبية كادحة فقيرة عاجزة عن تأمين قوتها، لقد دُمِّرت مصادر الثروة في البلاد واستغلّت أسوأ استغلال.

في ظل هذا الواقع انحسر الأدب وغاب الأدباء وأقفلت المدارس وفشت الأمية بين الجماهير، وكانت محصلة ذلك، فَقْد الأدب الفصيح كلّ دوافع وجوده، فلم يجد الأديب طبقة حاكمة تغدق عليه الأموال، ولا طبقة جماهيرية تحتضنه، ففقد الشعر وظيفته في العصر التركي وتحول إلى أداة للتسلية تعمد إلى الألغاز، وحين فقد الأدب وظيفته بالنسبة إلى جماهير الشعب كان من الطبيعي أن يحلّ محلّه الأدب الشعبي الشفهي الذي يتلاءم مع أميّة الجماهير، وسادت الأغنية الشعبية والموّال بديلاً عن القصيدة الغنائية، وحلّت الحكاية بديلاً عن القصة، والسيرة بديلاً عن فن الرواية.

وما أن انتهى الحكم العثماني حتى دخل الأوروبيون الساحة العربية، وحينها أخذ العلم ينمو تدريجياً بين أفراد الشعب وأخذت الثقافة الأجنبية تغزو البلاد العربية ونتج عن ذلك تمازج ثقافي عربي ـ أجنبي، وانتشرت المطابع وكثرت الصحف والمجلاّت ونشطت حركة الترجمة والتأليف، وكثر المستشرقون والمنقبون في كتب التراث، وتجلّت الحركة الأدبية بأثواب جديدة، وطرد الاستعمار من البلاد، وأصبح عندنا ما نسميه بأدب عصر النهضة حيث بدأ الصراع الأدبي يأخذ أبعاده بين تيارات مختلفة منها: التقليديين والتجديديين، ولم يزل هناك شيء من الصراع حتى يومنا هذا.

يبدو لنا مما تقدم أن العرب عرفوا الأدب كما يلي:

أ ـ بمعنى الخلق الكريم والدعوة إلى مأدبة في العصر الجاهلي.

ب ـ ثم استخدم بمعنى الثقافة والعلم في أول الإسلام.

ج ـ واقتصر على ما يلقيه المؤدبون من شعر ونثر وما يرتبط بهما من أخبار وأنساب وشرح في العصر الأموي.

د ـ وفي العصر العباسي شمل الثقافة العربية كلها بل والأجنبية أيضاً.

هـ ـ ثم عاد إلى الضيق فوقف عند حدود العربية وحدها في عصر الانحطاط.

و ـ وأخيراً استقرّ في حدود الشعر والنثر وهو المعنى الذي نعرفه للأدب في عصرنا الحاضر.

وهكذا نرى مدلول كلمة (أدب) يتسع ويضيق تبعاً لاختلاف الظروف الاجتماعية والعقلية والسياسية، وكذلك اختلاف العصور، فنجده حيناً يتسع فيشمل كل ألوان المعرفة، ويضيق حيناً آخر فيقف عند الكلام الجيد من مأثور الشعر والنثر وما يتصل بهما.

على هذا الأساس نلاحظ أن لكلمة (أدب) معنيين: المعنى العام وهو كل ما أنتجه العقل من أنواع المعرفة حتى الطبيعة والنحو، سواء أثار شعورك وأحدث في نفسك لذة فنيّة أو لم يثر ولم يحدث. والمعنى الخاص وهو الكلام الجيد من الشعر أو النثر الذي يثير شعور القارىء أو السامع ويحدث في نفسه لذة فنيّة، إنه التعبير الجميل عن معاني الحياة وصورها، هو مأثور الشعر الجميل أو النثر البليغ، المؤثّر في النفس، المثير للعواطف، هذا الأدب بالمعنى الخاص هو ما سنعنى بدراسته في الفصول التالية.

ب ـ لمحة في الأدب الجاهلي

درج جمهور الباحثين في الأدب ـ قديماً وحديثاً ـ على تسمية أدب العصر الذي يسبق الإسلام، بالأدب الجاهلي، ووصفوا أصحاب هذا الأدب بالجاهليين.

ويجب أن نشير إلى أن الباحثين في الأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن به كل الاتساع، إذ لا يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية، وهي الفترة التي جاءنا عنها الشعر الجاهلي. قال الجاحظ: «وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السنّ، أوّلُ من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه: امرؤُ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»[1].

هذا التحديد الذي وضعه الجاحظ فيه شيء من الدقّة لأن الشعر العربي في الحقبة التي تسبق هذا التحديد مجهول ولا نعرف عنه شيئاً، والبعض يسمّون تلك الفترة المجهولة بالجاهلية الأولى.

وقد حصلت عدة اجتهادات في تفسير كلمة «الجاهلية» والأسباب التي من أجلها سمّي ذاك العصر بالعصر الجاهلي، فقيل: إن الجهل نقيض العلم، وبما أن العرب في تلك الفترة كانوا بمجملهم أميّين لذلك سمّي عصرهم بالعصر الجاهلي. وقيل بل لأنهم كانوا يجهلون عبادة الله الحقّة وشرائعه التي جاء بها النبي ﷺ. وهذا الجهل كان يدفعهم للمفاخرة بالأنساب وعندهم من الكِبْر والتجبّر وغير ذلك[2].

هذه الكلمة وردت في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية، ومن الأمثلة على ذلك:

قال عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[3]

وكأنه يحذّر من تسول له نفسه بالطيش والحمق والاعتداء عليه وعلى

---

(1) الحيوان ـ للجاحظ 74/1 تحقيق وشرح عبد السلام هارون ـ منشورات المجمع العلمي الإسلامي ـ بيروت.

(2) لسان العرب ـ ابن منظور ـ مادة جهل 11 /130.

(3) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ـ الأنباري الطبعة الثانية 1969 ص 426 ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر.

قبيلته بأنه سيقابَل بما هو أشد وأعنف وسيلاقي الهلاك والعقاب العظيم.

وفي القرآن الكريم وردت لفظة: تجهلون أربع مرات، ولفظة يجهلون مرة واحدة، وكلمة الجاهل مرة واحدة، وجاهلون ثلاث مرات، والجاهلين ست مرات، وجهولاً مرة واحدة، وبجهالة أربع مرات، وكلمة الجاهلية أربع مرات أيضاً[1]. وبما أن لفظة الجاهلية هي التي تعنينا أكثر من غيرها لذلك نتتبعها في القرآن الكريم فنجدها وردت كما يلي:

﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾[2]. و﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾[3]. و﴿وَقَرْنَ في بيوتكنَّ ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى﴾[4]. و﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهلية﴾[5].

ومن خلال فهمنا لهذه الآيات والمواقف التي نزلت فيها، وبالاستناد إلى كتب التفسير، يتبين لنا أن كلمة الجاهلية لا تعني الجهل الذي هو ضدّ العلم والمعرفة بقدر ما تدل على معنى السّفه والأنفة والتكبّر والتسلّط[6].

وقد وردت كلمة «الجهل» و«الجاهلية» في أحاديث الرسول ﷺ منها قوله: «إن بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل»[7]. وواضح من هذا الحديث أن المقصود بالجهل أنه ضد العلم؛ وذكر أيضاً أن النبيّ ﷺ خرج ذات يوم محتضناً الحسن أو الحسين عليهما السّلام، فقال: «إنكم لتبخلون وتجبنون وتجهلون، وإنكم لمن ريحان الجنة»[8]. وذلك كناية عن شدة الحب والإيثار للأولاد، فالرجل لا

---

(1) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ مادة جهل ص 184 ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ عن دار الكتب المصرية 1945.

(2) سورة آل عمران ـ الآية 154.

(3) سورة المائدة ـ الآية 50.

(4) سورة الأحزاب ـ الآية 33.

(5) سورة الفتح ـ الآية 26.

(6) أنظر صفوة البيان لمعاني القرآن ـ الشيخ حسين مخلوف ـ الطبعة الثالثة 1987.

(7) الحديث النبوي الشريف ـ كمال عز الدين ـ ص 103 ـ دار إقرأ ـ مصر.

(8) نفس المصدر ص 233.

يتحمّل أن يرى الدموع الشاكية من أبنائه، وكثيراً ما يندفع بالعاطفة إلى نصرهم فيجهل وقد يكونون هم المعتدين. وهنا المقصود بالجهل ضد الحلم.

وفي حديث آخر قال عليه السّلام: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[1].

في هذا الحديث الشريف يستنكر الرسول ﷺ صفات لم تزل متفشية بين المسلمين وهي من عادات الجاهليين، عادات أهل الكفر والوثنية، مع أنهم دخلوا في الاسلام وشتان بين عهد الكفر وعهد الايمان، والحقيقة أنه للجاهلية امتداداً نفسياً ما استطاع الإسلام أن يوقفه نهائياً في فترة قصيرة من الزمن، وكأن المراد بلفظة الجاهلية في الحديث هي فترة الجهل بعبادة الله الحقة وبالدين الاسلامي الحنيف وتعاليمه التي تخالف فيما تخالف تلك العادات والتقاليد البالية ومنها المذكورة في الحديث النبويّ الشريف.

وينسب إلى النبي ﷺ قوله إلى أبي ذرّ الغفاري حين عيّر بلالاً الفارسي بسواد أمه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»[2]. أي لم يزل فيك شيء من عادات الجاهلية حيث يعيّر الإنسان بحسبه ونسبه ولونه وما إلى ذلك، مع أن الإسلام دحض تلك العادات، وجاء بتعاليم جديدة: لا فضل لعربيّ على أعجميّ ولا أبيض على أسود إلاّ بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

وفي الأيام الأولى للإسلام كان عمرو بن هشام بن المغيرة وكنيته أبو الحكم، من ألدّ أعداء الرسول ﷺ، فكنّاه النبيّ «أبا جهل» وروي عنه قوله: من قال لأبي جهل، أبا الحكم، فقد أخطأ خطيئة يستغفر الله منها». وروي عنه أنه قال: «لكل أمة فرعون، وفرعون هذه الأمة أبو جهل»[3]. وقد ورد أن الرسول انتهره مرّة، فقال له أبو جهل: «أتنتهرني وتهدّدني وأنا أعزّ أهل البطحاء»[4]. ومن

---

(1) نفس المصدر ص 281.

(2) لسان العرب ـ ابن منظور 11 /130 مادة جهل.

(3) أنساب الأشراف ـ البلاذري ص 125/1 ـ تحقيق محمد حميد الله ـ دار المعارف بمصر 1959.

(4) المصدر نفسه ص 126/1.

قوله هذا يتبين لنا مدى تكبّره، وتجبره وتسلّطه، لذا خصه الرسول بهذه الكنية دون غيره من رجالات قريش الذين وقفوا ضدّ الاسلام في مهده وحاربوه.

وهكذا يتبين لنا أن الأصل المشتق من كلمة «الجاهلية» قديم، ورد في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول ﷺ، ولكن هذه الكلمة مستحدثة بظهور الإسلام، وأطلقت كمصطلح يفرّق بين عهدين، عهد ما قبل الإسلام كان يسوده الكبر والتجبر والتسلط والتعصب القبلي، وعهد جديد جاء بمكارم الأخلاق والخضوع لله وانقياد للشريعة المحمديّة، وتوسع هذا المصطلح حتى أصبح يستعمل في الناحية الأدبية فصرنا نقول: أدب العصر الجاهلي وأدب صدر الإسلام وهكذا..

ولكن هل نجد تآلفاً بين هاتين الكلمتين: الأدب الجاهلي، إذا كان المقصود بالجهل ضد العلم؟ وهل يتوفر الأدب في بيئة جاهلية؟ وما هو مستواه وقيمته؟

صحيح أن الإسلام أحدث تغييراً هائلاً في حياة العرب، زلزل كلّ ما كان مألوفاً لديهم في عهدهم السابق للإسلام، ولكن آثار شعر ما قبل الإسلام ونثره، ظلت واضحة، بحيث لا ينكرها أحد في العهود التي تلت الإسلام، مما يدل على أنه كان لعرب العصر الجاهلي، حضارتهم المتطورة قبل الإسلام.

إن عرب الجاهلية، في شبه الجزيرة العربية، كانوا أهل مدر (قطع الطين اليابس)، وأهل وبر، فأما أهل المدر، فهم الحواضر وسكان القرى وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والتجارة. وأما أهل الوبر، فهم الذين يقطنون الصحارى يعيشون من ألبان الإبل ولحومها منتجعين منابت الكلأ، مرتادين لمواقع المطر، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي، ثم يتوجهون لطلب العشب والبحث عن المياه، فلا يزالون في حلّ وترحال، وكثيراً ما تحصل المعارك والحروب بين القبائل المتنافسة على أمكنة الرعي والكلأ والمياه؛ فالطبيعة هي التي صيرت العرب على هذا الحال، وهي التي غلّبت عليهم البداوة، وجعلت من وُلد فيها إنساناً قلقاً هائماً على وجهه.

وكان من أثر اختلاف طبيعة الجو والأرض في أهل جزيرة العرب، أن صار لأهل المدر مجتمع يختلف في شكله وتكوينه عن مجتمع أهل الوبر،

وكان هناك مجتمع ثالث يعيش بين البادية والحواضر، فصار يزرع بعض الزرع ويرعى البقر والخيل والأغنام والمعز، ويأتي إلى القرى ليبيع ما فاض عنه من الألبان والزبد والجلود والأصواف والحيوانات، ويشتري منها ما يحتاج إليه[1].

ولكي تكون الصورة أوضح نشير إلى أنه كان هنالك على تخوم الجزيرة العربية إمارات عربية بدعم أجنبي، كان لها أثرها في حياة العصر الجاهلي من الناحية الأدبية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، من أهم تلك الامارات:

1 - إمارة المناذرة في الحيرة، وقد قامت هذه الإمارة بنفوذ من الفرس لتكون حاجزاً بينهم وبين القبائل البدوية التي تغير على أطراف دولتهم، وحاجزاً بين الفرس والروم أيضاً، وقد اتخذت الحيرة حاضرة لهذه الامارة، وهي بلدة قريبة من نهر الفرات وتبعد حوالي ثلاثة أميال عن مدينة الكوفة التي بنيت فيما بعد. ومن أشهر ملوكها: النعمان والمنذر وعمرو بن هند وغيرهم.. وكان لملوك الحيرة أثر واضح في الشعر والشعراء، إذ يتقبلون مدائحهم ويغدقون عليهم من عطاياهم لذلك اتصل بهم العديد من شعراء الجاهلية. حتى أنه يقال إنه كان لملوك الحيرة اليد الطولى في إثارة الخلافات بين القبائل العربية وهي سياسة فرّق تسد.

2 - إمارة الغساسنة في الشام، الذين كانوا درعاً للرومان وخلفائهم البيزنطيين من غارات البدو ومن أعظم أمرائهم الحارث بن جبّلة، وكان ملوك غسان يدينون بالنصرانية، فهم غير خصومهم التقليديين «المناذرة» الذين كانوا في جملتهم وثنيين. وكان للغساسنة أثر أيضاً غير قليل في حياة الشعر الجاهلي، حيث كان الشعراء يقصدونهم بالمديح ليجزون عليها بالأموال الوافرة. ويبدو أن التنافس بين المناذرة والغساسنة جعل شعر المديح يزدهر بين شعراء الجاهلية. وهو الشعر الذي تولدت عنه ظاهرة التكسب التي نجدها عند بعض الشعراء مثل الأعشى وحسان والنابغة وغيرهم.

3 - إمارة كندة، وكندة قبيلة قحطانية في عرف النسابين، وقد عرفت عند

---

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي 271/4 وما بعدها - دار العلم للملايين - بيروت - مكتبة النهضة بغداد 1978.

الأخباريين بكندة الملوك، لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان، ولأنهم ملكوا أولادهم على القبائل، وأشهر ملوكهم حُجر الملقب بآكل المُرار، وقد استطاع أنْ يفرض سيادته على القبائل الشمالية في نجد وأن يمدّ نفوذه إلى اليمامة وتخوم إمارة المناذرة، ومن ملوكها الحارث وفي عهده بلغت كندة ذروة مجدها، ومن ملوكها «حجر» والد الشاعر امرىء القيس الذي حاول أن يثأر لأبيه من بني أسد ففشل وبموته انطوت صفحة إمارة كندة من حياة القبائل العربية قبل الإسلام[1].

وكان لأمراء كندة أثر في الشعر الجاهلي فقد كان عدد من الشعراء يتصلون بهم ويمدحونهم منهم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم، ثم انّ عبيداً انقلب على أمراء كندة وهو شاعر بني أسد لذلك نراه يسخر من امرىء القيس ويبيّن عجزه عن استرداد ملك آبائه. ثم إن من بقي من كندة لجأ إلى حضرموت وأخذوا يتعاملون مع قبائل عربية جنوبية لتوسيع ملكهم[2].

هذه الامارات الثلاث التي قامت في شمال شبه الجزيرة العربية وشرقها، كانت تواكبها مكة في الحجاز، وهذه في عهد قريش كانت بعيدة عن التأثير الخارجي، وقد ساعدها موقعها الجغرافي - في منتصف طريق القوافل بين اليمن والشام - لتمسك بزمام الحركة التجارية في شبه جزيرة العرب، كما أنها كانت أكبر مركز ديني للوثنية الجاهلية، وقد دعم مكانتها غزو الأحباش المسيحيين لليمن، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها مما أكّد زعامتها وزعاماة أهلها (قريش) على العرب، فهي بيت تجارتهم وبيت كعبتهم المقدّسة وموئل أصنامهم، فيها يقيمون أعيادهم الدينية وفيها يقيمون أسواقهم التجارية إلى جانب أسواقهم الأدبية، وبذلك هيأت لحركة أدبية واسعة النطاق سيطرت فيها لغة قريش فأصبحت لغة الأدب الرفيعة[3].

إلى جانب مكة كان في الجزيرة العربية بعض الحواضر والقرى التي

---

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي 315/3.

(2) المصدر نفسه 366/3 وما بعدها - وانظر ديوان عبيد بن الأبرص - ص 129 - دار بيروت للطباعة والنشر 79.

(3) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي 9/4 وما بعدها.

كان لها شأنها منها الطائف التي كانت مصيفاً للقريشيين نظراً لارتفاعها عن سطح البحر والتي كانت وسط رياضٍ وبساتين، وهناك يثرب التي تقوم في وادٍ خصبٍ حيث تكثر الآبار والعيون، وكان يسيطر عليها اليهود الذين كانوا يقومون على الحرف والصناعات وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة، وقد ظل اليهود مسيطرين على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزدية من الجنوب وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها، فلم يلبث اليهود أن أوقعوا بين الأوس والخزرج، وتحرّجت الظروف تحرجاً شديداً بينهم حتى غدا كأنه من المستحيل أن يكفوا عن المعارك والقتال وكأنّما تعاهدوا على الفناء، لولا أن نزل بينهم الرسول محمد ﷺ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً إذ دخلوا في الدين الاسلامي الجديد.

يتبين لنا مما تقدم أن العرب في العصر الجاهلي لم يكونوا منعزلين عن العالم الخارجي بل كانت لهم علاقات واتصالات مع جيرانهم من الفرس والرومان والبيزنطيين والأحباش وسواهم، ولا شك أنهم كانوا يؤثرون ويتأثرون بشيء من العادات والتقاليد وغيرها، وقد عرفنا أنهم إلى جانب الوثنية التي كانت متفشية فيما بينهم كانت فئات منهم تدين بالحنيفية واليهودية والنصرانية، إلى جانب ذلك كانت عندهم خصال كريمة أهمها الكرم وكانت من الصفات التي يركز عليها الشعراء في مدائحهم. ثم الوفاء بالوعد والعهد وحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه، وكذلك إغاثة الملهوف والعفو عند المقدرة، والأنفة والعزة وإنكار الذلّ والهوان، والشجاعة والفروسية وغيرها[1].

ومما لا شك فيه أن العرب الجاهليين الذين عاشوا في تلك الفترة المتوغلة في التاريخ، وفي بعض المناطق البعيدة عن أماكن الحضر كان يسود مجتمعهم، إلى جانب ما ذكرناه من عادات حسنة، الكثير من العادات والتقاليد السيئة أهمها الأخذ بالثأر، ولعب الميسر وشرب الخمر وإباحة النساء وغيرها، أضف إلى ذلك التخلف الثقافي مما أدى إلى اعتقادهم بالخرافات والجن

---

(1) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ص 54 ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر 1976.

وسادت في أوساطهم الأساطير[1]. حتى أننا ونحن نطالع تفاصيلها تعلو شفتينا ابتسامة فيها شيء من السخرية وشيء من العطف على تلك الأمم.

إنما يجب أن لا يغيب عن بالنا أمران: الأول أننا نحكم على أولئك الناس ونحن في القرن العشرين نتمتع بحصيلة العلوم والثقافات منذ ذاك التاريخ وحتى الآن، إذ ان الحكم الصحيح هو أن ننظر إليهم بواقعهم وزمنهم وواقع الشعوب الأخرى، فلربما يكون هؤلاء أسوأ حالاً.

والأمر الثاني هو أنه يجب أن نميّز بين أهل الحضر وأهل الوبر في الفترة الزمنية عينها، إذ انه كانت هناك فروقات شاسعة بينهما من حيث العقلية وطريقة التفكير والحالة الاجتماعية، وقد انتبه ابن خلدون إلى ذلك وذكر في مقدمته عدة فصول مشتملة على فروق بين الفريقين[2].

ونحن نختلف مع ابن خلدون في قوله إن العرب أبعد الناس عن الصنائع، حيث كتب فصلاً كاملاً عن ذلك[3]. لأنه من المفروض أن يحدّد الفترة الزمنية التي يتحدث عنها وبالتالي يقوم بدراسات تشمل جميع البشر في تلك الفترة عينها، وعلى ضوء ذلك يعطي حكمه. وقد سبق أن قمت ببحث عن الصناعات والحرف في العصر الجاهلي من خلال الأدب الجاهلي فتبين لي أن العرب حينها كان عندهم صناعات مختلفة في النجارة والأخشاب وصناعة النسيج والحياكة والألبسة، وصناعة المعادن والتعدين والمعادن الثمينة والدباغة والحرف الجلدية والبناء والحصون والسدود والعمارة ويكفيهم فخراً القصور التي بنوها حينها وأخصها قصر غمدان الذي قيل إن ارتفاعه حوالى مئتان وثمانون ذراعاً وإذا صحّ هذا القول، يكون العرب قد بنوا في العصر الجاهلي أول ناطحة سحاب في العالم[4].

---

(1) أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي 806/6 - والأسطورة عند العرب في الجاهلية - حسين الحاج حسن - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت 1988.

(2) أنظر مقدمة ابن خلدون ابتداءً من الفصل الثاني ص 120 وما بعدها.

(3) مقدمة ابن خلدون ص 401.

(4) الصناعات والحرف في العصر الجاهلي - واضح الصمد - ص 281 المؤسسة الجامعية - بيروت 1981.

إن أي إنسان يريد أن يبحث عن أمر ما في ذلك العصر، عليه أن يعود إلى الأدب الجاهلي، الشعر وشيء من النثر، وهذا الأدب هو ديوان العرب في عصر ما قبل الإسلام حيث نتعرف من خلاله إلى تاريخهم وفكرهم، وهو يصور مجتمعهم، وصلاتهم مع بعضهم وغيرهم، ومعتقداتهم، كما يرسم لنا وديانهم وجبالهم وأسماء منتجعاتهم، ومواضع حروبهم، وداراتهم. وصحاراهم وغير ذلك.

وإذا كان ثمة خلاف بين الباحثين على صحة الشعر الجاهلي، فمنهم من يقول كله منحول، وآخرون يقولون بعضه، فإن الراجح أن أكثرية ذاك الشعر الذي وصلنا يعود إلى العصر الجاهلي.

والسبب الرئيسي في الخلاف لعدم توفر دواوين لذاك الشعر مكتوبة في العصر الجاهلي بل كانت الرواية هي الوسيلة العظمى التي وصل عن طريقها إلى عصر التدوين، وهنا نشير إلى احتمال ضياع قدر كبير من الشعر الجاهلي، غير أن ما بقي من هذا الشعر مع كونه جزءاً قليلاً، إلاّ أنه غزير إذا ما قيس بما خلّفه أي شعب من شعوب العالم. ومن أهم موضوعات الشعر الجاهلي: الحماسة، والمراثي، والهجاء، والمديح، والاعتذار والوصف.

والملاحظ أنه كان لبناء القصيدة وترتيب موضوعاتها صورة ثابتة مقرّرة حتى فرضت نفسها على المتأخرين فرضاً، وكذلك كان أسلوب التعبير عن هذه الموضوعات قد اتخذ صورة ثابتة حتى لم يعد بدٌّ للمتأخرين الذين اتخذوا من الشعر الجاهلي نماذجهم من الالتزام بهذه الصورة.

أما النثر، فإن القدماء من علماء الأدب ونقاده في اللغة العربية يرون أنه أسبق من الشعر، يقول ابن رشيد: «وكان الكلام كلّه منثوراً، فاحتاجت العرب إلى التغني بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة.. فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً»[1]. فهم يرون أن النثر هو أول ما ظهر من فنون الأدب، ثم نشأ الرجز، ثم الشعر.

(1) العمدة ـ ابن رشيق 5/1.

ومن مظاهر النثر: الخطابة والأمثال والحكم وسجع الكهان، لكن أكثره قد فُقد لعدم تدوينه لجهل أكثرية العرب بالكتابة، لذلك قلّ المرويُّ منه، بعكس الشعر الذي يسهل حفظه وروايته لما فيه من قيود الوزن والقافية مما يجعله عالقاً بالأذهان محفوظاً في القلوب.

إن الأدب يتغيّر بتغيرات البيئة، فالشاعر البدوي يصور لنا الصحراء وما فيها، والمتحضر يصف لنا ما حوله مكرهاً أو مختاراً، وإذا وصف أحدهما بيئة أخيه، أتى بكلام مقلّد، بعيد كل البعد عن واقع بيئته. ومن هنا كان من السهل علينا ونحن نقرأ قصيدة أن نعرف صاحبها إن كان جاهلياً أو إسلاميّاً، ومن السهل أيضاً أن نعرفه بدوياً أو حضرياً، ومن السهل أن نعرفه إن كان أميراً أو صعلوكاً يجوب القفار.

وبعد، إن العرب أمة صناعتها الكلام، ومفخرتها البيان، فهم أهل لسن وفصاحة، يزدهيهم القول، وتأخذ بألبابهم البلاغة، ومن هنا أُثِر لهم من جوامع الكلم، ونوابغ الأساليب، وفرائد القول، ما يعدّ على وجه الزمن من مآثرهم الخالدة ومناقبهم الباقية.

والدارس لمأثور كلامهم عليه أن يعود إلى مصادره الأولى إلى الأدب الجاهلي، نثره وشعره، ثم دراسة القرآن الكريم الذي جاء معجزة في البيان وحمل راية التحدّي لقدرات العرب اللغوية.

هذا القرآن الذي نزل على محمد بن عبد الله ﷺ وغيّر مفاهيم الأمم والشعوب، وأصبح العرب بفضله خير أمة على وجه الأرض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ينهجون في حياتهم نهجاً جديداً، ويقدمون لنا أدباً جديداً هو أدب صدر الإسلام، وهذا ما سنتحدث عنه في الفصول التالية.



الباب الثاني

الإطار التاريخي

الفصل الأول

مهد الإسلام

إن حياة العرب في الجاهلية كانت عرضة للمشاحنات والمنازعات، محفوفة بالمصاعب والأخطار، فقد كان على الإنسان العربي أن يبحث عن رزقه ورزق عياله، ومرعى لحيواناته، هذه الحالة كانت أكثر ما تكون في البوادي والصحارى، بينما في الحواضر، كانت الحياة تختلف نظراً للاستقرار والأمن فكانت الزراعة ناشطة نسبياً في الأماكن المجاورة للقرى حيث تتوفر المياه، وكانت التجارة ناشطة في بعض الأماكن وخاصة في مكة التي كانت محوراً لعلائق تجارية تربطها ببقية سكان شبه الجزيرة العربية بدواً وحضراً على حدٍّ سواء، وكانت محطة لتجارة عالمية تنطلق منها القوافل شمالاً حيث الامبراطورية البيزنطية، وشرقاً إلى بلاد فارس وجنوباً إلى اليمن ومنها إلى الحبشة والمحيط الهندي وغيره.

وكانت مكة حينها مركزاً رئيساً لعبادة الأصنام لأن فيها الكعبة التي كانت تضم عدداً من الأصنام تمثل معبودات العرب منها: اللات، والعزّى، ومناة وغيرها، لذلك كان العرب يحجّون إليها قبل الإسلام[1]، وكانت الديانة الوثنية هي السائدة في شبه الجزيرة العربية وإلى جانبها كانت الديانة اليهودية والمسيحية وكان بعضهم على الحنيفية وغيرها[2].

---

(1) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ص 19/13 ـ ترجمة محمد بدران ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة، الطبعة الثانية 1964.

(2) أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي ـ الجزء السادس ـ يتضمن معلومات وافرة عن أديان العرب قبل الإسلام.

كانت أراضي العرب ولم تزل محطّ أنظار الكثير من الطامعين بخيراتها وبالاستيلاء عليها نظراً لموقعها الجغرافي الهام، فقد طمع فيها البيزنطيون والرومان وحاولوا التغلغل فيها بمساعدة الغساسنة في شمال شبه الجزيرة العربية، وعمل الفرس بكل طاقاتهم وبمساعدة المناذرة للهيمنة على شبه الجزيرة العربية من الشرق، ثم جاء الأحباش وسيطروا على اليمن في جنوب شبه الجزيرة العربية وحاولوا التقدم نحو الشمال وكان على رأس جيشهم أبرهة الذي بنى بصنعاء كنيسة «القليس» التي لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض وكتب إلى النجاشي (امبراطور الحبشة): إنّي قد بنيت لك كنيسة لم يُبْنَ مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حجّ العرب»[1]. ثم إن ابرهة سار على رأس جيش كثيف لهدم الكعبة في مكة التي حاصرها عام 570 ميلادية، ولكنه ارتدّ عنها منهزماً، وكان في جيشه فيلة، ولم يكن أهل مكة رأوا فيلاً في الجيوش من قبلُ، فسمّوا ذلك العام «عام الفيل». في ذلك العام ولد: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم في مكة[2].

ويقول الطبري: «كان مولد رسول الله ﷺ في عهد كسرى أنو شروان، عام قدِم أبرهة من الحبشة إلى مكة، وساق فيه إليها الفيل، يريد هدم بيت الله الحرام.. وفي هذا العام كان يوم جَبَلة، وهو يوم من أيام العرب مذكور»[3].

ولما بلغ محمد ﷺ الأربعين من عمره اختاره الله لأداء رسالته وبعثه رسولاً إلى الناس أجمعين، تلك الرسالة التي غيّرت أحوال العرب تغييراً جذرياً وبالتالي كان لها شأنها على العالم أجمع.

لذلك سنحاول التعرّف إلى البيئة التي نشأ فيها الرسول، حيث بدأت الدعوة، أي مكة، ثم الأماكن التي انتقل إليها في سبيل دعوته أي الطائف

---

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 170/2 مكتبة المعارف بيروت ـ الطبعة الرابعة 1981.
(2) تاريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ 237/1 دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة 1981.
(3) تاريخ الطبري ـ محمد بن جرير الطبري 154/2 تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر 1968.

والمدينة (يثرب) وغيرها، وهي كما يلي:

1 ـ مكة

بيت الله الحرام ويقال إن اسمها أيضاً «بكة» ولها أسماء غير ذلك منها أم القرى والبلد الأمين وغيرها.. ومن شرفها أنها لم يؤدّ أهلها إتاوة ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان.. فهي مدينة في واد، والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي[1]. ولم تزل مناسك للحج يأتيها الناس من كل فجّ عميق فلا يدخلونها إلاّ متواضعين متخشعين متذلّلين كاشفي رؤوسهم متجردين عن لباس أهل الدنيا وهي بلد حرام آمن لا يُسفك فيه دماء.. الخ..[2] وهي في واد غير ذي زرع ومناخها حارّ لا يطاق صيفاً، ولكن موقعها في منتصف ساحل البلاد الغربي، وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر، جعلها محطة صالحة في طريق القوافل الطوال التى تجمع في بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض[3].

وفي النصف الأول من القرن السادس الميلادي كانت أحوال مكة في أوج النجاح والازدهار، وكانت تجارتها المحلية تعتمد على مركزها الديني، الذي كان بدوره معتمداً على نظامها التجاري، الذي تحوّل إلى تجارة دولية، ويعود الفضل في ذلك إلى هاشم كبير مكة «شيخ قريش» والجدّ الأعلى للنبي محمد ﷺ الذي حصل على عهود مع البيزنطيين والفرس وملوك الحبشة وبالتالي مع زعماء القبائل العربية، والجدير بالذكر أن النبي ﷺ كان مشاركاً نشطاً في تلك التجارة[4].

وهذه البلدة التاجرة استلزمت تجارتها، كما استلزمت الحياة فيها أن توجد بعض الصناعات فيها، وفي أخبارها أن منها من كان يعالج العطر والنبّ

---

(1) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي 181/5 ـ شرح مقامات الحريري البصري ـ بإشراف محمد عبد المنعم خفاجي ـ 127/3 ط 2 ـ 1979 المكتبة الشعبية.

(2) زاد المعاد ـ ابن القيّم الجوزي ـ 7/1 ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(3) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ ترجمة محمد بدران ـ 18/13.

(4) التاريخ الإسلامي في تفسير جديد ـ محمد عبد الحي شعبان ـ ص 23 دار الدراسات الخليجية ـ 1982.

وآخر نجاراً وثالث جزاراً. وغيره حداداً أو خزازاً أو حائكاً وكان جلّ هؤلاء من الأشراف[1].

ولعل فيما قدمناه ما يدل على ارتفاع شأن مكة في الجاهلية، فقد كانت تُعدّ عاصمة الجزيرة العربية، وقد اتخذت من عكاظ سوقاً يلتقي فيه الخطباء والشعراء، وبذلك كانت قطب الدائرة الأدبية في الجزيرة العربية، فضلاً عن ثرائها ومكانتها التجارية والدينية، ولم تزل كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً ﷺ.

2 ـ المدينة

مدينة الرسول ﷺ، أو يثرب كما كانت تسمّى في الجاهلية، وقد ذكر ياقوت الحموي أن لها تسعة وعشرين إسماً منها: طابة، وطيبة، والمسكينة، والعذراء والخ.. وأما قدرها فهي مقدار نصف مكة، ولها نخيل كثيرة ومياه، ونخيلهم وزروعهم تسقى من الآبار وأعذب مياه تلك الناحية آبار العقيق. وكان أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخل وعمّر بها الدور هم العماليق، وظلوا أسياد المدينة حتى أتاهااليهود الهاربين من بطش الروم في بلاد الشام وهم من بني قريظة والنضير وغيرهم،. فأصبحوا هم أسياد المدينة وظلوا كذلك حتى مجيء الأوس والخزرج النازحين من اليمن فأقاموا إلى جوارهم على جهد وضنك من العيش ثم انتصر الأوس والخزرج على اليهود بمساعدة ملك الروم وصار لهم الأموال والآطام»[2] ولما شعر اليهود أن لا قبل لهم بالأوس والخزرج عملوا في الدس والوقيعة بينهما، وقد كان اليهود يمدّونهما بالسلاح الذي يستخدمانه في حروبهما، إذ كانت فئة منهم تصنع الأسلحة، فكانت فائدة اليهود من ناحيتين: الأولى: إذكاء نار الحرب بين أعدائهم (الأوس والخزرج)، والثانية: بيع الأسلحة التي يصنعونها وبذلك تكون فائدتهم مادية. وهكذا اشتعلت نار الحرب بين الأوس والخزرج في المدينة في أواخر العصر الجاهلي وكانوا لا يرفعون أيديهم من دماء حرب قديمة حتى يغمسوها في دماء حرب جديدة، وكأنما تعاهدوا على الفناء، وهكذا نراهم غارقين في الدماء كما كانوا

(1) المحاسن والأضداد ـ الجاحظ ص 93 ـ دار صعب ـ بيروت ـ تحقيق فوزي عطوي.

(2) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي 82/5.

غارقين في الوثنية، وحينها كانت بعثة الرسول ﷺ الذي نزل في المدينة وأنقذهم مما كانوا عليه، وجعلهم بنعمة الله إخواناً[1].

3 ـ الطائف

كانت بلدة صغيرة على طرَف واد وهي محلّتان: إحداهما على هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف والأخرى على هذا الجانب يقال لها الوَهْط، والوادي بين ذلك تجري فيه مياه المدابغ التي يُدبغ فيها الأديم، تصرع رائحتهاالطيور إذا مرّت بها، وفي أكنافها كروم العنب، وكانت حاصلاتها تشمل العسل والبطيخ والموز والتين والزيتون والعنب، وأمّا زبيبها فيضرب بحسنه المثل، واشتهرت ورودها بالعطر الذي كان يمدّ أهل مكة بما يحتاجون إليه من طيب؛ وهي تقع على إرتفاع نحو ستة آلاف قدم وهي طيبة الهواء، وكانت ولم تزل مصيفاً لأرستقراطية مكة. وقيل سميت طائفاً بحائطها المبني حولها المحدق بها. وجلّ أهل الطائف ثقيف وحمير وقوم من قريش، ثم حسدهم طوائف العرب وقصدوهم فصمدوا لهم وجدّوا في حربهم، فلما لم يظفروا منهم بطائل تركوهم على حالهم، هم أغبط العرب عيشاً إلى أن جاء الإسلام[2].

وبعد أن تعرفنا على مكة والمدينة والطائف التي كانت مهداً لانطلاقة الدين الجديد الذي أتى به محمد ﷺ، يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على الجزيرة العربية التي ساهم شعبها مساهمة فعالة في نشر الإسلام خارج حدودها حتى أن هذه الأمة العربية تمكنت وفي مدى قرن واحد أن تنشىء دولة عظيمة واسعة الأرجاء بسطت سلطانهامن شواطىء المحيط الأطلسي إلى تخوم الصين.

4 ـ أطراف الجزيرة

إن شبه جزيرة العرب تمتد في رقعة من الأرض واسعة إذ ليس في خريطة الكرة الأرضية جزيرة تضاهيها حجماً، فما بين البحر الهندي في أقصى الجنوب

---

(1) الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ـ شوقي ضيف ص 18 ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1967.

(2) تاريخ العرب ـ فيليب حتي ورفيقيه ـ ص 150 ـ دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الخامسة 1974. وانظر معجم البلدان ـ ياقوت الحموي 9/40.

إلى ما بعد دمشق في أقصى الشمال، وما بين بحر فارس ونهري دجلة والفرات في الشرق إلى البحر الأحمر بل إلى نهر النيل في الغرب، كان يعيش العرب. وكان لا بدّ لهذه الرقعة المترامية الأطراف من أن يختلف مناخها كما اختلفت طبيعة أرضها ففيها الحرّ الذي يشوي الوجوه، والثلوج التي تكلل الجبال وفيها ما بين هذا وذاك مناخ معتدل، وفيها أمطار غزار تنساب أنهاراً وجداول تقوم على جانبيها مدن وقرى، وتهتز الأرض فتخرج من ثمرها وبقلها وفاكهتها ما شاء لها الله، وقد تمسك السماء فيكون من هذا الرذاذ مراع ينتجعها سكان الصحارى بأنعامهم. وقد ينقطع الغيث لفترة طويلة فلا يجد قاطن الصحراء من أسباب العيش فيهيم على وجهه باحثاً عن رزق وقد لا يجد إلاّ إنساناً آخر يفتك به وتبدأ المعارك بين القبائل وهكذا..[1].

وبما أن معظم سطح شبه الجزيرة العربية صحراء يحيط بها البحر من عدة جهات، فإذا ما زاد عدد السكان عن طاقة الأرض لاحتمالهم كان على الفائضين أن يبحثوا لهم عن مدى حيوي يعيشون فيه وليس أمامهم سوى الاتجاه نحو الشمال، وهذا كان دأبهم منذ عدة قرون قبل الميلاد، وتلك الموجات التي نزحت أصبحت مع تعاقب الأجيال أمم البابليين والأشوريين والفينيقيين والعبرانيين[2].

وبما أن لشبه الجزيرة العربية موقع جغرافيّ مهم، لتوسطها بين الشرق والغرب وبالتالي فهي صلة وصل بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، لذلك كان طريقاً تجارياً هامّاً، فكان لها تجارتها الداخلية والخارجية، وكان لهم حرف صغيرة وصناعات كثيرة[3].

---

(1) مصادر الشعر الجاهلي ـ ناصر الدين الأسد ص 4 ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الرابعة 1969.

(2) تاريخ العرب ـ فيليب حتي ـ ادوار جرجي ـ جبرائيل جبور ـ ص 29 ـ دار غندور ـ بيورت ـ الطبعة الخامسة 1974.

(3) أنظر كتاب الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي ـ واضح الصمد ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر 1981.

وفي تلك البقعة من العالم كان العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب: كان منهم من آمن بالله، ومنهم من تعبّد الأصنام زاعمين أنها تنفع وتضر، ومنهم من دان باليهودية، ومنهم من دان بالنصرانية، ومنهم من دان بالمجوسية ومنهم من لم يعتقد بشيء، ومنهم من تزندق، ومنهم من آمن بتحكّم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة، وببطلان كلّ شيء بعد الموت فلا حساب ولا عقاب..[1].

وقد كان لبعض القبائل عبادات وأصنام خاصة بها، وبزوال تلك القبائل نتيجة الحروب أو غيرها تزول معها تلك العبادات والأصنام، وقد تنشأ معارك وحروب بسبب المذاهب والمعتقدات، كما حصل بين اليهود والنصارى حين قدم ذو نواس بجنوده إلى نجران التي كانت من المراكز الرئيسة للنصرانية في شبه جزيرة العرب فدعاهم إلى اليهودية وخيّرهم بين ذلك والقتل، فاختاروا القتل، فخدّ لهم الأخدود، فحرق من حرق في النار، وقتل من قتل بالسيف ومثّل بهم حتى قتل منهم قريباً من عشرين آلفاً[2].

في هذا الواقع الجغرافي والاجتماعي والديني، كان يعيش العرب في العصر الجاهلي، وقد ظلوا على هذا الحال حتى جاء محمد ﷺ بالإسلام، فغيّر أوضاعهم تغييراً جذريّاً، فجمع شتاتهم، وجعلهم أمة واحدة، تصبو إلى هدف واحد، وتعبد ربّاً واحداً.

---

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 34/6 ـ دار العلم للملايين ـ مكتبة النهضة بغداد ـ ط 1978/2.

(2) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي 268/5.

الفصل الثاني

البعثة النبويّة

حياة الرسول من المولد حتى المبعث

كان العرب إذن مهيئين للنقلة، متأهبين للثورة الدينية والسياسية الكبرى التي اتخذت في أول الأمر مظهراً دينيّاً لم يلبث أن اكتسب طابعاً سياسياً، وأصبحت الدعوة في آن واحد إلى دين ودولة، ظهرت هذه الثورة في مدينة مكة معقل الوثنية العربية، والمركز التجاري الهام في الجزيرة العربية.

وصاحب الدعوة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.. ويرتفع نسبه الكريم إلى عدنان ثم إلى ابراهيم الخليل وأخيراً إلى شيث بن آدم عليه السّلام.[1] ووالدته آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة الخ.. وكانت يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً[2]. وكان عبد الله أيضاً من أجمل رجال قريش، وقد توفي عبد الله وزوجه آمنة حامل بالنبي ﷺ، وكانت وفاته في المدينة التي عرّج إليها وهو عائد من الشام في تجارة لأنه أحسّ بالمرض ينتابه فآثر البقاء هناك عند أخواله بني عديّ بن النجار فأدركته المنية ومات وله خمس وعشرون سنة. وبعدها ولد النبي يوم الاثنين لعشر ليالٍ خلون من شهر ربيع الأوّل، وكان ذلك العام عام الفيل[3]. وبما أنه ولد يتيم الأب،

---

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ تحقيق السقا والأبياري وشلبي 1/1 ـ والطبقات الكبرى لابن سعد 55/1 ـ دار صادر ـ بيروت.

(2) السيرة النبوية ـ ابن هشام 156/1 ـ والطبقات لابن سعد 59/1 ـ والمعارف ـ ابن قتيبة ص 129 ـ دار المعارف بمصر 1969.

(3) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 100/1.

احتضنه جدّه عبد المطلب، وقام (على قاعدة ارستقراطية مكة) بدفعه إلى مرضعة بدوية من بني سعد، عرفت باسم حليمة ابنة ذؤيب، حيث بقي عندها حوالى خمس سنوات، نال حظه هناك من الهواء النظيف واللغة السليمة، والعادات القويمة وبعدها عاد إلى أمه وجدّه، وبعد عودته بقرابة عام سافرت به أمه إلى يثرب لزيارة أقاربهم وفي طريق العودة توفيت فأصبح يتيم الأبوين، يرعاه جدّه عبد المطلب. ولما بلغ الثامنة من عمره توفي جدّه، وكان المأوى هذه المرّة بيت عمه أبي طالب الذي كان يسافر برفقة القوافل، وبعدها اصطحب معه ابن أخيه أثناء عمله داخل مكة وخارجها، وهكذا زار محمد ﷺ بقاع الجزيرة العربية والشام وغيرها[1]. وقد ورد أنه لما وصلت القافلة إلى بصرى من أرض الشام رآه راهب نصراني يقال له: بَحِيرَى، ولمح فيه مخايل النبوة وعلاماتها، فأوصى به عمه أبا طالب بأن يعود به إلى مكة وأن يحذر عليه اليهود[2]. وشبّ رسول الله ﷺ في مكة في رعاية عمّه أبي طالب، واشتغل حيناً يرعى الغنم لأهل مكة، ولما بلغ أربع عشرة أو خمس عشرة سنة حضر حرب الفِجَار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عَيْلان.

وكانت خديجة بنت خُوَيلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة لشدة عفافها وصيانتها، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعِظَم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالٍ لها إلى الشام تاجراً، فقبل وخرج مع غلام لها يدعى ميسرة، ولما عاد إلى مكة بتجارته، باعتها خديجة وربحت منها كثيراً وأخبرها ميسرة أنه لاحظ أشياء عجيبة على رسول الله، وكانت امرأة حازمة شريفة لبيبة كثيرة المال، فطلبت الرسول وعرضت عليه نفسها، فرضي بذلك، لأن كلّ قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر، وتزوجها وكان عمره خمساً وعشرين سنة، وكان عمر خديجة إذ ذاك أربعين سنة وقيل خمساً وأربعين[3].

فلما بلغ الرسول خمساً وثلاثين سنة عملت قريش على تجديد بناء

(1) مائة أوائل ـ سهيل زكّار ـ ص 14 ـ دار حسان ـ دمشق ـ الطبعة الثانية 1982.

(2) تاريخ الطبري ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم 278/2.

(3) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص 167/1 وما بعدها ـ والكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 39/2 دار صادر بيروت 1979.

الكعبة، حتى إذا بلغ البنيان موضع الركن حيث سيوضع الحجر الأسود، اختصمت قبائل قريش فيه، كل قبيلة تريد أن تحصل على شرف رفعه ووضعه مكانه، حتى أنهم استعدوا للقتال، فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً، ثم اتفقوا على أن يقبلوا بتحكيم أول من يدخل عليهم، وكان أن دخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد. فأتى بثوب ووضع فوقه الحجر الأسود، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بُني عليه[1].

ثم إن الرسول حضر حلف الفُضول الذي اتفقت عليه قبائل قريش والذي يقضي بالوقوف إلى جانب أي مظلوم من مكة حتى تردّ إليه مظلمته[2].

وإن أمهات الكتب التي اعتنت بدراسة سيرة الرسول ﷺ، وهي كتب مشهود لها بالثقة أمثال: السيرة النبوية لابن هشام، وكتاب الطبقات لابن سعد، وتاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير وأنساب الأشراف للبلاذري وغيرها تجمع على أن سيرة الرسول ﷺ هي سيرة مثالية لأي إنسان يريد أن يعيش سعيداً كريماً وكذلك فهي شاملة لكل النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق وكل مربّي، وهكذا.. إذا كانت هذه سيرة رسول الله، فكيف كانت طريقه لبلوغ غايته؟ وما هي الصعوبات التي صادفته؟ وكيف تمكن من الوصول إلى تبليغ رسالته؟

كيف بدأ الوحيُ؟

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بُدِيء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثلَ فلق الصبح، ثم حبّبت إليه الخلوة، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه (أي يتعبّد)، ويمكث الليالي قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام 192/1 ـ تاريخ الطبري 290/2.

(2) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 41/2.

الحق وهو في غار حرّاء. وعرض له جبريل ليلة السبت وليلة الأحد، ثم أتاه بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، ورسول الله ﷺ ابن أربعين سنة[1].

ثم إن النبي ﷺ بادر بالدعوة إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان والأصنام، وبدأ بأقرب الأقربين إليه وظل ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أُمر بالجهر بالدعوة بعدها. فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال (صغارها) وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به، وكُفّار قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مرّ عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أنّه يكلّمُ من السماء، فلمّا عاب آلهتهم التي يعبدونها وذكر أنّ آباءهم ماتوا على الكفر حينها ناصبوه العداء[2].

وقد ورد أن أول من آمن وأسلم زوجة النبي ﷺ خديجة بنت خويلد، وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق، وأول من أسلم من الصبيان علي بن أبي طالب، وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة، وأول من أسلم من العبيد بلال الحبشي، وأول ما ظهر الإسلام بمكة وأقيمت الصلاة علانية حين أسلم عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم أجمعين[3].

وإثر ذلك ازدادت شراسة أعداء الرسول وهم بمجملهم من قريش وظهر عليهم الحسد والبغي، ومنهم من أظهر حقده وكراهيته ومنهم من تستّر مع أنهم على رأيهم، ومن أشهر أولئك الأخصام العنيفين: أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس بن عديّ والوليد بن المغيرة وغيرهم. وقد قال رسول الله ﷺ: كنت بين شرّ جارَيْن، بين أبي لهب وعُقبة بن أبي مُعيْط إن كانا ليأتيانِ بالْفَروث فيطرحانها على بابي..[4].

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 2/3 ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة 1980 ـ أنساب الأشراف ـ البلاذري ص 105.

(2) الطبقات ـ ابن سعد 200/1.

(3) محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ـ علاء الدين البسنوي ص 31 ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1978 وانظر البداية والنهاية ـ ابن كثير 24/3.

(4) الطبقات ـ ابن سعد 201/1.

وواصل النبيّ عرض دعوته على قومه وعلى غيرهم، فعاب آلهتهم وحقّرها، وأجمعوا على إيذائه ومعاداته وقدم جماعة منهم يشكونه إلى عمه أبي طالب وطلبوا منه إما أن يكفّه عنهم أو يخلي بينه وبينهم، فردّهم أبو طالب ردّاً جميلاً، وكان هو على علم بكل ما يفعله ابن أخيه، ومضى رسول الله في دعوته للإسلام، فلم يرهبه تهديد قريش، وأدركت قريش مدى خطورة الدعوة الإسلامية على عبادة الأوثان التي هي المصدر الرئيسي لما كانوا يجنونه من ثروات في مواسم الحج. فقصد وفدٌ منهم ثانية أبا طالب، وخاطبوه بلهجة قاسية، فيها التهديد والوعيد، ثم انصرفوا عنه، فعظم الأمر على أبي طالب، وحدّث الرسول بذلك ورجاه أن يُبقي على نفسه وعليه، ولا يُحمله ما لا يطيق. فظن النبي أن عمه قد ضعف وأنه سيسلمه إلى قريش، فقال لعمه: يا عمّ والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته. ثم استعبر فبكى وقام منصرفاً، فناداه عمه، فقال: إذهب يا ابن أخي، فقلْ ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيءٍ أبداً[1]. ومنذ ذلك الحين، نذر أبو طالب حياته ثم تسلّط مشركو قريش على النبي وعلى من اتبعه من المسلمين بالإيذاء قولاً وفعلاً، وكان من أشد الناس قسوة عليه، عمّه أبو لهب وزوجته وبالغت قريش في مناهضة الإسلام، فوثبت كل قبيلة منها على من أسلم من أبنائها يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، ويفتنونهم عن دينهم[2].

الهجرة إلى الحبشة

ولما رأى النبي ما أصاب أتباعه المسلمين من البلاء والاضطهاد أذن لهم بالهجرة إلى أرض الحبشة التي كانت بلداً مسيحياً وقد عُرِفَ عن ملكها التسامح وسعة الإدراك، وكان أول من هاجر إليها عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله مع أحد عشر رجلاً وثلاث نسوة وتبعهم آخرون حتى بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً بخلاف الزوجات والأولاد[3]. وأقام المسلمون آمنين

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام 266/1.

(2) البداية والنهاية ـ ابن كثير 49/3.

(3) زاد المعاد ـ ابن القيّم الجوزي ص 44/2 ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ص 330.

في أرض الحبشة يتمتعون بحريّة تامة ورعاية شاملة في ظل النجاشي ملكها.

على أن الإسلام لم يلبث أن تقوّى بإسلام حمزة بن عبد المطلب ثم بإسلام عمر بن الخطاب، مما أثار غضب المشركين فائتمروا فيما بينهم وتعاقدوا على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب وعزلهم عنهم في شعب أبي طالب، وظلوا على هذا الحال سنتين وقيل سنين. ثم حصل خلاف بين القرشيين أعيد على أثره الرسول وبنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى ديارهم، ثم توفي أبو طالب وخديجة زوجة الرسول وكان بينهما شهر وخمسة أيام وبذلك فقد النبيّ سندين مناصرين له في نضاله، فاشتد إيذاء قريش له، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة يلتمس النصرة من ثقيف في السنة العاشرة من النبوة، ولكنهم أخذوا يتهكمون عليه ورموه بالحجارة فأدموا قدميه وحاول زيد أن يقيه بنفسه فشجّ في رأسه وأخيراً عاد إلى مكة محزوناً لأنه لم يستجب له رجل واحد[1].

قدم رسول الله ﷺ مكة وقومه أشد خلافاً معه إلاّ بعض المستضعفين ممن آمن به فكان يعرض نفسه في المواسم، إذا كانت، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويسألهم أن يصدقوه بنبوته.

ولما أراد الله عزّ وجلّ إظهار دينه، وإعزاز نبيّه ﷺ، خرج الرسول في الموسم فلقي رهطاً من الخزرج عند العقبة، قادمين من المدينة لخلاف بينهم وبين أنسبائهم الأوس فعرض عليهم الإسلام فآمنوا وصدّقوا وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، فلما قدموا المدينة ذكروا ما كان بينهم وبين الرسول ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا بينهم وبعدها حصلت عدة بيعات بين الرسول وبين جماعات من المدينة من الأوس والخزرج، وبعث إليهم مصعب بن عمير ليفقههم في الدين، وعلى يدي مصعب وأسعد بن زرارة تم إسلام عدد كبير من أهل المدينة[2].

---

(1) الطبقات ـ ابن سعد 211/1 ـ وانظر السيرة النبوية ـ ابن هشام ص 419.

(2) السيرة النبوية ـ ابن هشام ص 428وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهجرة إلى المدينة:

لقد حدّدت بيعة العقبة الثانية وضع النبي بين أهل المدينة، فقد اعتبرته واحداً منهم، إذ التزم كلٌّ من الأوس والخزرج بحمايته والدفاع عنه بعد وصوله إليهم مباشرة. ثم أمر الرسول المسلمين بالهجرة إلى المدينة واللحاق بإخوانهم من الأنصار، وظل هو في مكة ينتظر أن يأذن له ربُّه بالخروج إلى دار الهجرة ولم يبق معه من المسلمين إلاّ أبو بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب، ومن كان منهم محبوساً عند مشركي مكة، أو مريضاً أو ضعيفاً عن الخروج[1].

فلما رأت قريش أن رسول الله قد أصبح له شيعة وأصحاب من غيرهم وبغير بلدهم مكة، وأنهم أصابوا من أهل المدينة منعة، خافوا لحاق النبي بهم ومن ثم يعود للانتقام منهم فاجتمع شيوخ قريش وأخذوا باقتراح أبي جهل، القاضي بأن يجمعوا من كل قبيلة منهم شاباً قوياً ذا نسب، يسلحونه بسيف صارم، ثم يضربوا النبي بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه، ويتفرق دمه في القبائل جميعاً، فلا يدري بنو عبد مناف ما يصنعون، ولا يقوون على حرب جميع قريش. وأتى جبريل رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿وإذ يمكرُ بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك..﴾**[2] فأمر علياً فنام على فراشه ليختلط الأمر على المتآمرين فيظنون أنه النبي، ولكي يؤدّي ودائع كانت للناس عنده؛ وخرج النبي وأبو بكر الصديق حتى أتيا غار ثور، وظلاّ فيه ثلاثة أيام، انصرفا بعدها إلى المدينة، فدخلاها يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وللنبي ثلاث وخمسون سنة[3].

سمع المسلمون في المدينة بخروج النبي ﷺ من مكة، ولما وصل إليهم انتشر الخبر سريعاً بين المهاجرين والأنصار فاستقبلوه استقبالاً عظيماً. ثم بنى مسجد قباء وهو أول مسجد أسس على التقوى، وأقام من حوله مساكنه، وبدأ العمل على توحيد تلك الجماعات المسلمة فربط بين المهاجرين والأنصار

---

(1) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 225/1 وما بعدها.

(2) القرآن ـ سورة الأنفال 30/8.

(3) تاريخ الطبري 260/1 ـ وانظر التنبيه والاشراف ـ المسعودي ص 200 ـ دار صعب ـ بيروت.

برابطة المؤاخاة، ووضع الصحيفة التي تعتبر بحق دستور دولته في المدينة، ثم شرع الجهاد الذي منح المسلمين صفة سياسية واستكملت يثرب بذلك أهم خصائص الدولة المدنية، وكذلك كفل لليهود والنصارى حريّة عقيدتهم منطلقاً من مبدأ حسن الجوار الذي يقوم على المحبّة والوحدة وليس على النفور والفناء[1].

كان اليهود يستغلّون كلّ مناسبة للعمل بمساعدة المنافقين على محاربة محمد ﷺ وأتباعه من المسلمين، فقد حاولوا الغدر به في معركة «أحد» لذلك طرد بني النضير من اليهود من المدينة، وفي معركة الخندق، عندما أحاطت قريش ومن آزرها من القبائل المدينة، نقض بنو قريظة اليهود عهدهم مع رسول الله وأصبح المسلمون بين عدوّين: داخلي وخارجي. ولما عجزت قريش وحلفاؤها عن دخول المدينة عادوا أدراجهم إلى مناطقهم، وعاد المسلمون ليصبحوا وجهاً لوجه أمام يهود بني قريظة فحاصرهم المسلمون خمس عشرة ليلة استسلموا على أثرها، وبالقضاء على بني قريظة تطهرت الجبهة الداخلية من عدوٍّ شرس شديد البأس، وضعف أمر المنافقين من الأوس والخزرج[2].

وفي العام السادس للهجرة، وبعد أن عقد النبيّ صلح الحديبية مع قريش وتخلّص من يهود المدينة إتجه إلى خارجها لنشر الدعوة الإسلامية في نطاق الجزيرة العربية وخارجها، فأرسل رسله إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ومنهم: عبد الله بن حُذافة السهميّ إلى كسرى، ودِحيّة بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وعمرو بن أمية الضمريّ إلى النجاشي، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمّر الغساني، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الاسكندرية، وجرير بن عبد الله البجليّ إلى ذي الكلاع الحميري وغيرهم. ثم قدمت عليه وفود العرب من كل حدب وصوب، ولكل قبيلة رئيس يتقدمهم[3].

---

(1) حياة محمد ـ محمد حسين هيكل ـ ص 221 ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة عشر ـ 1968 ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ص 501 النص الكامل للصحيفة.

(2) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص 34.

(3) تاريخ اليعقوبي ـ المجلد الثاني ص 77 وما بعدها ـ دار صادر ـ بيروت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتح مكة

وبما أن قريش نقضت اتفاق الحديبية حينما أقدم حلفاؤهم بنو بكر بن عبد مناة على الاعتداء على بني خزاعة حلفاء الرسول، وقتلهم بعض أفراد من خزاعة، فاستغاث هؤلاء بالرسول الذي وعدهم بالنصرة، وعزم على فتح مكة فأعدّ جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل، وتدخّل الوسطاء فقال لهم رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن». ودخل جيش المسلمين مكة من عدة جهات، وعفا الرسول عن عامة قريش إلاّ بعض الأنفار وقال لهم: «يا معشر قريش، ما ترون أنّي فاعل بكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1]. ثم أمر بتحطيم الأصنام، وبفتح مكة سقط المعقل الرئيسي للوثنية في جزيرة العرب، وبالتالي تحققت المرحلة الأولى الهامة من توحيد العرب بالإسلام، ولم يمض عام واحد حتى امتد سلطان الدولة الإسلامية إلى جميع بلاد العرب.

وبدخول قبائل العرب في الإسلام في عامي تسعة وعشرة من الهجرة لم يبق إلاّ مناذرة الحيرة وغساسنة الشام، فأمر الرسول بإنفاذ حملة لتأديبهم لأنه سبق لشرحبيل الغساني أن قتل رسول النبيّ، وجعل على قيادتها أسامة بن زيد بن حارثة ولكن لم يقدّر لهذه الحملة أن تحقق مهمتها في حياة الرسول بل تم ذلك في بداية خلافة أبي بكر، ثم حجّ النبي حجّة الوداع وقد أدّى مناسكها على النظام الإسلامي وكان يرافقه عدد ضخم من الحجاج، وخطب في الناس خطبته الأخيرة المشهورة بخطبة الوداع وعاد إلى المدينة سنة إحدى عشرة للهجرة ثم مرض مرضه الذي مات فيه وذلك يوم الاثنين للنصف من شهر ربيع الأول ودفن ليلة الأربعاء[2]. بعد أن أكمل رسالته، وأتم الله نعمته على المسلمين.

---

(1) مروج الذهب ـ المسعودي 290/2.

(2) تاريخ الطبري 543/1 - تاريخ اليعقوبي 113/2.

الباب الثالث

القرآن الكريم

الفصل الأول

نزوله، جمعه، تفسيره، أهم علومه

وصل العرب في أواخر العصر الجاهلي إلى مستوى رفيع بفصاحتهم وبلاغتهم في منثور الكلام ومنظومه. وكان الخطباء والشعراء يتساجلون في الأسواق والندوات والمناسبات ونصّبوا المحكمين ليفصلوا فيما بينهم، وظلّوا هكذا حتى بزغ فجر الإسلام.

ومن فضل الله على عباده أنه لم يتركهم على فطرتهم بل كان يبعث إليهم بين الفترة والفترة رسولاً يحمل من الله كتاباً، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينذرهم من سوء العاقبة إذا حادوا عن الطريق المستقيم. وظلت الانسانية في تطورها ورقيها الفكري، والوحي يعاودها بما يناسبها ويحلّ مشاكلها الوقتية في نطاق قوم كل رسول، حتى أرسل محمداً ﷺ، ليكمل صرح إخوانه الرسل الباقين، وأوحى إليه بالقرآن الكريم، رسالته إلى البشرية جمعاء. وقد سمّاه الله بأسماء كثيرة منها:ـ القرآن: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ الاسراء: الآية 9.

ـ الكتاب: ﴿**تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين**﴾ السجدة: الآية 2.

ـ الفرقان: ﴿**تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾. الفرقان: الآية 1.

ـ الذكر: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾. الحجر: الآية 9.

ـ التنزيل﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾. الشعراء: الآية 192.

وإن اسم القرآن هو الأغلب والأكثر شهرة.

فالقرآن هو كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم عليم. فيه آيات محكمات تنظم حياة الإنسان في الدنيا، وترشده إلى سعادة الآخرة، فهي تقضي على الأوهام الباطلة، والأساطير الكاذبة، والعبادات الضالّة، وبفضلها انتقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى، والطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض إلى حياة الطمأنينة والعدل والاخاء.

ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين، حيّر عقول البلغاء والفصحاء لما فيه من الاعجاز، وقد اعترف بذلك من يُشهد لهم بالفهم العميق والإدارك الكبير للّغة العربية وأغوارها، فقد تحيّر الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن، وكان لم يزل على الوثنية،، حينما اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، فقد نفى أن يكون محمد ﷺ كاهناً أو مجنوناً أو شاعراً أو ساحراً، ولكنه قال: والله إنّ لقوله لحلاوة[1].

أ ـ نزول القرآن

كان الرسول ﷺ يتعبّد بغار حراء، فأتاه جبرائيل فقال: يا محمد أنت رسول الله، قال رسول الله ﷺ: فجثوت لركبتي ثم رجعت ترجف بوادري (لحمة بين المنكب والعنق)، فدخلت على خديجة فقلت: زمّلوني زمّلوني! ثم ذهب عنّي الرّوع، ثم أتاني فقال: يا محمد أنت رسول الله، قال: لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق، فتبدّى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبرائيل، وأنت رسول الله، قال: إقرأ، قلتُ: وما أقرأ؟ قال: فأخذني فغتّني ثلاث مرّات حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: اقرأ باسم ربّك الّذي خلق...الخ»[2]. فقرأت.. ثم تتابع الوحي بعدُ وحميَ. ثم إنّ أول ما نزل عليه من القرآن بعد إقرأ:

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام ص 270.

(2) سورة العلق ـ الآية 1.

«ن والقلم وما يسطرون»، و«يا أيّها المدثر» و«الضحى»[1].

وظل جبرائيل عليه السّلام يلقّنه القرآن الكريم طيلة مدة الدعوة الإسلامية من حياته ومدتها حوالى ثلاث وعشرين سنة، وفي القرآن مائة وأربع عشرة سورة، منها القِصار كسورة الإخلاص. ومنها الطِّوال كسورة البقرة، وسورة آل عمران وسورة النساء وغيرها. وآخر آية نزلت على أشهر الأقوال: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**.

وسور القرآن قسمان: سور مكيّة نزلت في مكة وسور مدنيّة نزلت في المدينة. وأشهر الأقوال في تعريف المكي والمدنيّ: أن المكيّ ما نزل قبل الهجرة في مكة أو في ضواحيها، كمنى وعرفات والحديبيّة. ومنه ما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغها النبي ﷺ؛ والمدني ما نزل بعد الهجرة في المدينة أو في ضواحيها، كبدر، وأُحد وسَلْع، ومنها ما نزل في مكة عام الفتح، أو عام حَجّة الوَداع، وما نزل في سفر من الأسفار بعد الهجرة[2].

لقد قضت حكمة الله عزّ وجلّ أن يُنزّل القرآن الكريم على رسوله ﷺ منجّماً أي على أقساط طيلة ثلاثة وعشرين عاماً حتى تتهيّأ النفوس البشرية لتلقّي هذا الفيض الالهي، وكان أول نزوله في شهر رمضان: **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس﴾** وفي ليلة معلومة منه هي ليلة القدر: **﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾**. وكان نزوله بلغة عربية: **﴿إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً﴾**، إنه كلام الله أوحى به عن طريق جبريل عليه السّلام إلى النبي محمد ﷺ ليبلّغ آخر رسالات ربّه إلى الناس كافّة.

وكان الرسول يأمر بكتابة كلّ ما ينزّل من القرآن وقت نزوله، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتبين مثل: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وزيد بن ثابت وأُبَيّ بن كعب، ومضى كثير من كَتبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم،

---

(1) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 48/2 وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد 196/1.

(2) صفوة البيان لمعاني القرآن ـ حسنين محمد مخلوف ـ ص ز ـ الكويت ـ الطبعة الثالثة 1987.

على أنهم جميعاً لم يعوّلوا على كتابته فقط إنما عوّلوا أولاً على حفظه وأخذه شفاهاً عن الرسول الأمّيّ، الذي كان يحفظه ويتلوه على المسلمين وساروا على سنته يتحفظونه ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار. وكانت الكتابة تتم على سعف النخل والرّقاع وقطع الأديم وعظام ألواح الشاة والإبل وأضلاعها[1].

ب ـ توثيق النص القرآني (جمعه)

مرّ توثيق النص القرآني في مراحل ثلاث:

1 ـ **توثيقه في عهد الرسول ﷺ:** كانت الخطوة الأولى لتوثيق النص القرآني، كتابته حين النزول ومنع كتابة شيء سواه حتى لا يختلط به ما ليس منه يدلّ على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أن النبيّ ﷺ قال: «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه». وبهذا النهي توقّف الصحابة عن كتابة أحاديث الرسول ﷺ صيانة للقرآن. بيد أنه لم يجمع في مصحف، لأنّ الحاجة لم تكن ماسة إليه إذ ذاك، حيث كان الصحابة يتسابقون في حفظه ويتبارون في كتابته، والرسول عليه السّلام بين ظهرانيهم يتلو عليهم آياته، ويبيّن لهم أحكامه وقد تمّ نزول القرآن بوفاته[2].

2 ـ **توثيقه في عهد أبي بكر رضي الله عنه:** لما انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربّه، وقامت حروب الردّة وقتل فيها كثير من القرّاء من الصحابة وخاصة في يوم اليمامة حيث قتل منهم زهاء سبعين، هال هذا الأمر عمر بن الخطاب فذهب إلى الخليفة أبي بكر وقال له: يا خليفة رسول الله، إن حملة القرآن قد قتل أكثرهم يوم اليمامة، فلو جمعت القرآن، فإنّي أخاف عليه أن يذهب حملتُه، فاقتنع ودعا زيد بن ثابت وطلب منه جمع القرآن وقال له: «إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فاجمعه. قال زيد: فوالله لئن كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليّ مما أمرني به

---

(1) تاريخ الاسلام ـ حسن ابراهيم حسن ـ ص 498 ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة السابعة 1964. وانظر تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ شوقي ضيف ـ ص 25 ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الرابعة 1963.

(2) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ـ عبد العال سالم مكرم ـ ص 2 ـ دار المعارف بمصر 1965.

من جمع القرآن، فقلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبّعت القرآن أجمعه من الرّقاع، واللّخاف (حجارة بيض رقاق)، والأكتاف، والعُسُب، وصدور الرجال... فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفّاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم[1]. وهنا نشير إلى أن الصحف غير المصحف المجموع بين دفتين.

3 ـ توثيقه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه: لاحظ حذيفة بن اليمان، قائد عثمان في غزو أذربيجان، اختلاف المسلمين في قراءة القرآن، فأشار على الخليفة عثمان بن عفان بتدوين مصحف يقرؤه المسلمون، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب أن أرسلي إلينا بالمصحف ننسخ منه نُسَخاً، ثم نردّه إليك، فأرسلت به إليه، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقال عثمان للرهط القرشيين، وهم الثلاثة الأخيرون: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، فصدعوا بأمره. وردّ عثمان مصحف أبي بكر إلى حفصة، وطابت نفسه، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القرّاء إلى الأمصار، ومضى القرّاء يُقرئون الناس القرآن على حرف هذا المصحف الإمام، غير أنّ فروقاً حدثت بينهم في القراءة داخل ذلك الحرف، وهي المعروفة بالقراءات، وقد وقع إجماع المسلمين على سبع منها وهي قراءات: ابن عامر، وابن كثير، وعاصم، وأبي عمرو بن العلاء، وحمزة، ونافع، والكسائي.

وواضح مما تقدم أن القرآن أحيط بسياجٍ متين من المحافظة على نصّه محافظة بالغة، إذ كانت آياته تُكتب فور نزولها، وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونها في صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلاً نهاراً، وسرعان ما جمعه أبو بكر وأتبعه عثمان بمصحفه، وبعث بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية[2].

---

(1) حياة الصحابة ـ محمد يوسف الكاندهلوي 369/2 دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الثانية 1983.

(2) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ شوقي ضيف ص 26.

وصفوة القول إنّ الله سبحانه وتعالى شاء ألاّ تعبث بالقرآن الكريم يد التحريف والتبديل فقال في كتابه العزيز: ﴿**إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[1]. وقال: ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد**﴾[2].

ج ـ تفسير القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم بأسلوب بهر العربَ رونقُه، وملك نفوسَهم ما فيه من جمال اللفظ، وبراعة الصورة وسموّ البيان، فدُهشوا وتحيّروا وأطالوا النظر وأكثروا الالتفات إلى ما فيه من حسن رائع، وإعجاز قاهر، وأخذوا البحث والتدقيق فيه لتتضاعف معرفتهم في مزاياه العظيمة وأسراره الكثيرة.

وربّ قائل يقول: إذا كان القرآن عربيّاً، ونزل على قوم رُبّوا في الفصاحة ليتحدّى فصاحتهم، فكيف تغمض بعض ألفاظه عليهم، وكيف يقفون إزاءها مستفسرين مستوضحين؟

للإجابة على هذا التساؤل نقول: إنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ولغة العرب لا يستوي في فهمها جميع العرب، ففيها الغريب، وفيها السهل، وفيها ما كثر جريانُه على الألسنة وفيها ما قلّ. لذلك كان لا بدّ من وجود تفاوت في الفهم بين العرب لمضمون آيات القرآن الكريم، والدليل على ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿**وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم**﴾[3].

لذلك نرى منذ نزول القرآن أن الحاجة دعت الرسول ﷺ إلى تفسير بعض آياته، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسّر لهم بعض ما يتوقّفون فيه، وكان هو يبادر أحياناً فيبيّن لهم بعض الآيات، وهذا تنفيذ لأمر الله في كتابه الكريم: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم لعلّهم يتفكرون**﴾[4].

---

(1) سورة الحجر ـ الآية 9.

(2) سورة فصلت ـ الآية 42.

(3) سورة آل عمران ـ الآية 7.

(4) سورة النحل ـ الآية 44.

وقد رُوي عن عائشة أنها قالت: «لم يكن النبي ﷺ يفسّر شيئاً من القرآن إلاّ آيات تُعدّ علّمهنّ إيّاه جبريل». وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلّمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعاً»[1].

وفي حديث معاذ أنّ النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له: كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟ قال:

أقضي بما في كتاب الله. قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنّة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم يكن في سنّة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو. قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفّق رسول الله لما يرضي رسولَ الله[2].

يتبيّن لنا أن الرسول ﷺ كان المفسّر الأول لآيات القرآن الكريم، يوضّح لصحابته أوامر الله ونواهيه، وهو الذي أرسله الله للناس بشيراً ونذيراً، وبما أنه يوجد في القرآن آيات لا يعلم تأويلها إلاّ الله والراسخون في العلم، فأصبح لزاماً على هؤلاء أن يفسّروا تلك الآيات ونحوها لمن هم أقلّ منهم علماً ومعرفة.

لا شك أن الصحابة كانوا يرجعون إلى النبي لتوضيح ما أُشكل عليهم من تفسير لآيات القرآن طالما هو موجود بين ظهرانيهم، ولكن بانتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، ماذا حلّ بالمسلمين؟ وهل استمرّوا بالتفسير والاجتهاد، خاصة وأن الفتوحات الإسلامية قد استمرت وانضوى تحت لواء المسلمين شعوب من مناطق شتّى ويتكلمون بلغات مختلفة؟

الصحابة والتفسير:

انقسم صحابة رسول الله ﷺ بصدد تفسير القرآن الكريم إلى قسمين:

---

(1) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية - عبد العال سالم مكرم - ص 216 - دار المعارف بمصر 1965.

(2) النظم الإسلامية - صبحي الصالح - ص 205 - دار العلم للملايين - بيروت 1980.

أ ـ قسم متحرّج، يخشى خطر التفسير، فقد تُفسّر الآية بمعنى يختلف عن المعنى الأصلي المقصود، وفي هذا إثم كبير، وعلى رأس هذا القسم: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. أمّا أبو بكر فقد رُوي أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿**وكان الله على كل شيءٍ مُقِيتًا**﴾[1] فقال: «أيّ سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

وأما عمر فقد رُوي أنه قرأ على المنبر: ﴿**وفاكهةً وأبّاً**﴾. فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: لعمرك، إنْ هذا هو التكلّف يا عمر»[2].

ب ـ وقسم لم يتحرج من التفسير وذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿**لا يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم**﴾. فهم يعتبرون أنه شمح لأولي العلم بالدين وأصوله أن يُفسروا للناس آي الذكر الحكيم، وهم الذين يُسمّيهم الله عز وجل باسم الراسخين في العلم. وعن السيوطي في كتابه الاتقان، أنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون، وابن مسعود، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير وإبن عباس؛ ويصرّح بأن الرواية عن أبي بكر وعمر وعثمان نَزْرة، أما علي فقد رُوي عنه كثير؛ وابن عباس أكثر الصحابة تفسيراً وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين[3].

وكان الصحابة على العموم، أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم، ولأنهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها القرآن. ومع هذا فقد اختلفوا في الفهم، على حسب اختلافهم في أدوات الفهم، وذلك:

1 ـ أنهم كانوا يعرفون اللغة العربية على تفاوت فيما بينهم، وإن كانت العربية لغتهم، فمنهم من كان يعرف كثيراً من الأدب الجاهلي، ويعرف غريبه، ويستعين بذلك في فهم مفردات القرآن ومنهم من كان دون ذلك، فكان فيهم القروي والبدوي، والصانع والتاجر، فلا غرو إذا تفاوتوا في علمه بأحكام الدين وتشريعاته.

---

(1) سورة النساء ـ الآية 85.

(2) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ـ عبد العال سالم مكرم ص 217.

(3) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ شوقي ضيف ص 29.

2 ـ كذلك كان منهم من يلازم النبيّ ﷺ ويقيمُ بجانبه، ويتعرّفُ على الأسباب التي دعت إلى نزول الآية، ومنهم من ليس كذلك، ومعرفة أسباب النزول من أكبر ما يعين على فهم المَقصود من الآية، والجهل بها يوقع في الخطأ.

3 ـ كذلك اختلاف الصحابة في معرفة عادات العرب في أقوالهم وأعمالهم، فمن عرف عادات العرب في الحج في الجاهلية، استطاع أن يفهم آيات الحج أكثر ممن لا يعرف.

4 ـ ومثل هذه المعرفة، معرفة ما كان يفعله اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول الآيات، ففيها إشارةٌ إلى أعمالهم وردٌّ عليهم، وهذا لا يتم فهمه إلاّ بمعرفة ما كانوا يفعلونه[1].

تطور التفسير

اتجه المفسرون في تفسير آيات القرآن الكريم اتجاهين:

الأول: التفسير بالمأثور، وهو ما أُثر عن النبي ﷺ إذ أنه كان قد بيّن للناس ما نزل إليهم من آيات في القرآن، وقد حفظ الصحابة هذا البيان، ورواه عنهم غيرهم، فكانوا إذا سُئلوا عن مشكل لفظ أو معنى مبهم، أفْتوْهم بما رَوَوْا عن الرسول ﷺ في هذا اللفظ أو هذا المعنى. ويسمى هذا أيضاً تفسيراً نقليّاً ودعامته الرواية عن النبي ﷺ.

الثاني: التفسير بالرأي: وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل، وحصل هذا التفسير نتيجة لامتزاج الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية بسبب الفتوح الإسلامية، وهو الذي يكون مجاله العقل، وميدانه الفكر وسلاحه الاستنباط والمنطق والأدلة.

وما نُسب إلى كلّ السابقين من تفسير لا يُقاس إلى ما نُسب لابن عباس، فهو أكثر الصحابة تفسيراً، وهو يُعدّ المؤسس الحقيقي لعلم التفسير، فهو الذي نهجه ووضع أصوله، واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب في قصص الأنبياء، وأنه كان يعتمد على الشعر الجاهلي في تفسير بعض الألفاظ، فقد ورد عن أبي

---

(1) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ص 197.

صالح قال: سمعت ابن عباس ينشد للناس هذا البيت في قوله عزّ وجلّ:
﴿يوم تُبدّل الأرض غير الأرض﴾[1].

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت أعرف

وعن ابن أبي مليكة قال: سُئل ابن عباس عن ﴿الليل وما وسق﴾[2]. فقال: وما جمع، ألم تسمع قول الشاعر:

إنّ لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقات لو يجدن سائقاً

وقد حمل تفسير ابن عباس كثير من التابعين أمثال مجاهد، وعطاء، وعلي بن أبي طلحة، وقد حمل ابن جرير الطبري في تفسيره الكبير ما أثر عنه وعن الصحابة الأولين في تفسير الذكر الحكيم[3].

د ـ أهم علوم القرآن

القرآن رسالة الله إلى الإنسانية جمعاء، جاء به جبريل إلى النبي محمد ﷺ مبشراً ونذيراً وهادياً إلى الصراط المستقيم: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾[4]. وبما أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وعليه فلا نبيّ بعده، والقرآن هو آخر رسالة من الله إلى عباده، فلا غرو أن يأتي القرآن وافياً بجميع مطالب الحياة الإنسانية، على الأسس الأولى للأديان السماوية ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[5].

لقد تعهّد الله عزّ وجلّ بحفظ القرآن: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾[6]. وتحدّى العرب وغيرهم، وهم أرباب الفصاحة والبيان، وقد نزل

---

(1) سورة ابراهيم ـ الآية 48.
(2) سورة الانشقاق ـ الآية 17.
(3) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ شوقي ضيف ص 29 وانظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ـ عبد العال مكرم ص 217.
(4) سورة الفرقان ـ الآية 1.
(5) سورة الشورى ـ الآية 13.
(6) سورة الحجر ـ الآية 9.

بلسانهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا: ﴿قل فأتوا بسورة مثلِه وادعوا من استطعتم من دون الله﴾[1].

وبما أن القرآن الكريم يعني المسلمين قبل غيرهم من شعوب الأرض، وهو دستورهم في كل ما يحيط بتصرفاتهم في الحياة الدنيا، مرشدهم لبلوغ الجنة في الآخرة، لذلك كان من البديهي أن ينكبّ المسلمون على دراسته دراسة دقيقة وفهم معاني آياته ليكونوا على بيّنة من أمرهم، فكانوا يعودون إلى الرسول ﷺ لشرح ما يتعذّر عليهم فهمه، وحرصوا كذلك على العمل به والوقوف عند أحكامه، فكان علمهم مقروناً بالعمل.

وبوفاة الرسول ﷺ استمر الصحابة يتناقلون معاني القرآن وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم، لتفاوت قدرتهم على الفهم، وتفاوت ملازمتهم للرسول ﷺ وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين. تلك الدراسات والبحوث نتج عنها ما نسمّيه بعلوم القرآن. والمراد بعلوم القرآن: العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول، وجمع القرآن وترتيبه، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن. وبما أنه سبق وتحدثنا عن جمع القرآن وتفسيره سنحاول التعرف بإيجاز على بقية علوم القرآن مبتدئين بمعرفة المكي والمدني.

أ ـ المكّي والمدني

أوْلى الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم عناية فائقة في ضبط منازل القرآن آية آية، ضبطاً يحدد الزمان والمكان، وهذا الضبط عماد قوي في تاريخ التشريع الإسلامي، يستند إليه الباحث في معرفة أسلوب الدعوة، وألوان الخطاب، والتدرّج في الأحكام والتكاليف.

وقد اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسين: المنهج السماعي النقلي، والمنهج القياسي الاجتهادي.

1 ـ المنهج السماعي النقلي يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة

(1) سورة يونس ـ الآية 38.

الذين عاصروا الوحي، وشاهدوا نزوله، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه، ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل، ولم يرد عن رسول الله ﷺ في ذلك قول لأنّه لم يُؤمر به.

2 ـ المنهج القياسي الاجتهادي يستند إلى خصائص المكي، وخصائص المدني، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنيّة، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مكّية، وإذا وُجد في السورة خصائص المكي قالوا إنها مكية، وإذا وجد فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية، وهذا قياس اجتهادي.

وللعلماء في الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية، كل رأي منها بُني على اعتبار خاص:

الأول: اعتبار زمن النزول، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة.

الثاني: اعتبار مكان النزول، فالمكي ما نزل بمكة وما جاورها: كمنى وعرفات والحديبية، والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها كأُحد وقباء وسلْع.

الثالث: اعتبار المخاطب، فالمكي: ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة. وينبني على هذا الرأي عند أصحابه أنّ ما في القرآن من قوله تعالى: يا أيها الناس، مكي؛ ـ وما فيه من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا، مدني[1].

والآن ما هي المميزات الموضوعية لكلّ من المكي والمدني؟

أولاً ـ المكي: لبث النبي ﷺ ما يقرب من ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة وهي المدة من بعثته إلى هجرته، وقد اتجه الوحي في هذه الفترة إلى ناحية العقيدة والأخلاق، ولم يتعرض إلى الأحكام العملية إلاّ قليلاً، وغالباً

(1) مباحث في علوم القرآن ـ منّاع القطّان ـ ص 51 وما بعدها (بتصرف) ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة التاسعة عشر ـ 1983.

بشكل كلّي، والسبب في هذا النهج هو أن العقيدة هي الأساس الأوّل لكلّ ما تأتي به الشريعة من أحكام وتفصيلات، فلا بدّ إذن من إصلاحها وتنقيتها من الشوائب والأباطيل، وجعلها قائمة على الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر. وهكذا كانت آيات القرآن تنزل موضّحة هذ المعنى بالدليل والبرهان، فهي تارة منذرة من النار وعذابها، وطوراً مرغّبة بالجنة ونعيمها، وتجادل المشركين بالبراهين العقلية، والآيات الكونية، وتفضح جرائمهم في سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلماً، ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات. وتذكر لهم قصص الأنبياء السابقين مع شعوبهم لتكون عبرة لمن يعتبر.

ويمتاز أسلوب الآيات المكية بقصر الفواصل مع قوة الألفاظ وإيجاز العبارة، ويؤكد المعنى بكثرة القسم، مما يصعق القلوب ويشتد قرعه على المسامع.

ثانياً ـ المدني: بعد أن استقرّ الرسول ﷺ في المدينة مع صحابته من المسلمين، كان لا بدّ من إقامة تنظيم اجتماعي وسياسي على أساس الدين الجديد، فكانت الآيات القرآنية تركّز على العبادات والنواحي العملية، سواء منها ما اتصل بحياة الأفراد أو بحياة الجماعة، والجهاد وتنظيمات الأسرة من زواج وما يترتب عليه، والميراث، والعلاقات بين الحاكم والمحكوم، وعلاقة الدولة الإسلامية مع غيرها، وعلاقة المسلمين مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والكشف عن سلوك المنافقين، وباختصار لم يترك التشريع الإلهي جانباً من جوانب الحياة إلاّ جاء بتنظيم دقيق محكم له.

ويمتاز أسلوب الآيات المدنية، بطول المقاطع والنهج التقريري للشريعة وتوضيح أهدافها.

ب ـ الناسخ والمنسوخ

سبق أن ذكرنا أنّ الوحي في مرحلته الأولى على النبي محمد ﷺ في مكة، اتجه إلى ناحية العقيدة، وفي المرحلة الثانية، في المدينة، على العبادة والمعاملة، وبما أن عقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية، فقد اتفقت دعوة الرسل جميعاً إليها، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وما

أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾[1]. أما العبادات والمعاملات فإنّها تتفق في الأسس العامة التي تهدف إلى تهذيب النفس والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء، إلاّ أنّ مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها، وما يلائم قوماً في عصر قد لا يلائمهم في آخر، ومسلك الدعوة في طور نشوئها وتأسيسها يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء، فحكمة التشريع في هذه غيرها في تلك، فلا غرابة في أن يرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد، وهذا ما حصل في بعض الآيات القرآنية، والذي نطلق عليه: الناسخ والمنسوخ.

والنسخ معناه رفع الحكم السابق بحكم لاحق، وهو إمّا أن يكون إلى بدل وإمّا أن يكون إلى غير بدل. والنسخ إلى بدل: إمّا إلى بدل أخف، وأمّا إلى بدل مماثل، وإمّا إلى بدل أثقل:

1 ـ النسخ إلى غير بدل: كنسخ الصدقة بين يدي نجوى رسول الله ﷺ في قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة﴾**[2] وهذه الآية نُسخت بقوله تعالى: **﴿أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾**[3].

2 ـ النسخ إلى بدل أخفّ: يمثلون له بقوله تعالى: **﴿أُحلّ لكم ليلة الصيام الرّفث إلى نسائكم﴾**[4]. فهي ناسخة للآية الكريمة: **﴿يا أيّها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتّقون﴾**[5]. ومُقتضى هذه الآية، الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلّوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية.

3 ـ النسخ إلى بدلٍ مماثل: كنسخ التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس

(1) سورة الأنبياء ـ الآية 25.
(2) سورة المجادلة ـ الآية 12.
(3) سورة المجادلة ـ الآية 13.
(4) سورة البقرة ـ الآية 187.
(5) سورة البقرة ـ الآية 183.

بالتوجّه إلى الكعبة في قوله عزّ وجلّ: ﴿**فولّ وجهك شطر المسجد الحرام**﴾[1].

4 ـ النسخ إلى بدل أثقل: كنسخ الحبس في البيوت في قوله تعالى: ﴿**واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسكوهنّ في البيوت حتى يتوفاهنّ الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلاً**﴾[2]. بالجلد، في قوله تعالى: ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذْكم بهما رأفةٌ في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخِر ولْيشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين**﴾[3]. وهذا هو حكم الزاني البكر أما الزّاني الثيّب فيرجم حتى الموت، وقد رجم النبي ﷺ ماعزَ بن مالك الأسلميّ والغامديّة، وكانا محصنين[4].

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهميّة كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين حتى لا تختلط الأحكام، ولذلك وردت آثار كثيرة في الحثّ على معرفته، فقد رُوي أنّ عليّاً رضي الله عنه مرّ على قاضٍ فقال له: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا. فقال عليّ: هلكت وأهلكت[5].

ج ـ أسباب النزول

ومن علوم القرآن أيضاً أسباب النزول، والمقصود أسباب نزول الآيات القرآنية، فالمعروف أن القرآن نزل أصلاً لهداية الناس إلى الطريق المستقيم، وليقيم لهم أسس الحياة الفاضلة في الدنيا وبلوغ الجنّة في الآخرة، ولكن ثمة آيات نزلت في مناسبات معيّنة وذلك عقب واقعة أو سؤال، لذلك اعتنى الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول، ولمسوا شدة الحاجة إليه في

---

(1) سورة البقرة ـ الآية 44.

(2) سورة النساء ـ الآية 15.

(3) سورة النور ـ الآية 2.

(4) صفوة البيان لمعاني القرآن ـ حسنين محمد مخلوف ـ ص 110 ـ الطبعة الثالثة ـ الكويت 1987.

(5) مباحث في علوم القرآن ـ مناع القطان ـ ص 233.

تفسير القرآن لأنه يساعد على كشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها عندما يُعرف سبب نزولها. ولا يعني هذا أن يلتمس الباحث لكلّ آية سبباً، فإنّ القرآن لم يكن نزوله وفقاً على الحوادث والوقائع، أو على السؤال والاستفسار، بل كان القرآن ينزل ابتداءً بعقائد الإيمان وواجبات المسلم، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة.

د ـ المحكم والمتشابه

ومن علوم القرآن أيضاً المُحْكَم والمتشابه، ففي القرآن الكريم آيات محكمات وهي تلك التي يُعرف المعنى المراد منها. وأُخر متشابهات، وهي ما استأثر الله تعالى بعلمها كقيام الساعة والحروف المقطّعة في فواتح السور ومنها أيضاً قوله تعالى: **﴿الرحمن على العرش استوى * كل شيء هالك إلا وجهه * يد الله فوق أيديهم﴾** وقال تعالى: **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**. فانطلاقاً من هذه الآية الكريمة يرى جمهور أهل السنّة والأئمة الأربعة أنه يجب الإيمان بها وتفويض علم معناها المراد منها إلى الله تعالى، وترك تأويلها مع تنزيهه تعالى عن حقيقتها، لاستحالة مشابهته تعالى للحوادث (استوى، وجهه، يد). وقال الإمام الرازي: إنّ الذي اختاره الأئمة المحقّقون من السلف والخلف، ترك الخوض في تعيين التأويل، بعد إقامة الدليل القاطع على أنّ حملَ اللفظ على ظاهره محال.

ومن المتشابه: الحروف المقطّعة في أوائل السور، فقد افتُتحت تسع وعشرون سورة من القرآن بنصف أسماء حروف المعجم، وهي: الألف واللام، والميم والصاد، والراء والكاف، والهاء والياء، والعين والطاء، والسين والحاء، والقاف والنون. ومنها مثلاً: ص، حم، ألم كهيعص، والمختار فيها: أنها من الأسرار التي لا يعلم تأويلها إلاّ الله تعالى. وعن أبي بكر الصديق: في كلّ كتاب سِرٌّ، وسرّه في القرآن أوائل السور[1].

---

(1) عن صفوة البيان في علوم القرآن ـ حسنين محمد مخلوف ـ ص ج ـ.

الفصل الثاني
الحديث

أ ـ روايته ورواته

السُنّة في الشرع الإسلامي يُراد بها ما أَمر به النبي ﷺ، ونهى عنه وندَب إليه قولاً وفعلاً بما لم ينطق به الكتاب العزيز. فالحديث من السنّة أو هو عينها لذلك قيل: السنّة أو الحديث هو ما ورد عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير. وبعد عصر الرسول ضُمّ إلى الحديث ما ورد عن الصحابة، فالصحابة كانوا يعاشرون النبي ﷺ ويسمعون قوله ويشاهدون عمله، ويحدّثون بما رأوا وما سمعوا، وجاء التابعون بعدُ فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا فكان من الأخبار عن رسول الله وصحابته «الحديث»[1].

وأهميّة الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي وأحكامه مجملة دون تفصيل، وأن الحديث هو الذي يفصّلها، فالقرآن الكريم لم يذكر تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام، بل اكتفى بمثل قوله: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾. وفصّل الحديث أوقات الصلاة وكيفيّاتها، كما فصّل القواعد والأسس التي يجب اتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها. فالرسول هو الذي بيّن أحكام الشريعة وصوّرها عملياً كما صوّر المبادىء الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية، ووضّح ما أُبهم من الآيات القرآنية، بما أُثر عنه من فصاحة وبيان، وبذلك أصبحت رسالته واضحة ناصعة، وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى.

قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ إلاّ وجدت

(1) لسان العرب ـ ابن منظور ـ مادة سنن ـ 225/13 وانظر فجر الاسلام ـ أحمد أمين ص 208 ـ والعصر الإسلامي ـ شوقي ضيف ص 34.

مصداقه في كتاب الله».. وقال ابن برهان: ما قال النبي ﷺ من شيء إلاّ وهو في القرآن أو فيه أصله، قرُبَ أو بعد فَهِمَه من فهمه وعميَ عنه من عمي، وكذا كلّ ما حَكم به أو قَضى به، وإنما يُدرِكُ الطالبُ من ذلك بمقدار اجتهاده وبذل وسعه، ومقدار فهمه[1].

لذلك نرى أنه للحديث قيمة كبرى في الدين تلي رتبة القرآن، إذ أنّ الحديث هو مرجع للمشرّعين منه يستمدون أحكامهم وفتاواهم، فاقتضى ذلك جميعه العنايةَ بالحديث.

والمعروف أن رسول الله ﷺ اتّخذ كتبةً للوحي يكتبون آيات القرآن عند نزولها، ولكنه لم يتخذ كتبةً يكتبون ما ينطق به من غير القرآن، بل إنه نهى عن تدوين الحديث بقوله ﷺ: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدّثوا عني فلا حرج، ومن كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار». وقد رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص من أنه كان يكتب كلّ ما سمع من رسول الله؛ وعلى كل حال لم يكن تدوين الحديث شائعاً في عصر الرسول وذلك خشية التباس القرآن بالحديث[2].

وكان الصحابة يروون حديث رسول الله ﷺ في حياته وكان هو نفسه يحثهم على ذلك، وهذا ما يستفاد من مضمون الحديث السابق «حدثوا عني فلا حرج».

ولما توفي الرسول كان بين أيدي المسلمين كتاب مدوّن، هو القرآن، وأحاديث غير مدوّنة تُروى في الغالب من الذاكرة، وكان الصحابة في الأمصار الإسلامية يُبلّغون كتاب الله وسنّة رسوله وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله إلاّ أحصوها وتناقلوها. حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون يحكون ما سمعوه منهم، وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل،

---

(1) التراتيب الإدارية 200/2.

(2) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص 209 ـ وانظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي 749/8.

فالمحدّث يقول سمعت من فلان عن فلان، ومن ثم تكوّن سند الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من رُواته، وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرق الصحابة في الأرض، وبذلك تعدد طرق رواية الحديث.

ونشأ من عدم تدوين الحديث وصعوبة حصر ما قاله رسول الله ﷺ أو فعله في مدة ثلاثة وعشرين عاماً من بدء الوحي إلى الوفاة أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته إلى الرسول، وقد يكون ذلك لحسن نيّة وقد يكون لسوء نيّة. لذلك قامت طائفة من المسلمين تبحث في ثنايا الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ ونتج عن ذلك علم جديد له قوانينه وأساليبه وغاياته عُرف بعلم الحديث.

تهيّب الخلفاء الراشدون من كتابة أحاديث الرسول وكذلك الصحابة والتابعون، وذلك مخافة وقوع اللّبس بينها وبين القرآن الكريم، وكذلك تنفيذاً لطلبه ﷺ «فمن كتب شيئاً عني فليمحه» فكان الاعتماد على المحدثين، وأكثر هؤلاء شهرة بالنسبة إلى كثرة أحاديثهم هم: أبو هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر، وأنس بن مالك، وكانوا يروون الأحاديث ويكرهون أن يكتبه سامعُهم واقتدى بهم كثير من التابعين وإن كانت أخذت تظهر عند بعضهم بوادر كتابته. ولكنّه على كل حال لم يدوَّن في القرن الأول للهجرة تدويناً عامّاً، وظل الأمر على ذلك حتى تولّى عمر بن عبد العزيز الخلافة (99 - 101هـ) فأمر بتدوينه. ومن هذا الوقت بدأت حركة جمع الحديث وكان من أئمتها: مالك بالمدينة(159هـ)، وابن اسحاق أيضاً (151هـ)، وابن جريج بمكة (150هـ)[1].

وإنّ تأخر التدوين واعتماد العلماء على ذاكرة الرواة، وحرصهم الشديد على نقل الأحاديث الشريفة بمنتهى الدقّة، دفع هؤلاء إلى التحرّي والتدقيق عند أخذ الحديث ودراسة أحوال الرواة، فنشأ عن ذلك علم «الجرح والتعديل».

(1) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ص 221 ـ وانظر محاضرات في علم الحديث والمصطلح ـ عبد الله الشريف ـ ص 10 ـ مكتب كريدية 1973.

وعلى أثر عمليّة جمع الحديث بدأت تظهر مؤلفات فيه من أقدمها وأشهرها: موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام الشافعي (204هـ) وغيرها، ومع بداية القرن الثالث الهجري نشطت حركة كتابة الحديث واتجهت همّة بعضهم لتمييز الحديث الذي لا شك في نسبته إلى الرسول ﷺ من الحديث المشكوك في نسبته لأي سبب من الأسباب، وأصبح لكل نوع من الحديث علماً خاصاً مثل: علم الحديث الصحيح، وعلم المرسل وغيرها إذ كتب يحيى بن معين (234هـ) في تاريخ الرجال، ومحمد بن سعد (230هـ) الطبقات، وأحمد بن حنبل (241هـ) العلل والناسخ والمنسوخ، وأشهر الكتب في تلك الفترة هي: صحيح البخاري (256هـ) وصحيح مسلم (261هـ)، وسنن أبي داود (275هـ)، وسنن النسائي (303هـ)، وجامع الترمذي (279هـ)، وغيرها كثير[1].

ب ـ أقسام الحديث:

يقسم الحديث إلى: 1 ـ الصحيح، 2 ـ الحسن، 3 ـ الضعيف، 4 ـ الموضوع.

1 ـ الحديث الصحيح: هو ما اتصّل بسنده، بنقل العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، أو إلى منتهاه من صحابي أو من دونه.

2 ـ الحديث الحسن: هو ما اتصل سنده، بنقل عدل خفيف الضبط، وسلم من الشذوذ والعلّة، وسمي حسناً لحسن الظنّ براويه.

3 ـ الحديث الضعيف: هو الذي لم يجتمع فيه صفات الصحيح ولا صفات الحسن لفقده شروطهما.

4 ـ الحديث الموضوع: هو الكذب المختلق المصنوع. أي كذب الراوي في الحديث النبوي بأن يروي عنه ﷺ، ما لم يقلْه متعمّداً لذلك. وهذا النوع تحرم روايته مع العلم بوضعه سواء كان في الأحكام أو القصص أو الترغيب، ولا بدّ عند ذكره من بيان وضعه.

هذه هي باختصار كليّ تعريفات أقسام الحديث، مع لفت الانتباه إلى أنه لكل قسم منها مبادىء وقوانين مفصّلة تفصيلاً كبيراً، لا مجال لذكرها هنا،

(1) محاضرات ـ عبد الله الشريف ص 11.

حتى لا نبتعد عن موضوعنا الأساسي، ولكل من يريد الاطلاع عليها، فهي متوفرة بكثرة في جميع المكتبات تقريباً؛ لأن أئمّة المسلمين وعلماءهم أولوا الحديث العناية اللازمة، كيف لا، والحديث هو المصدر العملي للتشريع الإسلامي، فالقرآن هو المصدر الأول للتشريع، والسنّة هي التطبيق العملي للقرآن، وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى الرباط الوثيق بين القرآن والسنّة منها: **﴿قل إن كنتم تُحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾**[1]. و: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**[2]. و: **﴿يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾**[3].

إن السنّة توضّح وتبيّن وتحدّد كل مسائل الدين فهي الشرح التطبيقي للقرآن، وتلك منزلة رفيعة ما بعدها منزلة.

---

(1) سورة آل عمران ـ الآية 31.

(2) سورة الحشر ـ الآية 7.

(3) سورة الأنفال ـ الآية 24.



الباب الرابع

الفصل الأوّل

الشعر

أ ـ مكانة الشعر في الجاهلية

إن جزيرة العرب، إقليم ثلاثة أرباعه صَحراء مجدبة قليلة السكان، أهله من قبائل البدو الرحّل، وكان النظام السياسي السائد في بلاد العرب قبل الإسلام، إذا استثنينا بعض الممالك الصغيرة في الجنوب والشمال، هو النظام البدائي الذي يقوم على رابطة القرابة والذي تجتمع الأسر بمقتضاه في عشائر وقبائل. وكانت قلّة سبل الاتصال وصعوبتها تُرغِم أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم، وكانت سبباً في نموّ روح العزلة فيهم، فالعربي لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة، وكان خمسة أسداس السكان بدواً رحّلاً يشتغلون بالرعي وينتقلون بقطعانهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء، وكان العربي يُسرع إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة أو أذى، وكان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في الحرب التي تستعر نارها بين القبائل المختلفة. وكان العربُ قبل الإسلام أميّين محبّين للشعر، مولعين بفصاحة اللسان وصحة الكلام والشعر المختلف المعقد الأوزان[1].

وكان فنّ الشعر، من بين الكلام، شريفاً عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهِد صوابهم وخطئهم وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم، وكانت ملَكَتهُ مستحكمةً فيهم. وكان رؤساء العرب منافسين فيه، وكانوا يقفون بسوق عُكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حَوْلِه حتى انتهوْا إلى المناغاة في تعليق

---

(1) عن قصة الحضارة ـ ول ديورانت 6/13 بتصرف.

أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجّهم[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «كان الشعر عِلْم القوم، ولم يكن لهم علم أصحّ منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولَهِيَت عن الشعر وروايته، فلمّا كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العربُ في الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوانٍ مدوّن، ولا كتاب مكتوب، وألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلَّ ذلك، وذهب عنهم كثيره»[2].

مما تقدم يتبيّن لنا أن الشعر العربي في الجاهلية، يعتبر من المصادر الهامة لتاريخ العرب وحضارتهم في ذلك العصر، إذ يصور لنا كثيراً من أحوال العرب الاجتماعية والدينية كما يصور لنا طباعهم وأخلاقهم، به حُفظت الأنساب وعُرفت المآثر، وفيه ذكر لأيام العرب ووقائعهم، فهو الخزان الأساسي للّغة العربية، وهو مرآة تنعكس عليها صورة حياتهم في الحرب والسلم، إنه بحق «ديوان العرب».

ويقول الجاحظ: «أمّا الشعر فحديثُ الميلاد، صغير السنّ، أوّل من نهج سبيله، وسهَّل الطريق إليه: امرؤ القيس بن حُجْر ومُهلهِل بنُ ربيعة.. فإذا استظهرنا الشعرَ، وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومئة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام»[3]. والأرجح أن الجاحظ يقصد بكلامه الشعر الراقي، والمعلقات ونحوها، ولا بدّ لهذا الشعر من أن يكون قد خضع لعملية النشوء والارتقاء ومحاولات أولية بدأ بها الشعراء شعرهم ثم تدرّجوا منها إلى ما وصل إلينا من الرقيّ، وهذا الذي وصل إلينا ليس سوى جزء يسير جداً من الشعر الجاهلي فقد ضاع أكثره لأنه لم يكن مكتوباً بل اعتمد على الرواية، وحتى الرواية تعرضت لحملة تشكيك وطغت عليها صفة الانتحال في رأي العديد من الأدباء وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين.

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 570 و580 وانظر طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام 24/1.

(2) الخصائص ـ أبي الفتح عثمان بن جنّي ـ 386/1 ـ تحقيق محمد علي النجار ـ دار الهدى ـ بيروت ـ الطبعة الثانية.

(3) كتاب الحيوان ـ الجاحظ ـ 74/1.

ولقد كان لهذا الشعر في العصر الجاهلي مكانة عالية، فهو ديوانهم كما ذكرنا وهو المصور لآمالهم وآلامهم وحياتهم من جميع جوانبها، والمصور لبيئتهم بكثبانها ووديانها وحيواناتها وطيورها، وفيه أودعوا وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأيامهم وذكرياتهم وبطولاتهم، وهو المادة الدسمة لسمرهم وأحاديثهم أثناء استراحاتهم، يتناقله الأبناء عن الآباء والأجداد وعنهم إلى الأحفاد وهكذا.. لذلك كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ووضعت الأطعمة واجتمع الناس يلعبون بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، وكانوا لا يهنئون إلاّ بغلام يولد، أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج[1].

فما عساه يكون موقف الشعراء الجاهليين من هذه العصبية القبلية التي استشرى أمرها في عصرهم إن لم يكن موقف المتحمس لها، المناضل في سبيلها؟ من الطبيعي أن يكون هذا موقفهم منها إذ هم لسان قبيلتهم الناطق بمحامدها، الذائد عن حماها، لذلك تشعر وأنت تقرأ الشعر الجاهلي، في أغلب الأحيان، أن شخصية الشاعر اندمجت في قبيلته حتى كأنه لم يَشعر لنفسه بوجود خاص، وإنك لتتبين هذا بجلاء في معلقة عمرو بن كلثوم.

ثم غدا الشعر سجلاً لعاداتهم وتقاليدهم وقيمهم الجاهلية السائدة فيما بينهم والتي كان في مقدمتها التفاخر بالأحساب والأنساب والمناصرة على هذا الأساس ولا يسألون قريبهم إن كان ظالماً أو مظلوماً كما قال الشاعر الجاهلي قُرَيْط بن أُنيْف العنبري التميمي:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجِذَيْه لهم   طاروا إليه زرافاتٍ ووُحْدانا

لا يسألونَ أخاهم حين يَنْدُبُهُم   للنائبات على ما قال بُرهانا[2]

وربما بلغ بالشاعر إخلاصه لقومه أن يتهدد الملك إذا هو حاول الإغارة على قبيلته ويخوّفه عواقب عمله بإشادته بقوتها ومنعتها وكثرة عددها وهذا ما حصل بين عمرو بن كلثوم وبين الحارث بن أبي شمّر الغساني الذي مرّ بقوم

(1) العمدة ـ ابن رشيق 37/1.

(2) الأدب الاسلامي ـ نايف معروف ص 90 ـ عن شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي 22/1.

ابن كلثوم ولـم يهتموا به فأخذ يتوعدهم فما كان من عمرو بن كلثوم إلاّ الردّ على تهديدات الملك بقوله:

ألا فـاعـلـم أَبَـيْـت الـلـعـن أنّـا ... عـلـى عَـمْـدٍ سنـأتـي مـا نُـريـدُ

تـعـلّـم أنّ مَـحْـمَـلَـنـا ثـقـيـلٌ ... وأنّ زنـاد كـبَّـتنا شـديـدُ

وأنّـا لـيـس حَـيٌّ مـن مـعـدٌّ ... يُـوازيـنـا إذا لُـبِـسَ الـحـديـدُ[1]

وكان للشعر في الجاهلية تأثير كبير حتى على الملوك، إذ يرفع من شأن صاحبه، فتقبل شفاعته عندهم ويجالسهم ولو كان به مرض، وهذا ما حصل مع الحارث بن حلِّزة اليشكري الذي كان به مرض البرص، فأمر الملك عمرو بن هند أن يُجعل بينه وبينه سبعة حُجب، فلمّا تكلم أُعجب بمنطقه، فلم يزل عمرو يقول: أدنوه أدنوه حتى أمر بطرح الستر وأقعده معه قريباً منه لإعجابه بشعره وهو قصيدته المعلقة:

آذَنَـتْنا بِـبَـيْنِهـا أسـمـاءُ ... رُبّ ثـاوٍ يُـمَـلُّ مـنـه الـثـواءُ[2]

قيل في الشعر: «إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل». وذلك أن الشعر لجلالته كان يرفع من قدر الخامل إذ مُدح به، مثل ما يضع من قدر الشريف بهجائه بما ليس فيه، فممّن رفعه ما قيل من الشعر بعد الخمول، المحلّق، وقد كان فقيراً وعنده بنات، فنصحته زوجته وكانت امرأة عاقلة بأن يسبق الناس ويولم للأعشى القادم إلى مكة، ولم يكن عندهم إلاّ لَقْحَةٌ واحدة يعيشون بها، فسبق إليه المحلّق، وأنزله ونحر له ولرفاقه وقدم إليهم الشراب، فلما أخذت منهم الكأس سأله عن حاله وعياله، فعرف البؤس في كلامه وذكر البنات، فقال الأعشى: كُفيت أمرهنّ. وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أرقـتُ ومـا هـذا الـسـهـاد الـمـؤرِّقُ ... وما بي من سُقْمٍ وما بيَ معشقُ

وقال فيها:

---

(1) الأغاني 58/11.

(2) الأغاني 42/11 وانظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ـ الأنباري ـ ص 431 ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر 1969.

لعمري لقد لاحت عيون كثيرةٌ إلى ضوء نارٍ باليفاعِ تحرّقُ
تُشبُّ لمقرورَيْن يصطليانها وبات على النار النّدى والمحلّق

فما أتم القصيدة إلاّ والناس ينسلون إلى المحلّق يهنئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته، لمكان شعر الأعشى، فلم تُمْسِ منهنّ واحدة إلاّ في عصمة رجل أفضلَ من أبيها ألف ضعف[1].

وكذلك بنو أنف الناقة، كانوا يخجلون من هذا الاسم، حتى أنّ الرجل منهم يسأل: ممّن هو؟ فيقول: من بني قريع، فيتجاوز جعفراً أنف الناقة بن قريع بن عوف.. إلى أن نزل الحطيئة، الشاعر المعروف، في ضيافة أحدهم، فأكرمه وأحسن إليه، فقال فيه شعراً منه:

قومٌ هم الأنف، والأذنابُ غيرهمُ ومَن يساوي بأنف الناقة الذَّنَبا؟

فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدّون به أصواتهم في جَهَارة[2].

وممّن وضعه ما قيل فيه من الشعر، وحطّ من قدره وسقط عن رتبته، الربيع بن زياد، وكان من ندماء النعمان بن المنذر، وكان فحّاشاً بذيّاً سبّاباً لا يسلم منه أحدٌ ممّن يفد على النعمان، فرُمِيَ بلبيد وهو غلام مراهق فنافسه وقد وضع الطعام بين يدي النعمان، وتقدم الربيع وحده ليأكل معه على عادته، فقام لبيد فقال مرتجلا:

يا رُبَّ هيْجَا هي خيرٌ من دَعَهْ نحن بني أمّ البنينَ الأربعه
ونحن خير عامر بن صَعْصَعه المطعمون الجفنة المدعدعه
والضاربون الهام تحت الخيصعه مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه

فقال النعمان: ولمه؟ فقال: إنّ استه من بَرَصٍ مُلَمّعَهْ.

فقال النعمان: وما علينا من ذلك؟ فقال: وإنّه يولج فيها إصْبَعَهْ.

يولجها حتى يواري أشْجَعَهْ كأنّما يطلب شيئاً أوْدَعَهْ

(1) العمدة ـ ابن رشيق 48/1 وانظر الأغاني 113/9.
(2) البيان والتبيين ـ الجاحظ 577/3 وانظر العمدة ـ ابن رشيق 50/1.

فرفع النعمان يده عن الطعام، فحجبه بعد ذلك وسقطت منزلته[1].

وذكر الجاحظ قائلاً: وبنو ضرار، أحد بني ثعلبة بن سعد، لما مات أبوهم وترك الثلاثة الشعراء صبياناً وَهم: شماخ، ومزرد، وجزء، أرادت أمّهم وهي أم أوَس أن تتزوج رجلاً يسمّى أوساً، وكان أوس هذا شاعراً، فلما رآه بنو ضرار بفناء أمهم للخطبة، تناول شماخ حبل الدلو ثم متح وهو يقول:

أمٌّ أويسٍ نكحت أويسا. وجاء مزرد فتناول الحبل فقال: أعجبها حذارةً وكيسا.

وجاء جزء فتناول الحبل فقال: أصدقَ منها لَجَبَةً وتيسا. فلما سمع أويس رجز الصبيان بها، هرب وتركها [*].

وهكذا نرى أن الشعر كان سبباً في هرب أوس وبذلك خسرت أمّ أوس العريس.

والشعر هو الذي أحطّ من كرامة الربيع عند النعمان، وهل أهلك: عنزة وجرماً وعكلاً وسلول وباهلة وغنياً إلا الهجاء؟ وهذه قبائل فيها فضل كثير، وبعض النقص، فمحق ذلك الفضل كلّه هجاء الشعراء[2].

كان الشعر في الجاهلية يرفع الوضعاء ويخفض ذوي الرفعة، وهذا يدل على الدور الخطير الذي كان يلعبه الشعر عند أولئك القوم، وكانت القبائل تحفظ أشعار شعرائها، ويرويها أبناؤها إلى الأحفاد والأجيال التالية، والعرب أمة أمّية تعتمد على الذاكرة لا على التدوين، والشعر أسهل في الحافظة وأعلق في الذهن. لذلك كانوا يخافون لسان الشاعر ويتحامون هجاءه، وقد بلغ من خوفهم من الهجاء خشية أن يبقى ذكره في الأعقاب، ويُسب به الأحياء والأموات.

لم تكن وظيفة الشعر عند عرب الجاهلية، محصورة بهذه النواحي فحسب، بل إن الشعر كان ديوانهم، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً لذلك يمكننا أن

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 51/1.

(2) البيان والتبيين ـ الجاحظ 576/3 (بتصرف).

(*) اللَّجَبَة: النعجة التي قلّ لبنُها ـ متح: جذب رشاء الدلو.

نتعرف إلى البيئة الجاهلية من جميع نواحيها وذلك من خلال الأدب الجاهلي، وإننا نلاحظ بوضوح تام، هيمنة الروح القبلية، والتعصب القبلي، ومناصرة الأخ منهم ظالماً أو مظلوماً:

لا يسألون أخاهم حين ينذُبهم في النائبات على ما قال برهانا

تلك الحياة القبلية التي تدفع الشاعر إلى التفاخر بأبناء قبيلته، والبحث والتنقيب عن مثالب القبيلة المعادية وكثيراً ما يخترع هو مثالب يوصمها بها وتنتشر في ربوع الجزيرة العربية، وبذلك يحط من كرامة الناس ظلما وبهتاناً.

ولم يكن التفاخر والهجاء عندهم يقف عند حدّ، إذ ان الشاعر لا يرعوي عن أي كلام بذيء يقذفه دون أي حرج ودون الوقوف عند حد الحرمات وكرامات النساء، وأنّى له أن يفكر بذلك وهو الذي عاش في بيئة، دأبها الإغارة على القبائل الأخرى والسلب والنهب وسبي نسائهم وأولادهم، وتتربص بهم القبيلة الأخرى فتفعل ما فعلوا، بل هم إذا لم يجدوا عدوّاً من غيرهم قاتلوا أنفسهم، ولعلّ خير ما يمثل ذلك قول القطامي:

وكنَّ إذا أَغَرْن على قبيلٍ فَأَعْوَزَهُنَّ نَهْبٌ حيث كانا

* * *

وأحياناً على بكرٍ أخينا إذا لم نجد إلاّ أخانا

إذاً ليس هناك من أمن ولا استقرار، والجميع يعيش في حالة استنفار، فما السبيل للإنقاذ من هذه الحياة الصعبة، لقد أدركهم الله بالإسلام، وانتشر الدين الجديد في ربوع الجزيرة العربية. فكيف أصبحت حال الشعر والشعراء في ظل المجتمع الجديد؟ وما هي مكانة الشعر في الإسلام؟

ب ـ مكانة الشعر في الإسلام

1 ـ في القرآن الكريم

مما تقدم نلاحظ أن رسالة الشعر، قبل الإسلام، قد انحرفت في غالب أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية المهذبة والخلق القويم الذي يستقيم به أمر المجتمع؛ إذ كان يهتك الحرمات ويثير العصبية ويحرض الناس

على الاقتتال والتناحر، فكان بذلك من معاول الهدم وأسباب الدمار في البيئة الجاهلية. ثم جاء الإسلام بدعوة الاخاء والمساواة، والعفة في القول، فحرّم على المسلم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ودعا إلى الكف عن القول والفعل الذي يؤذي المجتمع.

لقد أصبح عند المسلم منهجاً ودستوراً ينظّم له جميع أمور حياته، وتلك التعاليم مأخوذة من القرآن الكريم وسنّة الرسول العظيم، فما عسى الشاعر أن يقول في ظل الدين الجديد؟ وما هو موقف القرآن من الشعر والشعراء؟

إذا تتبعنا ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي جاءت على ذكر الشعر والشعراء نجدها كما يلي:

﴿وما علّمناه الشّعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذِكرٌ وقرآن مبين﴾[1].

﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾[2].

﴿ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾[3].

﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾[4].

﴿وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون﴾[5].

﴿والشعراءُ يتّبِعُهُمُ الغاوون، ألم تر أنّهم في كل وادٍ يهيمون، وأنّهم يقولون ما لا يفعلون، إلاّ الذين آمنوا...﴾[6]... الخ الآية.

فالملاحظ أن لفظة «الشّعر» وردت مرة واحدة، وكلمة «شاعر» وردت أربع مرات، ولفظة «الشعراء» مرة واحدة، فماذا نفهم من تلك الآيات؟

---

(1) سورة يس ـ الآية 69.
(2) سورة الأنبياء ـ الآية 5.
(3) سورة الصافات ـ الآية 36.
(4) سورة الطور ـ الآية 30.
(5) سورة الحاقة ـ الآية 41.
(6) سورة الشعراء ـ الآية 224.

ورد في تفسير القرآن العظيم لابن كثير ما يلي: «وقوله تبارك وتعالى: ﴿**وما علّمناه الشعر وما ينبغي له**﴾. يقول عزّ وجلّ مخبراً عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علّمه الشعر، ﴿**وما ينبغي له**﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلّته ﴿**إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين**﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿**إلاّ ذكر وقرآن مبين**﴾ أي بيّن واضح جليّ لمن تأمله وتدبّره.

ولعلّ ما يبدو لنا أن مشركي قريش حين أخذوا يستمعون إلى الآيات المنزلات أصابهم نوع من الذهول، فأصبحوا في حيرة من أمرهم، بماذا يصفون هذا الكلام، قالوا إنه نوع من الشعر فتولّى الله تعالى الردّ على مزاعمهم، توضيحاً وتخليصاً لهم ممّا هم فيه من الارتباك والضلال فيؤكد لهم: ﴿**وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين**﴾[1].

وبالنسبة للآية الثانية: ﴿**بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر**﴾ هذا إخبار عن تعنّت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم فيه وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحراً وتارة يجعلونه شعراً وتارة يجعلونه أضغاث أحلام وتارة يجعلونه مفترى، وهم هنا يقصدون في القرآن أنه أخلاط كأخلاط الأحلام وأباطيل لا حقيقة لها اختلقها محمد ﷺ من تلقاء نفسه والذي جاء به شعر يخيّل ما لا حقيقة له[2].

وفي الآية الثالثة: ﴿**ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**﴾ أي يقول الكافرون أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون[3].

وقوله في الآية الرابعة: ﴿**أم يقولون شاعر نتربّص به رَيْبَ المَنون**﴾. من المستحسن أن نذكر الآية السابقة والآية اللاحقة لهذه الآية لتكون الصورة أوضح، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿**فذكّرْ فما أنت بنعمة ربّك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعرٌ نتربّصُ به رَيْبَ المَنون * قل تربّصوا فإنّي معكم**

---

(1) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير 578/3 ـ دار المعرفة ـ بيروت 1982.

(2) صفوة البيان لمعاني القرآن ـ حسنين محمد مخلوف ـ ص 412 ـ الطبعة الثالثة ـ الكويت 1987 ـ وتفسير ابن كثير 173/3.

(3) تفسير ابن كثير 6/4.

من المتربصين﴾. يقول الله تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلّغ رسالته إلى عباده، ثم ينفي عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور من أنه كاهن أو مجنون، أو شاعر يتربصون به الموت وقوارع الدهر فيستريحون منه. قل: انتظروا فإنّي منتظر معكم وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة في الدنيا والآخرة[1].

وجاء في الآية الخامسة: **﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾** وما يليها: **﴿ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكّرون * تنزيل من ربّ العالمين *﴾**. «قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أُسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة (وهي التي تشتمل على هذه الآيات) فجعلت أَعجب من تأليف القرآن، قلت هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ: إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون. فقلت: كاهن. فقرأ: ولا بقول كاهن قليلاً ما تذّكرون. تنزيل من ربّ العالمين.. إلى آخر السورة. قال عمر: فوقع الاسلام في قلبي كلّ موقع. فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثّرة في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2].

أما الآية السادسة، وقد جاء فيها: **﴿والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون * ألم تر أنّهم في كل وادٍ يهيمون * وأنّهم يقولون ما لا يفعلون * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعدما ظُلِموا وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون﴾**. والمقصود من هذه الآيات، الشعراء الكفار الذين كانوا يهجون الرسول ﷺ ويقولون فيه الكذب والباطل. وكذلك من كان على شاكلتهم من الشعراء الذين يخوضون في الباطل ويكذبون ويمزقون الأعراض، وينشرون المثالب ويقدحون في الأنساب ويفرطون في المدْح والقدْح. وقد ورد أنه لما نزلت هذه الآيات جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون. فتلا النبي ﷺ: إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قال: أنتم. وذكروا الله كثيراً. قال: أنتم.

(1) ابن كثير 243/4 وصفوة البيان ص 672.

(2) ابن كثير 417/4.

وانتصروا من بعد ما ظلموا. قال: أنتم. ويضيف ابن عبد ربه الأندلسي: فأرخص الله للشعراء بهذه الآية في هجائهم لمن تعرّض لهم[1].

وواضح مما تقدم أن القرآن الكريم يحكي على ألسنة المشركين ما كانوا يقولونه عن الرسول ﷺ: شاعر، كاهن، مجنون، فهو يدافع عنه ويدحض آرائهم بالحجّة والبرهان، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى تنزيل من رب العالمين.

ويستفاد مما تقدم أيضاً أن القرآن الكريم لم يحرّم نظم الشعر كما يزعم البعض، ولم يهاجم الشعراء بصفة عامة، وإنما يقصد أولئك المشركين الذين يهاجون رسول الله وينهشون في أعراض الناس، ويتبعون مزاجهم وهواهم، فيحرّكون عواطف السامعين ومشاعرهم بما يملكون من أساليب الإثارة والتشويق بأكاذيبهم، ويعطّلون الاحتكام إلى العقل بضلالاتهم، فينساق وراءهم أهل الضلال من عامة الناس وخاصتهم.

أمّا الشعراء المؤمنون الملتزمون بأوامر الله ونواهيه، فقد استثناهم ربّ العالمين، ولا ضير عليهم شريطة أن يظلّ شعرهم في دائرة المباح من القول وفي حدود الحلال من الكلام.

ولا شك في أن موقف الرسول ﷺ من الشعر والشعراء هو تجسيد لموقف كتاب الله. وهذا ما سنوضّحه في الفصول التالية.

2 ـ موقف الرسول ﷺ من الشعر والشعراء

سبق أن ذكرنا أن الشعر في العصر الجاهلي كان ديوان العرب، ومجمَع مكارمهم ومنبع مفاخرهم ومعرِض فصاحتهم، ولما جاء النبي ﷺ بالقرآن الكريم، يدعو إلى الإسلام، أحدث هزة عنيفة في المجتمع العربي من الناحية الدينيّة والسياسية والاجتماعية، وكان الشعر من تلك المظاهر التي تأثرت بالإسلام، فإلى أيّ مدىً كان هذا التأثير؟ وما هو موقف صاحب الدعوة منه؟

---

(1) صفوة البيان ـ ص 479 ـ ابن كثير 354/3 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 294/5.

لقد اتخذ الرسول ﷺ موقفاً من الشعر والشعراء. ينسجم تمام الانسجام مع تعاليم القرآن، وقد سبق وذكرنا موقف القرآن من الشعر والشعراء، ونُذكّر بالآية الكريمة: ﴿**والشعراء يتّبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدِ ما ظُلموا، وسيعلمُ الذين ظَلموا أيَّ منقلب ينقلبون**﴾[1].

فالشعراء معروفون منذ القدم بالغلوّ والكذب ومجاوزة الحقّ في مديحهم وهجائهم وهؤلاء هم المقصودون، ثم إن القرآن الكريم يستثني من الشعراء: ﴿**إلاّ الذين آمنوا**﴾ و... الخ الآية. فنجد أن القرآن الكريم ميّز بين الشعراء الغواة والشعراء الصالحين، أما رسول الله ﷺ فقد رُوي عنه أنه ذمّ الشعر ونهى عن رواية بعضه في مجالات معيّنة، وأنه أبدى إعجابه بالشعر، وأقبل على الشعراء وشجّعهم واستنشدهم في مجالات كثيرة.

أ ـ في حالة الذمّ

رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال: «لأن يمتلىء جوْفُ أحدكم قَيْحاً حتى يَرِيَهُ خير له أن يمتلىء شعراً». أي لأن يمتلىء جوف الإنسان قيحاً حتى يأكله خير له من أن يمتلىء شعراً، والذي يقصده الرسول إنما هو على من غلب الشعرُ على قلبه، وملك نفسَه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن[2].

ورُوي عنه أيضاً قوله ﷺ: «من قال في الاسلام هجاءً مقذعاً فلسانه هَدَر»[3].

وعن محمد بن سلمة قال: كنّا يوماً عند رسول الله ﷺ فقال: يا حسّان أنشدني من شعر الجاهلية. فأنشده قصيدة الأعشى التي هجا بها علقمة بن علاثة ومدح عامر بن الطفيل. فقال: يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة. فقال: يا رسول الله تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر. فقال: إنّ قيصر سأل أبا سفيان عني فتناول مني،

(1) سورة الشعراء ـ الآية 224 وما بعدها.

(2) العمدة ـ ابن رشيق 31/1.

(3) العمدة ـ ابن رشيق 170/2.

وسأل علقمة فأحسن القول، فإنَّ أشْكَرَ الناس للناس أشكرهم لله تعالى[1].

وعن يحيى بن محمد قال: كان أميّة بن أبي الصلت يحرّض قريشاً بعد وقعة بدر، وكان يرثي من قُتل من قريش في وقعة بدر، فمن ذلك قوله:

مـــاذا بـــبـــدر والـــعَـــقَـــنْـــقَـــلْ... مِـنْ مَـرَازِبَـةٍ جَـحَـاجِـحْ[*]

وقال: وهي قصيدة نهى رسول الله ﷺ عن رواياتها[2].

من خلال هذه المواقف الآنفة الذكر يتبيّن لنا أن الرسول ﷺ قد نهى عن الانشغال التام بالشعر وروايته حيث أنه استعمل لفظة: يمتلىء، والامتلاء هو أن يُشغِلَ المالىءُ للشيء جميعَ أجزائه حتى لا يكون فيه فضل لغيره. وهكذا ينشغل الإنسانُ بالشعر وهذا ما يصدّه عن ذكر الله، إذ المفروض أن يكون هناك مجال للذكر وتدارسِ القرآن وتعلّم الشرائع والأحكام. وعليه يمكن القول: إنّ المكروه من رواية الشعر هو الانشغال به تماماً عمّا سواه، وكأنّ الرسول ﷺ يجيز روايته لمن يأخذ منه قسطاً، ويكون لديه متسع من الوقت لذكر الله وللتفقه بعلوم الدين والقرآن.

أمّا في الحديث الثاني، فإنّ كلام الرسول واضح تماماً إذ هو ينهى عن استغلال الشعر واتخاذه أداة للهجاء الفاحش والنيل من أعراض المسلمين، فقد أصدر حكمه على هذا النوع من الشعر، بقطع لسان صاحبه.

وبالنسبة إلى طلب النبي ﷺ من حسان عدم إنشاده قصيدة الأعشى التي هجا بها علقمة فهذا يدلّ على الخلق النبيل الذي كان يتمتع به الرسول، فهذا نوع من الوفاء لعلقمة الذي أثنى على الرسول عند قيصر، وهو مبادلة الإحسان بالإحسان، وقد قال رسول الله: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، وقد وصفه الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿**وإنّك لعلى خلق عظيم**﴾.

---

(1) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني 503/2 ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1328هـ.

(*) العقنقل: كثيب رمل بدر. مرازبة: الفرسان الشجعان (فارسي معرب) ـ الجحاجح: جمع جَحْجَح: السيد المسارع في المكارم.

(2) الأغاني 122/4.

أمّا ما ذكر عن نهي رسول الله ﷺ عن رواية قصيدة أميّة بن أبي الصلت، فهذا من البديهيّات، إذ ان الإسلام كان في أول أمره، وهناك حرب تدور رحاها بين المسلمين والمشركين وينتج عنها المئات من القتلى والجرحى، والقصيدة ترفع من قدر أعدائه المحاربين، وتحط من شأن أصحابه المجاهدين، وبخاصة أن الحرب كانت ما تزال مستعرة بين الفريقين، والشعر حينها كان له أثره الكبير في نفوس سامعيه، وهو من أشد وسائل الحرب الدعائية فاعليةً عند العرب في ذلك العصر، فكان لا بدّ للرسول من أن يقف هذا الموقف وللعمل على إضعاف أخصامه.

هذا النوع من الشعر هو الذي نهى عنه النبيّ ﷺ عن روايته، وذلك لما يترتّب عليه من ضغائن وأحقاد عند الناس. والآن ما هو موقفه من الشعر بصورة عامة؟

ب ـ في حالة المدح والاستحسان

رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّما الشّعر كلام مُؤَلّف فما وافق الحقَّ منه فهو حسن، ومن لم يوافق الحقّ منه فلا خير فيه». وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنّما الشعر كلامٌ، فمن الكلام خبيث وطيّب». ويروى عن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ بَنَى لحسّان بن ثابت في المسجد منبراً ينشد عليه الشعر[1]. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تدع العربُ الشعر حتى تدعَ الإبلُ الحنينَ»[2].

ويقول ابن عبد ربّه: ومن الدليل على عِظَم قدْر الشّعر عند العرب، وجليل خَطْبِه في قلوبهم، أنّه لمّا بَعث النبيُّ ﷺ بالقرآن المُعْجِز نظمه، المُحكم تأليفه، وأعجب قريشاً ما سمعوا منه قالوا: ما هذا إلاّ سِحْر. وقالوا في النبي ﷺ: (شاعر نتربّص به ريْبَ المَنون). وكذلك قال النبي ﷺ في عمرو بن الأهتم لماأعجبه كلامُه: إنّ من البيان لَسِحْرا. وقال: إنّ من الشعر لحكمة.

وسمع النبيّ ﷺ عائشة وهي تُنشد شعر زهير بن جَناب:

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 27/1.

(2) العمدة ـ ابن رشيق 29/1.

ارفَعْ ضعيفَكَ لا يَحُرْ بكَ ضَعْفُه   يوماً فتُدركَه عواقبُ ما جَنَى
يَجزيكَ أو يُثني عليكَ فإنّ مَن   أثنى عليكَ بما فعلت كَمن جَزَى

فقال النبيّ ﷺ: «صَدق يا عائشة، لا يشكر اللّهَ من لا يشكر الناس.

وعن يزيد بن عمرو عن... قال: دخلت على النبيّ ﷺ ومُنشدٌ ينشده:

لا تأمَنَنّ وإن أمسيتَ في حَرَمٍ   إنّ المنايا بجَنْبَيْ كُلِّ إنسانِ
فاسلُك طريقَكَ تَمْشي غير مُخْتَشِعٍ   حتى تلاقي الذي مَنَّى لك الماني
فكلُّ ذي صاحبٍ يوماً مُفارِقُهُ   وكلُّ زادٍ وإن أبقيتَه فاني
والخيرُ والشرُّ مَقْرونان في قَرَنٍ   بكلِّ ذلك يأتيك الجَديدان

فقال النبيّ ﷺ: لو أدرك هذا الإسلام لأسلم. وعن الأصمعي قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: أُنشدك يا رسول الله؟ قال: نعم. فأنشده:

تركتُ القِيانَ وَعزفَ القِيانِ   وأدمنتُ تصليةً وابتهالاً
وكرّي المُشقَّر في حَومةٍ   وشَنّي على المُشْركين القتالا
فيا ربّ لا أُغبننْ صَفْقتي   فقد بِعْتُ مالي وأهلي بدالا

فقال النبيّ ﷺ: رَبح البَيع، ربح البيع.

وقدم أبو ليلى النابغة الجَعديّ على رسول الله ﷺ فأنشده شعره الذي يقول فيه:

بَلَغْنا السماءَ مجدُنا وسناؤُنا   وإنّا لَنَرْجو فوق ذلك مَظْهَرا

فقال له النبي ﷺ: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال: إلى الجنّة يا رسول الله بك. فقال النبيّ ﷺ: إلى الجنّة إن شاء الله. فلما انتهى إلى قوله:

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لم تَكُن له   بوادرُ تَحْمي صَفْوَه أن يُكَدَّرا
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له   حَليمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأمرُ أصدَرا(*)

قال الرسول ﷺ: لا يفضُضِ اللّهُ فاكَ. فعاش مئة وثلاثين سنة لم تنغُض له ثنيّة[1].

(1) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 273/5 وما بعدها.

(*) تنغض: أي تتحرك.

يتبين لنا مما تقدم أن النبي محمداً ﷺ وهو الذي عُرف بالفصاحة والبلاغة، يُحدّد لنا معالم الشعر، فهو كلام مؤلّف، والكلام خبيث وطيب، فذلك الكلام الخبيث والكلام الذي لا يوافق الحق لا خير فيه وصاحبه الذي تعنيه الآية الكريمة: والشعراء يتبعهم الغاوون إلى آخر الآية، أما الصنف الثاني وهو الكلام الطيّب والكلام الذي يوافق الحق وصاحب هذا الاتجاه من الشعراء هو ممّن استثنتهم الآية الكريمة: إلاّ الذين آمنوا.. إلى آخر الآية وقد أثنى الرسول ﷺ على هذا الشعر بقوله: إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرا. وهكذا نلاحظ أن موقف الرسول ﷺ من الشعر، ينسجم تماماً مع موقف القرآن الكريم. وقد كان يتذوّق الشعر الحسن ويرتاح لسماع الحِكَم فيه لذلك وجدناه يسمح للشعراء بإنشادهم الشعر له، وإلاّ لكان رفض الاستماع إليهم، ولم يكن الأمر كذلك فحسب، وإنما كان يطلب هو نفسه أن ينشدوه الشعر، فمن حديث ابن أبي شَيْبة: أنّ النبيّ ﷺ، أردف الشريد، فقال له النبيّ ﷺ: تَروي من شعر أمية ابن أبي الصّلت شيئاً؟ قلتُ: نعم. قال: فأنشدني فأنشدته. فجعل يقول بين كل قافيتين: هيه، حتى أنشدتُه مائة قافية. فقال: هذا رجل آمن لسانه وكفر قلبُه[1].

ومما لا ريب فيه أنّ شعراء القبائل والمشركين ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام، ومعروف أن قريشاً حادّت الله ورسوله حين بُعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة وسرعان ما نشبت بين البلدتين معركة حامية الوطيس، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب في جانب، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة، ومن التقّوا حوله في المدينة، في جانب آخر، وبمجرد أن اشتبكت السيوف أخذ الشعراء دورهم في المعركة وكان على رأس شعراء المشركين: أبو سفيان وعبد الله بن الزِّبَعْري وعمرو بن العاص وغيرهم، فأخذوا يسدّدون سهام أشعارهم إلى الرسول ﷺ وأصحابه وعامة المسلمين. وعزّ ذلك على النبي وعلى المسلمين لا لأنّهم كانوا يهجونهم فحسب بل أيضاً لأنهم كانوا يصدّون عن

---

(1) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 277/5.

سبيل الله بما يَذيعُ من شعرهم في القبائل العربية. فقال الرسول للأنصار: «ما يَمْنَعُ القومَ الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم». فقال حسان بن ثابت: أنا لها. وفي رواية أخرى، قال الرسول ﷺ لحسان: شُنَّ الغطاريف على بني عبد مناف، فوالله لشعرك أشدُّ عليهم من وقع السهام في غلس الظلام. ثم إنّ حسان أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه، وقال: والله يا رسول الله إنّه ليخيّل لي أنّي لو وضعته على حجر لفلقه أو على شعر لحلقه. فقال النبيّ ﷺ: «أيّد اللّهُ حساناً في هجوه بروح القدس»[1]. ثم أنضمّ إلى حسان، كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء المشركين. وهنا نلاحظ أن الرسول ﷺ هو الذي طلب من شعراء المسلمين أن يهجوا المشركين وشعراءهم. فهو يتعامل معهم بما يتلاءم مع واقع الحال، فقد كان للشعر آنذاك أثره الكبير في نفوس الناس من الناحية الإعلامية، وقد استغلّه المشركون أيّما استغلال في حروبهم مع الاسلام والمسلمين، فهجوا الرسول ﷺ وهجوا أصحابه، وتعرّضوا لأعراض المسلمين وعقائدهم، لذلك كان لا بدّ من استنفار شعراء المسلمين للذود عن الدين الجديد وعن أتباعه وذلك بالسلاح الناجح الذي يستعمله المشركون وهو الشعر.

ولم يكتف الرسول بذلك فقد لجأ إلى رمي الرعب في صفوف شعراء المشركين فقد أهدر دم كل شاعر يتعرض للرسول أو للإسلام أو للمسلمين بالهجاء وقد نفّذ وعيده وأمر بقتل العديد ممن ظفر بهم، وعفا عن آخرين ممن استأمن ودخل في الإسلام.

ومن ناحية ثانية فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال ما يشبه الشعر منه ما ذُكر عن البَراء بن عازب أن النبيّ ﷺ قال يوم حنين:

أنا النبيّ لا كَذِبْ   أنا ابن عبد المطّلبْ

ومن حديث أبي بكر بن أبي شَيبة أن الرسول ﷺ لما دخل الغار نُكِبَ أي نالت الحجارة إصبعه فقال:

هل أنت إلاّ إصْبع دَميتَ   وفي سبيل الله ما لَقيتَ

---

(1) الأغاني - الأصبهاني 137/4 وانظر العقد الفريد 277/5.

وقد وضّح ابن عبد ربّه ذلك بقوله: فهذا من المنثور الذي يُوافق المنظوم، وإن لم يتعمّد به قائله المنظوم، ومثل هذا من كلام الناس كثير يأخذه الوزن ولا يُراد به الشعر، ولا يُسمّى قول النبيّ ﷺ شعراً وإن كان موزوناً لأنه لا يراد به الشّعر، ومثله كثير في آي الكتاب، مثلاً: ﴿ومن الليل فَسَبِّحه وإِدْبار النجوم﴾. ومنه: ﴿فذلك الذي يدعّ اليتيم﴾. ولو تطلّبت في رسائل الناس وكلامهم لوجدت فيه ما يحتمل الوزن كثيراً ولا يُسمّى شعراً، من ذلك قول القائل: من يشتري باذنجان، تقطيعه: مستفعلن مفعولات، وهذا كثير.

وإذا كان هذا هو موقف الرسول ﷺ من الشعر والشعراء، فكيف كان موقف الخلفاء الراشدين منهم؟

3 ـ موقف الخلفاء الراشدين من الشعر والشعراء

أ ـ أبو بكر الصديق (51 ق.هـ 13 هـ = 573 - 634م)

هو عبد الله بن عثمان بن عامر.. القرشي التميمي، خليفة رسول الله ﷺ، أمّه، أم الخير، سلمى بنت صخر بن عامر، ابنة عم أبيه، ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر، فكان الرسول أكبر منه، وصحبه قبل البعثة وسبق إلى الإيمان به واستمر معه طول إقامته بمكة ورافقه في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها إلى أن مات، واستلم خلافة المسلمين بعد وفاة النبيّ ﷺ. وعن عائشة قالت: جاء أبو بكر فقال النبيّ ﷺ: من سرّه أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر، فغلب عليه اسم عتيق. كان أنسب العرب وكان تاجراً ذا خلق ومعروف، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، ومناقبه كثيرة جداً، وكانت وفاته يوم الاثنين في جمادي الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة[1].

من هذه الترجمة لحياة أبي بكر الصديق، خليفة رسول الله، يتبين لنا أنه كان من أهل العلم والمعرفة بالأنساب، وهذا يعني أنه من الفصحاء ومن

---

(1) الاصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني 341/2 ـ وانظر الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 169/3 ـ والتنبيه والاشراف ـ المسعودي ص 247 ـ وتاريخ الطبري 424/3.

المتذوقين للشعر أو الضاربين بنصيب منه إذ كان الشعر الميدان الرئيسي لأهل العلم والفصاحة. وإذا كان لقّب بالصديق لأنه كان من أوائل المصدّقين للرسول ﷺ، ولا شك في أنه سار على خطاه بالنسبة إلى الشعر، والمتتبع لأحواله في هذا المجال يلاحظ أنه كان راوية للشعر، يتذوق حسنه ويستعمله في المناسبات، فقد ورد عن عثمان بن محمد بن الزبيري قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في بعض خطبه: نحن - والله - والأنصار كما قال:

جزى الله عنا جعفراً حين أشرقت بنا نعلنا للواطئين فزلّتِ
أبوْا أن يملّونا ولو أنّ أمّنا تُلاقي الذي يلْقَوْن منّا لملّتِ[1]

وقد ذكر الأصبهاني: أُنشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه قول لبيد في رثاء أخيه أربد:

لَعَمْري لئن كان المخبِّرُ صادقاً لقد رُزِئَتْ في حادث الدهر جعفرُ
أخٌ لي، أمّا كلُّ شيء سألته فيُعطي، وأمّا كلّ ذَنْبٍ فيغفِرُ

فقال أبو بكر رضوان الله عليه: ذلك رسول الله، لا أربد بن قيس[2].

وذكر محمد بن جرير الطبري أن أبا بكر رضي الله عنه تمثّل في مرضه الذي توفي فيه بشعر لعبيد بن الأبرص وهو قوله:

وكلُّ ذي إبلٍ موروثٌ وكلُّ ذي سَلَبٍ مسلوبُ
وكلّ ذي غِيبةٍ يؤوبُ وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

وكان آخر ما تكلّم به، ربّ «توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين»[3].

إن هذه الشواهد التي ذكرناها تدلّ على أن خليفة رسول الله كان لا يتحرج أبداً في الاستشهاد بأشعار الجاهليين، تلك الأشعار التي لا تتنافى مع مبادىء الشرع الإسلامي. ولم يكن الأمر كذلك فحسب، إذ تذكر بعض المصادر أنه قال شعراً من نظمه وفي مناسبات مختلفة. فقد ذكر ابن كثير عن

(1) حياة الصحابة 408/1.
(2) الأغاني - الأصبهاني 63/17.
(3) تاريخ الطبري 423/3.

محمد بن إسحاق أن الصدّيق قال في دخوله مع رسول الله الغار وسيرهما بعد ذلك ما كان من قصة سراقة شعراً. فمنه قوله:

قال النبيُّ - ولم أجزعْ - يُوَقّرني ... ونحنُ في سُدُفٍ من ظُلمة الغارِ

لا تخشَ شيئاً فإن الله ثالثُنا ... وقد توكّل لي منه بإظهار[1]

وهذا الشعر يتلاءم ومضمون الآية الكريمة: ﴿...**ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا**﴾ [سورة التوبة آية 40].

وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر مرض في المدينة بعد هجرته إليها، فدخلت عليه فقالت: يا أبت كيف تَجدكَ؟ فكان إذا أخذته الحمّى يقول:

كلُّ آمرىءٍ مُصَبَّحٍ في أهله ... والموتُ أَدْنى من شِراكِ نَعْلِهِ[2].

وهذا الشعر يتلاقى في مضمونه مع ما جاء في القرآن الكريم بصدد الموت، أنَّ كلَّ نفس ذائقةُ الموت ولا محالة من ذلك، ولو كان الإنسان في بروج مشيّدة، وإذا جاء الأجل لا بدّ من تنفيذ الأمر، وهذا شيء بعلم الغيب فقد يتعرض له المرء في كل لحظة.

وذكر ابن سعد: قال محمد بن عمر الواقديّ عن رجاله: قال أبو بكر الصديق يرثي رسول الله ﷺ:

يا عينْ فَابْكي ولا تسأمي ... وحُقَّ البكاءُ على السيّدِ

وأتبعها بأربعة أبيات أخرى من الشعر.

وتابع قائلاً: قال الواقديّ: وقال أبو بكر الصدّيق أيضاً:

لمّا رأيتُ نبيّنا متجدّلاً ... ضاقت عليَّ بِعَرْضِهِنَّ الدّورُ

وأتبعها أيضاً بأربعة أبيات.

ثم أردف أيضاً قائلاً: قال الواقديّ: وقال أبو بكر أيضاً:

باتَتْ تَأَوّبُني هُمومٌ... حشد ... مثلُ الصّخورِ فأمست هدّتِ الجسدا[3]

---

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 183/3.

(2) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 282/5 ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير 221/3.

(3) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 319/2.

ويتبعها ستة أبيات أخرى.

هذه مطالع بعض المراثي التي ذكرها ابن سعد والتي ينسبها إلى الخليف الأول، أبي بكر الصديق، بمناسبة وفاة الرسول ﷺ، هذا الخطب الجلل الذي هزّ نفوس المسلمين جميعاً هزّاً عظيماً، لا شك أن أبا بكر كان الأكثر تأثّراً من غيره، فليس غريباً أن يعبّر عن أساه بتلك المقطّعات الشعرية، وليس فيها شيء يتعارض وأحكام الشريعة الإسلامية.

أمّا ابن رشيق فقد ذكر في باب أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء: «من ذلك قول أبي بكر الصديق، رضي الله عنه... قال في غزوة عبيدة بن الحارث، رواه ابن إسحاق وغيره:

أمن طيفِ سلمى بالبطاحِ الدمائثِ أرقت، أَوَ امرٍ في العشيرة حادثٍ؟[1].

هذا مطلع لقصيدة مؤلفة من خمسة عشر بيتاً ذكرها جميعها، واللافت هنا مطلعها الغزلي التقليدي على عادة الشعراء الجاهليين، حقّاً إن أبا بكر رضي الله عنه لم تكن تفصله عن العصر الجاهلي سوى فاصلة صغيرة جدّاً، ولكن من المعروف عنه شدة التقوى، وقوة الإيمان، فهل يُعقل أن يبدأ قصيدته بالنسيب؟ ثم إنَّ الموقفَ موقفُ غزوٍ وجهاد وهذا لا يستدعي مثل هذا المطلع، وهنا قد نشارك ابن هشام وأمثاله في الرأي حيث يقول: «وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لأبي بكر رضي الله عنه». وقال السهيلي: «ويشهد لصحة من أنكر أن تكون له، ما روى عبد الرزاق عن... عن عائشة قالت: كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر في الإسلام»[2].

هذا ما روي عن عائشة رضي الله عنها، وهي ابنة أبي بكر، ويُشهد لها ولوالدها بالفصاحة وسعة الاطلاع، فما مدى صحة هذه الرواية؟ وإذا كان الخبر صحيحاً فمعنى ذلك أنّ جلّ ما ذكرناه آنفاً من شعر ينسب إلى أبي بكر، هو غير صحيح. أو أنه صحيح ولم تكن عائشة على علم به وهذا احتمال ضعيف.

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 32/1 وما بعدها.

(2) العمدة ـ ابن رشيق 32/1 الحاشية رقم 1.

وقد تكون هذه الرواية عن عائشة غير صحيحة، وهكذا يكون ما ذكرناه من شعر لأبي بكر صحيحاً، والله أعلم.

وفي الخلاصة نقول: إن موقف خليفة رسول الله، أبي بكر الصديق، من الشعر، كان يتناسب مع موقف الرسول ﷺ وموقف الشريعة الإسلامية، وإذا أخذنا بصحة الروايات السابقة نجد أنه كثيرُ الاستشهاد بالشعر في خطبه ومواعظه وحتى في المناسبات الحرجة كالإشراف على الموت، كما ورد له مقطّعات شعرية وقصائد، يعبّر فيها عمّا يخالج ذهنه من أفكار، تلك الأفكار المشبعة بالحس الديني وبمحبة الرسول ﷺ. إذا كان هذا موقف أبي بكر رضي الله عنه من الشعر فما هو موقف خلفه عمر بن الخطاب من ذلك؟

ب ـ عمر بن الخطاب: (40 ق.هـ 23 هـ = 584 م ـ 644 م)

عمر بن الخطاب بن نُفَيل بن عبد العُزّى بن... عديّ بن كعب بن لؤي، ويكنّى أبا حفص، سمّاه النبيّ بالفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقّب بأمير المؤمنين، شجاع حازم، صاحب الفتوحات، يُضرب بعدله المثل، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وشهد الوقائع، قال ابن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلّي عند الكعبة حتى أسلم عمر. بويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر سنة 13هـ. وهو أولُ من وضع للعرب التاريخ الهجري، واتخذَ بيتَ مالٍ للمسلمين، وأولُ من دوّن الدواوين في الإسلام، وكان يطوف في الأسواق منفرداً، ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم، وله كلمات وخطب ورسائل غاية في البلاغة، وكان لا يكاد يُعرض له أمر إلاّ أنشد فيه بيتَ شعرٍ، قتله أبو لؤلؤة فيروز الفارسي غيلة[1].

نظرة عمر إلى الشعر: قال الجاحظ: «وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من خير صناعات العرب الأبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته يستنزل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم»[2].

---

(1) الاعلام ـ الزركلي 45/5 الطبري 195/4. الطبقات ـ ابن سعد 265/3، الاصابة ـ ابن حجر العسقلاني 518/2.

(2) البيان والتبيين ـ الجاحظ 372/2.

وورد في كتاب الخصائص: «قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان الشّعْر عِلْم القوم، ولم يكن لهم عِلْمٌ أصحُّ منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العربُ بالجهاد وغزو فارس والروم، ولَهِيَتْ عن الشعر وروايته، فلما كثُر الإسلامُ وجاءت الفتوحُ واطمأنتِ العربُ في الأمصار، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن، ولا كتابٍ مكتوب، وأَلِفوا ذلك وقد هلك من العرب مَن هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلَّ ذلك، وذهب عنهم أكثره»[1].

وجاء في زهر الآداب: «وقال عمر رحمة الله عليه: تعلّموا الشعر، فإنّ فيه محاسِنَ تُبتغى، ومساوِئَ تُتّقى»[2].

وذكر ابن رشيق: «كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعريّ: مُرْ مَن قِبَلك بتعلّم الشعر، فإنه يدلّ على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفةِ الأنساب»[3].

يتبيّن لنا مما ذكرناه من أقوال منسوبة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه كان ينظر إلى الشعر العربي وكأنه إحدى المهن أو الصناعات بل هو من خيرها وأفضلها لمن يتمكن من إتقان تلك المهنة، إذ بإمكان صاحبها أن يستعملها عند الحاجة، فإذا كانت الحاجة ماديّة، بإمكان الشاعر أن يمدح ذوي المال والجاه فيحصل منهم على حاجته ويعيش في الترف والنعيم بدلاً عن الحاجة والفقر، وبما أنه كان للشعر أثر كبير في نفوس الناس فبإمكان الشاعر المجيد أن يستعطف اللئيم ويصل إلى غايته.

ثم إنّ عمراً رضي الله عنه يبيّن لنا أن الشعر كان أصح العلوم عند الجاهليين، وذلك للمرتبة العالية من الاتقان التي تبوّأها في المجتمع الجاهلي، فهو ديوانهم، المعبّرُ عن آمالهم، الواصفُ لأحوالهم، الذاكر لأيامهم، الذائد عن

---

(1) الخصائص - ابن جنّي 386/1، وانظر طبقات الشعراء - ابن سلام 25/1 - والعمدة - ابن رشيق 27/1.

(2) زهر الآداب - لأبي اسحاق ابراهيم بن علي الحصري - 58/1 - دار الجيل - بيروت - الطبعة الرابعة 1972.

(3) العمدة - ابن رشيق 28/1.

حياضهم، الحامد لمكارمهم، الهاجي لأعدائهم. فلما جاء الإسلام تشاغل العرب عن الشعر بالجهاد والفتوحات، إلى أن اطمأنوا في الأمصار بعد تحقيق غاياتهم، وكان أن قتل منهم من قتل في الحروب، ومات من مات بالطبيعة، فذهب بذلك معظم رواة الشعر الذي لم يكن مكتوباً، وبذلك فُقد أكثره ولم يبق إلاّ أقلّه، ولو جمع في حينه لوصلنا شعر غزير.

وكان عمر رضي الله عنه يعرف قدر الشعر ومكانته لذلك كان يطلب من الناس أن يتعلموا الشعر لأن فيه من المحاسن الشيء الكثير، تلك المحاسن التي يجب أن تكون غاية للناشئة والمربين لبلوغها، وفي الشعر أيضاً الكثير من المساوىء التي يجب التنبيه إليها والعمل على الابتعاد عنها.

ولم يكتف عمر رضوان الله عليه، بالنصيحة، فها هوذا يأمر عماله في الأمصار بفرض تعلّم الشعر، بقوله إلى أبي موسى الأشعري: مُرْ مَنْ قِبَلَك بتعلّم الشعر؛ فهو يأمر ويعلّل الأسباب بقوله: فإنّ الشعر يدلّ على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب.

نستنتج مما تقدم أنّ أمير المؤمنين عمر كان ينظر إلى الشعر نظرة إكبار وإعجاب، لذلك يحث المسلمين أن يتعلموه، لما فيه من مكارم الأخلاق، ويرى فيه محركاً لمشاعر الخير في الانسان يستنزل به الكريم ويستعطف به اللئيم:

الشعر يحوّل حزم عمر إلى ضعف: إن تلك النظرة للشعر هي وليدة تأثرات وانفعالات تعرض لها الخليفة عمر، رضوان الله عليه، فهو على الرغم من اشتهاره بالحزم، لم يستطع الصمود أمام الشعر الذي هزّ وجدانه فاستجاب لمن يستعطفه، فقد ذكر الأصفهاني أن كِلاب بن أميّة بن الأسكر اشترك في الجهاد بموافقة عمر بن الخطاب وكان أبوه قد كبر وضعُف، فلما طالت غيبة كلاب عنه قال أبياتاً منها:

تركتَ أباك مُرعَشةً يداه ... وأمّك ما تُسيغ لها شرابا
فإنّكَ والتماسَ الأجرِ بَعْدي ... كباغي الماء يتَّبعُ السرابا

فبلَغَتْ هذه الأبيات عمر، فلم يردد كلابا، فحضر والده يوماً إلى عمر الذي كان في المسجد وحوله المهاجرون والأنصار، فوقف عليه ثم أنشأ يقول:

أعاذلَ قد عذَلْتِ بغيرِ قَدْرٍ ولا تدرينَ عاذلَ ما أُلاقي
فإمّا كنتِ عاذلتي فَرُدِّي كلاباً إذ توجَّه للعراق

* * *

فلا واللهِ ما باليتَ وَجدي ولا شفَقي عليكِ ولا اشتياقي
وإبقائي عليك إذا شتونا وضمَّك تحت نحري واعتناقي

* * *

سأستعدي على الفاروق ربّاً له دُفِعَ الحجيجُ إلى بُساقِ

* * *

إنِ الفاروقُ لم يردد كلاباً إلى شيخين هامُهما زَواقِ(*)

فبكى عمر بكاءً شديداً وكتب بردّ كلاب إلى أبويه[1].

وهناك حادثة مشابهة ذكرها أيضاً صاحب «الأغاني» حيث يقول:

هاجر شيبان بن المخبل السعدي (الشاعر المعروف) وخرج مع سعد بن أبي وقاص لحرب الفرس، فجزع عليه والده (المخبل) جزعاً شديداً، وكان قد أسنَّ وضعُف، فلم يملك الصبر عنه، فأنشأ قصيدة يقول فيها:

أيُهلكني شيبانُ في كلِّ ليلةٍ لقلبي من خوف الفِراق وجيبُ

* * *

فإنّي حَنَتْ ظهري خطوبٌ تتابعت فمشيي ضعيفٌ في الرجال دبيبُ
إذا قال صحبي يا ربيعُ ألا ترى أرى الشخص كالشخصين وهو قريبُ
ويخبرني شيبانُ أن لن يعقَّني تَعُقُّ إذا فارقتني وتحوبُ(**)
فلا تُدْخِلَنَّ الدّهر قَبرك حوبةً يقومُ بها يوماً عليك حسيبُ(***)

(*) زواق: أشرفا على الموت.

(1) الأغاني ـ الأصفهاني 10/21 وانظر العمدة ـ ابن رشيق 58/1.

(**) تحوب: تأثم.

(***) الحوبة: الذنب

فلما سمع عمر بن الخطاب هذه الأبيات بكى ورقّ له، فكتب إلى سعد الذي ردّ شيبان إلى أبيه[1].

ولم تكن هذه الحادثة هي الأخيرة من نوعها حيث يضعُف عمر أمام الشعر بل يُذكر له حوادث مماثلة منها:

هاجر خِراشُ بن أبي خراش الهذليّ، وغزا مع المسلمين، فقدم أبو خراش المدينة، فجلس بين يدي عمر، وشكا إليه شوقَه إلى ابنه، وأنه رجل قد انقرضَ أهلُه، ولم يبق له ناصر ولا معين غير ابنه خِراش، وقد غزا وتركه، وأنشأ يقول:

ألا مَنْ مُبلغٌ عنّي خِراشاً وقد يأتيك بالنبأ البعيدُ

* * *

رأيتكَ وابتغاءَ البِرِّ دوني كمحصورِ اللّبان ولا يصيدُ

فتأثر عمر، وكتب بعودة خِراش إلى أبيه، وأمر بأن لا يغزوَ من كان له أبٌ شيخ إلاّ بعد أن يأذنَ له[2].

وهكذا وجدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يتأثر بالشعر، ولشدة تأثره يبكي، وهو الذي اشتُهر بالشدة والحزم. وهذا يدل على إحساسه المرهف، وشعوره الإنساني، حيث يشارك الآباء العاجزين توقهم وحاجتهم إلى أبنائهم، وكذلك يشارك كل إنسان مظلوم أو مغلوب على أمره، ما ينتابه من أحاسيس ومشاعر، والآن كيف كان موقفه من شعر الهجاء؟ ومن الشعر الذي يتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية؟

عمر وشعر الهجاء الذي يتنافى مع الإسلام: إذا كان عمر، كما لاحظنا، يدفع الناس إلى تعلّم هذا الفنّ الكلامي وروايته، فلا يعني أن يُؤخذ هذا الكلام على إطلاقه، فهناك ضوابط وقيود تحكم هذا الفن وترشده إلى الطريق الصواب، ولا شك أن عمر ملتزم بعقيدة ومنهج لن يحيد عنه، إنّها العقيدة الإسلامية ومنهج الرسول ﷺ. وقد سبق أن ذكرنا قول النبيّ ﷺ: «من قال في

(1) الأغاني - الأصفهاني 189/13.

(2) الأغاني - الأصفهاني 226/21.

الاسلام هجاءً مقذعاً فلسانه هَذَر». فما هو موقف عمر من الهجاء؟

تذكر الروايات أن الحطيئة (الشاعر المعروف) هجا الزِّبْرقان بن بَدْر بالشعر الذي يقول فيه:

دَعِ المكارِمِ لا تَرْحَلْ لِبُغيتها | واقعُد فإنك أنت الطاعِمَ الكاسي

استعدى عليه عمر بن الخطاب، وأنشده البيت، فقال ما أرى به بأساً. قال الزِّبرقان: والله يا أمير المؤمنين، ما هُجيت ببيتٍ قطُّ أشدَّ عليَّ منه. فبعث إلى حسّان بن ثابت (شاعر الرسول) وقال: انظر إن كان هجاءً. فقال: ماهجاه، ولكن سلح (تغوّط) عليه. ولم يكن عُمر يَجهل موضع الهجاء في هذا البيت، ولكنه كَره أن يتعرّض لشأنه، فبعث إلى شاعر مثله، وأمر بالحطيئة إلى الحبس. وقال: يا خبيث، لأشغلنّك عن أعراض المسلمين. فأخذ يستعطف عمر ويمدحه قائلاً:

أعوذُ بِجَدِّكَ إنّي آمرؤ | سَقَتْني الأعادي إليك السِّجالا
تحنَّنْ عليَّ هَداك المليكُ | فإنّ لكلٍّ مقامٍ مقالاً

* * *

فإن كان ما زعموا صادقاً | فسيقَتْ إليكَ نسائي رِجالا(*)
حواسر لا يشتكينَ الوجا | يُخَفِّضْنَ آلاً ويرفعن آلا

فلم يلتفت إليه عمر، فما كان منه إلاّ أن لجأ إلى الأسلوب العاطفي المؤثِّر، فكتب إليه من الحبس يقول:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخٍ | زُغْبِ الحَوَاصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
ألقيتَ كاسبَهم في قعرِ مُظْلِمةٍ | فاغفرْ عليكَ سلامُ اللّهِ يا عمرُ
أنتَ الإمامُ الذي من بعدِ صاحبِهِ | ألقى إليكَ مقاليدَ النُّهى البَشَرُ
لم يُؤْثِروكَ بها إذْ قدَّموكَ لها | لكنْ لأنفسِهم كانتْ بِكَ الأثرُ(**)(1)

(*) رجالا: أي راجلة، الوجا: الحفا.

(**) ذي مرخ: واد بالحجاز، زغب الحواصل: قرب عهدهم بالولادة. الأثر: المكرمة.

(1) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 317/5 وانظر الأغاني ـ الأصفهاني 186/2.

فأخرجه وقال له: إيّاك وهجاء الناس. قال: إذاً يموت عيالي جوعاً هذا مكسبي ومنه معاشي. قال: فإياك والمقذع من القول. قال: وما المقذع؟ قال: أن تُخاير بين الناس، فتقول فلان خير من فلان. قال: فأنت والله أهْجى منّي. ثم قال: والله لولا أن تكون سُنّة (من بعدي) لقطعت لسانك، ولكن آذهب فأنت له ـ خذه يا زِبْرقان، فألقى الزبرقان في عنقه عمامة فاقتاده بها، وعارضتْه غطفان، فوهبه لهم[1].

وهناك حادثة مماثلة ذكرها صاحب «زهر الآداب» حيث قال: كان بنو العَجْلان يفخرون بهذا الإسلام ويتشرفون بهذا الوشم إذ كان عبد الله بن كعب جدُّهم إنما سمّي العجلان لتعجيله القِرَى للضِّيفان... فكان شرفاً لهم حتى قال النجاشي واسمه قيس بن عمرو.. بن كعب يهجوهم بقصيدة منها:

أولئك أخوالُ اللّعين وأسرةُ الـ.. هَجينِ ورهْطُ الواهِن المتذلّلِ
وما سمّيَ العَجْلانَ إلاّ لقولِهِ خُذِ القَعْبَ وآحلبْ أيّها العبد واعْجلِ

وزعمت الرواة أنّ بني العجلان استعْدوا على النجاشي ـ لما قال هذا الشعر ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحبسه وقيل جلده[2].

وهكذا رأينا أن الخليفة عمر بن الخطاب يعاقب على شعر الهجاء، وليس الأمر كذلك فحسب، وإنما كان يعاقب على أنواع أخرى من الشعر منها:

أ ـ التعرض لأعراض المسلمين، فقد ذكر الأصفهاني أنّ أبا محجن الثقفي هَوِيَ امرأةً من الأنصار يقال لها شَمُوس، فحاول النظر إليها بكلّ حيلة، فلم يقدر عليها، فآجر نفسَه من عامل يعمل في حائط إلى جانب منزلها، فأشرف من كُوّةٍ في البستان، فرآها فأنشأ يقول:

ولقد نظرتُ إلى الشّموسِ ودُونها حَرَجٌ من الرّحمٰن غيرُ قليلِ

(1) العمدة ـ ابن رشيق 170/2 وانظر الكامل في اللغة والأدب ـ المبرد 353/1 ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 244/1.

(2) زهر الآداب ـ القيرواني ـ 54/1 ـ وانظر العمدة ـ ابن رشيق 52/1 وخزانة الأدب ـ البغدادي 113/1 ـ دار صادر ـ الطبعة الأولى.

قد كنتُ أَحْسبُني كأغنى واحدٍ   وردَ المدينةَ عن زراعة فولِ

فاستعدى زوجُها عليه عمر بن الخطاب، فنفاه إلى «حَضْوْضَى»[1].

ب ـ إثارة الشحناء والبغضاء بين المسلمين، فقد ذكر صاحب الأغاني أن عبد الله بن الزِّبَعري وضرار بن الخطَّاب الفِهْرِيّ قدما المدينة وكانا شاعريْ قريش في إبان الخصومة بينها وبين الرسول ﷺ، واجتمعا بحسان بن ثابت الذي كان شاعر الرسول، وجعلا ينشدانه بما كان بين الأنصار والمشركين من نقائض شعرية حتى فارَ فصار كالمرجل غضباً، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة، ولم يتركا له مجال الردّ عليهما. فاشتكى إلى عمر الذي أعادهما إلى المدينة وقال لحسّان: أنشدهما مما قلتَ لهما، فلما فرغ، قال له عمر: أنشداك في الخلاء وأنشدتهما في الملا. ثم قال: إنّي قد كنتُ نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً، دفعاً للتضاغُن عنكم وبثٍّ القبح فيما بينكم. وقال: في ذلك شَتْمُ الحيِّ بالميت، وتجديدُ الضغائن، وقد هَدَم اللّهُ أمرَ الجاهلية بما جاء من الإسلام[2]. من هذا يتبيّن أن عمر لم يكن يتهاون في أمر إثارة العصبية القبلية من جديد، بعد أن استظلّ الجميع بمظلّة القرآن، فلا يجوز نبش الماضي البغيض بعد أن طواه الإسلام.

ج ـ التعرض لنساء المسلمين: يبدو أن عمر رضي الله عنه، كان أشدّ ما يكون حينما يتعرض أحد بشعره بنساء المسلمين فقد ذُكر أن رجلاً من «مزينة» مرّ على باب رجل من الأنصار، وكان يُتَّهم بامرأته، فلما حاذى بابه تنفّس ثم قال متمثلاً لشعر علقمة بن عبدة:

هل ما علمتَ وما اسْتُودِعْتَ مكتومُ   أم حبلُها إذا نأتك اليوم مصرومُ؟

فتعلق به الرجل، فرفعه إلى عمر رضوان الله عليه، فاستعداه عليه، فقال له المتمثِّل: وما عليّ في أن أنشدتُ بيتَ شعر؟ فقال له عمر: ما لكَ لم تُنْشدْهُ قبل أن تبلغَ بابه؟ ولكنّك عرّضتَ به مع ما تعلم من المقالَة فيه. ثم أمر به

---

(1) الأغاني ـ الأصفهاني 3/19.

(2) الأغاني ـ الأصفهاني 140/4.

فضُربَ عشرين سوطاً[1].

عمر الشاعر الناقد: عن سعيد بن المسيِّب قال: كان أبو بكر شاعراً، وعمر شاعراً، وعليٌّ أشعرَ الثلاثة[2]. وقد ذكر ابن رشيق: ومن شعر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة ـ ويروى للأعور الشَّنِّيّ:

هَوِّن عليكَ فإنّ الأمورَ ... بكفِّ الإلٰهِ مقاديرُها
فليسَ بآتيكَ مَنْهِيُّها ... ولا قاصرٍ عنكَ مأمورُها

ومن شعره أيضاً ـ وقد لبس برداً جديداً فنظر الناسُ إليه ـ وقد رُوي لوَرَقة بن نوفل في أبيات منها:

لا شيءَ مما ترى تبقى بشاشتُهُ ... يبقى الإلٰه ويفنى المالُ والولدُ
لم تُغْنِ عن هُرْمُزٍ يوماً خزائِنُهُ ... والخُلدَ قد حاوَلَتْ عادٌ فما خَلَدُوا

وقد ذكر الطبري وابن سعد والقيرواني هذه الأبيات مع اختلاف بسيط باستبدال لفظة ويفنى المال بـ ويودى المال، كما أنهم أجمعوا على رواية أخرى في سبب تمثل أمير المؤمنين لهذا الشعر، وروايتهم مفادها، أنّ عمر وصحبَه كانوا قافلين من مكة بعد أداء فريضة الحج وعند وصولهم إلى جبل ضجنان تذكّر الأيام الماضية حينما كان يحتطب ويرعى الغنم والإبل وكيف أصبح الآن خليفة للمسلمين فقال: لا إلٰه إلا الله العلي العظيم، المعطي من شاء ما شاء، لقد رأيتني في هذا المكان أرعى إبل الخطاب في مِدْرعة صوف، وكان فظّاً يُتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد، ثم تمثل بتلك الأبيات[3]:

ومن شعره أيضاً رضي الله عنه:

توعّدني كعبٌ ثلاثاً يعدّها ... ولا شكّ أن القول ما قال لي كعبُ

---

(1) الأغاني ـ الأصفهاني 203/21 وانظر طبقات الشعراء ـ ابن سلام 140/1.

(2) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 283/5.

(3) تاريخ الطبري 219/4 ـ الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 266/3 ـ زهر الآداب ـ القيرواني 73/1.

وما بيَ خوفُ الموت، إنّي لميّتٌ ... ولكنَّ خوف الذنب يتبعهُ الذنبُ[1]

وعن ابن عباس قال: خرجت مع عمر في بعض أسفاره، فإنّا لنسير ليلة، وقد دنوت منه، إذ ضرب مقدّم رحلِه بسوطه، وقال:

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ يُقْتَلُ أحمدٌ ... ولمّا نطاعِن دونَه ونناضلِ

ونُسْلِمُه حتى نُصَرَّعَ حولَهُ ... ونُذْهَلَ عن أبنائنا والحلائلِ[*]

ثم قال: استغفر الله، ثم سار فلم يتكلم قليلاً، ثم قال:

وما حملتْ من ناقةٍ فوقَ رَحْلِها ... أبرَّ وأوفى ذِمّةً من محمّدِ

وأكسى لبُرْدِ الخالِ قبلَ ابتِذالِهِ ... وأعْطَى لرأسِ السابقِ المُتجرِّدِ[2]

وعن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه قال: كان عمر بن الخطاب إذا سافر لا يقوم في الظلّ، وكان يراحلنا رحالَنا، ويُرحِّلُ رحلَه وحده، وقال ذات يوم:

لا يأخذ الليلُ عليك بالهمّ ... والبسْ له القميص واعتمّ

وكن شريكَ نافعٍ وأسْلَمْ ... ثم آخدُمِ الأقوامَ حتى تُخْدَمِ[3]

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم فتح مكة:

ألم ترَ أنّ اللّهَ أظهرَ دينَهُ ... على كلّ دينٍ قبل ذلك حائدِ

وأمكنه من أهل مكة بعدما ... تداعَوْا إلى أمرٍ من الغيّ فاسدِ

* * *

فأمسى رسولُ الله قد عَزَّ نَصْرُهُ ... وأمْسى عِدَاه من قتيلٍ وشاردِ[4]

يُستنتج من الأشعار السابقة المنسوبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قوّة إيمانه واقتناعه بالقضاء والقدر، وأنّ الإنسان مهما حصّل في هذه الحياة من جاهٍ ومال فيجب أن لا يحيدَ عن جادة الصواب، فكل شيءٍ إلى

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 34/1.

(*) هذان البيتان من قصيدة لأبي طالب

(2) تاريخ الطبري 222/4.

(3) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة 264/1.

(4) زهر الآداب ـ القيرواني 74/1.

زوال، وكل نفس ذائقة الموت، لذلك فهو لا يخاف من الموت وإنما يخاف من تتابع الذنوب، وإنّ الله على كل شيء قدير، فهو يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، ويتحدث عن القناعة التي يجب أن يتحلّى بها الإنسان، ثم إنه يمدح الرسول ﷺ بما هو أهله من الصفات الحميدة، وكذلك يفتخر بفتح مكة وانتصار المسلمين على المشركين، وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على نفحة العقيدة الإسلامية التي يفوح أريجها من ثنايا أشعاره.

لم يكن عمر شاعراً فحسب، بل كان ناقداً للشعر أيضاً وقد سبق ذكر قول ابن المسيّب عن عمر رضوان الله عليه أنه كان من أنقد أهل زمانه. فما هي الأسس التي اعمدنا عليها لإعطاء هذا الحكم؟

كان عمر بن الخطاب من المعجبين بشعر زهير بن أبي سلمى، وكان يفضله على معظم الشعراء الجاهليين، وقد أنشدوه يوماً شعراً لزهير منه:

فـإنّ الـحـقّ مـقـطـعُـه ثـلاثٌ   يـمـينٌ أو نـفـارٌ أو جـلاء

فهو يريد أنّ الحقوق إنما تصحّ بواحدة من هذه الثلاث: يمينٌ أو محاكمة أو حجّة بيّنة واضحة، وسمّي زهير «قاضي الشعراء» بهذا البيت. فكان عمر رضوان الله عليه يتعجب من معرفة زهير لمقاطع الحق على أنه جاهليّ وقد جاء الإسلام ووكّد تلك المقاطع[1].

وقال ابن عباس: قال لي عمر بن الخطاب: أنشدني قول زهير. فأنشدتُه قولَه في هَرِم بن سنان بن حارثة حيث يقول:

قـومٌ أبـوهـم سِـنـانٌ حـين تَـنْـسبُـهـم   طابُوا وطابَ من الأفلاذ ما ولَدوا
لـو كـان يُعقـد فوق الشـمـس مِن كَرم   وقومٌ بأوّلهم أو مَجْدهم قَعدوا
جِـنٌّ إذا فَـزِعـوا أُنْـسٌ إذا أَمِـنـوا   مُرَزَّدونَ بـهـالـيـلَ إذا احـتـشـدوا
مُـحَـسَّـدون عـلـى مـا كـان مِـن نِـعـم   لا يَنزع اللّهُ منهم ما لَه حُسدوا

فقال له عمر: ما كان أحبَّ إليّ لو كان هذا الشعر في أهل بيت رسول

---

(1) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 85/1 وانظر البيان والتبيين ـ الجاحظ 133/1 ـوالعقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 281/5، العمدة ـ ابن رشيق 55/1.

الله ﷺ. انظر إلى ضنانة عمر بالشّعر، كيف لم يرَ أحداً يستحق مثل هذا المدح إلاّ أهل بيت محمد عليه الصلاة والسلام[1].

ودخل ابنُ هرم بن سنان على عمر بن الخطاب، فقال له: من أنت؟ قال: أنا ابنُ هرم بن سنان. قال: صاحب زهير؟ قال: نعم. قال: أما إنه كان يقول فيكم فيُحسن. قال: كذلك كنا نعطيه فنُجزل. قال: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم[2].

وعن ابن عباس، قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعض أصحابه يتذاكرون الشعر، فقال بعضهم: فلان أشعر، وقال بعضهم: بل فلان أشعر، قال: فأقبلت، فقال عمر: قد جاءكم أعلم الناس بها، فقال عمر: من شاعر الشعراء يا ابن عباس؟ فقلت: زهير بن أبي سُلمى. فقال عمر: هلمّ من شِعره ما نستدلُّ به على ما ذكرت... وفي رواية أخرى عن ابن عباس أيضاً قال: قال لي عمر: أنشدني لأشعر شعرائكم. قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير. قلت: وكان كذلك! قال: كان لا يُعاظل بين الكلام، ولا يَتْبَعُ وَحشيَّه، ولا يمدحُ الرجلَ إلاّ بما فيه[3].

وهذا يدلنا أن عمر رضوان الله عليه كان على قدر كبير من المعرفة في فنون الشعر. فهو يوضح الأسباب التي جعلته ينظر إلى زهير على أنه شاعر الشعراء، فقد وصفه بالحذق في صناعته، والصدق في منطقه، لأنه لا يحسن في صناعة الشعر أن يُعطى الرجل فوق حقه من المدح، وقد استحسن عمر الصدق لذاته ولما فيه من مكارم الأخلاق.

وبما أنه رضي الله عنه كان أعلم الناس بالشعر، وكان لا يكاد يُعرض له أمرٌ إلاّ أنشد فيه بيت شعر[4]، لذلك لم يُبخس الناس أشياءهم فقد قال عن

---

(1) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 291/5 ـ تاريخ الطبري 223/4.

(2) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 82/1 ـ العقد الفريد 291/5.

(3) طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام 63/1 ـ تاريخ الطبري 223/4 ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 76/1.

(4) البيان والتبيين ـ الجاحظ 133/1.

امرىء القيس أنه: سابَقَ الشعراءَ وخَسَفَ لهم عَيْنَ الشعر، أي حفرها حتى تفجّر فيها الماء. وفضّل النابغة الذبياني على الشعراء غير مرة بقوله إلى وفد غَطَفان: هذا أشعر شعرائكم[1].

هذا هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الشاعر، الناقد، وتلك كانت علاقته بالشعر والشعراء في زمانه، فهو يقبض على زمامه، يأذن له بقدر، ويمنعه عن الانطلاق بقدر، وبذلك بقيت للحياة الأدبية مظاهرُها التي لا تتعارض مع السياسة العامة للدولة الفتيّة. فهو لم يكن يضع للشعر تلك الحدود ويفرض عليه تلك القيود، إلاّ لكونه حاكماً مسؤولاً عن حياطة المجتمع الإسلامي ورعاية المبادىء الإسلامية.

إذا كان هذا موقف عمر رضوان الله عليه من الشعر والشعراء، فكيف كان موقف خلفه عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين؟

ج ـ عثمان بن عفان: (47 ق.هـ ـ 35 هـ = 577 - 656 م):

هو عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف.. من قريش، ولد بعد الفيل بست سنوات. كان يكنّى في الجاهلية أبا عمرو، وفي الإسلام أبا عبد الله، ثالث الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنّة، ولد بمكة وأسلم بعد البعثة بقليل، وكان غنيّاً شريفاً في الجاهلية. زوّجه النبيّ ﷺ ابنته رقيّة وماتت عنده أثناء معركة بدر، فزوجه بعدها أختها أم كلثوم فلذلك كان يلقّب ذا النورين، ثم ماتت هي الأخرى، فقال رسول الله ﷺ، لو كان عندي ثالثةٌ زوجتُها عثمان. وكانت له أعمال عظيمة في الإسلام منها تجهيزه نصف جيش العسرة بماله. صارت له الخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب سنة 23 هجرية، وهو الذي أتمّ جمع القرآن. نقم عليه الناس اختصاصه أقاربه من بني أميّة بالولايات والأعمال، فجاءته الوفود من الكوفة والبصرة ومصر، فطلبوا منه عزل أقاربه فامتنع، فحاصروه أربعين يوماً، وتسوّر عليه بعضهم الجدار فقتلوه صبيحة عيد الأضحى، فعظم ذلك على الصحابة وغيرهم وانفتح باب الفتنة؛ بويع بالخلافة سنة أربع وعشرين هجرية، وقتل سنة خمس وثلاثين

(1) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 68/1 و 94/1 وانظر طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام 56/1.

هجرية، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة[1].

عثمان والشعر: لم تذكر لنا المصادر والمراجع سوى النذر القليل عن علاقة عثمان رضي الله عنه مع الشعر والشعراء، مع أنّ فترة خلافته كانت طويلة نسبيّاً، ومن هذا القليل تبيّن لنا أنه كان ملتزماً بالمنهج العام للعقيدة الإسلامية التي وضّح معالمها الرسول ﷺ والتي سلك طريقها سلفه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب. ولا شكّ أن لكلٍّ منهم شخصيته الأدبية المميّزة، فقد اشتُهر أبو بكر بمعرفة الأنساب، وبعلمه الوافر وحسن مجالسته وبروايته للشعر، واشتهر عمر بالحثّ على تعلّم الشعر، وأنه لم تكن تُعرض له قضية إلاّ تمثل ببيت شعر، أضف إلى أنه كان شاعراً.

أما عثمان بن عفّان رضوان الله عليه فلم يؤثر عنه ذلك الانغماس الكبير في الشعر، أو تلك العلاقة الحميمة مع الشعراء، وإذا كنّا نعرف أن الشعراء كانوا يتهافتون على أبوب الأمراء طمعاً برضاهم وبأعطياتهم، فإننا نرى أن الشعراء، أيام عثمان، يتركون الحواضر ودار الخلافة ويؤثرون العودة إلى البادية. قال مَسْلَمة بن مُحارب:

دخل النابغة الجعديّ على عثمان رضي الله عنه فقال: أستودعك اللّهَ يا أمير المؤمنين. قال: وأين تريد يا أبا ليلى؟ قال: أَلْحَقُ بإبلي فأشرب من ألبانها فإنّي مُنْكِرٌ لنفسي. فقال: أَتَعَرُّباً(*) بعد الهجرة يا أبا ليلى! أما علمتَ أنّ ذلك مكروه؟! قال: ما علمتُه، وما كنتُ لأخرجَ حتى أُعلمَكَ. قال: فأذِنَ، وأجّل له في ذلك أجلاً[2].

من هذه الحادثة نستنتج عدّة أمور منها: أن الشاعر الجعديّ وهو في المدينة أضحى منكراً لنفسه، لماذا؟ هل لأنّ صناعته الشعريّة كاسدة وليس هناك

---

(1) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 53/3 ـ الاصابة ـ العسقلاني 462/2 ـ الاعلام ـ الزركلي 210/4..

(*) تعرّباً: صار أعرابيّاً. وفي الحديث: ثلاث من الكبائر: منها التعرّب بعد الهجرة، وهو أن يعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً.

(2) الأغاني ـ الأصفهاني 9/5

من سوق رائجة لهذه السلعة؟ وهذا ما دفع الشاعر إلى الإحساس أنه يعيش في بيئة غير بيئته؟ والخليفة عثمان رضي الله عنه، لماذا لم يستبقه عنده ويمنعه من السفر؟ يبدو أنهُ لم يكن بحاجة إليه وإلى أمثاله.

ويبدو أن أمير المؤمنين عثمان كان لا يطمئن إلى الشعراء ولا يركن إليهم وبخاصة إذا كان شاعراً عبداً، فقد ذكر صاحب الأغاني:

كان عبد الله بن أبي ربيعة عاملاً لعثمان بن عفان على الجند، فكتب إلى عثمان: إنّي قد اشتريت غلاماً حبشيّاً يقول الشعر. فكتب إليه عثمان: لا حاجة لي إليه، فارْدُدْه، فإنما حظّ أهل العبد الشاعر منه، إن شَبِعَ أن يتشبّب بنسائهم، وإن جاع أن يهجوَهم. فردَّهُ فاشتراه أحدُ بني الحسحاس، وكان أن تشبّب بنسائهم، فقتلوه[1].

كما أن عثمان رضوان الله عليه كان شديداً وحازماً مع الشعراء الذين كانوا يعتدون على حرمات الناس، فقد ورد أن الشاعر ضابىء بن الحارث البرجميّ استعار كلباً من بني عبد الله بن نَهْشل، يُقال له «قُرحان» فكان يصيد به الظِّباء والبقر والضِّباع، فطال مكثُه عنده، فطلبوه فامتنع عليهم، فنافره الأنصاريون، واستغاثوا عليه بقومه فكاثروه، فانتزعوه منه وردّوه على الأنصار، فقال ضابىء شعراً يهجوهم به منه:

فيا راكباً إمّا عرضتَ فبلغنْ ... ثُمامةَ عنّي، والأمورُ تدورُ
فأمُّكُمُ لا تَتْركوها وكَلْبَكُمْ ... فإنَّ عقوقَ الوالداتِ كبيرُ

* * *

إذا عَثَّنَتْ من آخر الليل دُخنةً ... يبيتُ له فوق الفراشِ هريرُ

فاستعدى عليه بنو نهشل، عثمانَ بن عفّان رضي الله عنه، فأرسل إليه فأقدمه، وأنشدوه الشعر الذي قال في أمِّهم، فقال عثمان: ما أعلمُ في العرب رجلاً أفحشَ ولا ألأَمَ منك، وإنّي لأظنُّ لو كان رسول الله ﷺ حيّاً لَنَزَّلَ فيك

(1) الأغاني ـ الأصفهاني 306/22.

قرآن، فحكم عليه بجزّ شَعره وخُمس إبله لبني نهشل وسلّمهم إياه، فحبسوه عند أمّهم الرّباب، فقال ضابيء:

مـن مُـبْـلِـغُ الـفـتـيـانِ عـنّـي رسـالـةً بـأنّـي أسـيـرُ ربّـتـي أمُّ غـالـبِ

فقالت أمُّهم والذي أنا أَمَةٌ له لَيُطْلَقَن. فأطلق. وبعد ذلك التقى ضابيء بأحد أبناء بني نهشل فضربه فشجّه فحبسه عثمان في السجن، فعرض الخليفةُ يوماً أهل السّجن، فخرج ضابيءٌ وقد شدّ سكّيناً على ساقه يريد أن يفتك بعثمان، ففُطِنَ له وأُخِّرَ فضُرِبَ بالسياط وأعيد إلى الحبس. ومما قاله ضابيء في ذلك:

هـمـمـتُ ولـم أفعـلْ وكِـدْتُ ولـيتني تركتُ على عثمان تبكي حَلائلُهْ

فلم يزل ضابيء في السجن حتى مات فيه[1].

وهناك روايات تدل على أن عثمان رضي الله عنه كان يتذوّق الشعر ويحبّ الإستماع إلى الأشعار التي تروي مآثر العرب، من تلك الروايات ما ذكره ابن سلام في طبقاته وهو يتحدث عن أبي زبيد الطائي واسمه حَرْمَلَة بن المنذر، وترتيبه في الطبقة الخامسة من الشعراء الإسلاميين، حيث يقول: كان أبو زُبيد الطائيّ من زوّار الملوك، وخاصة ملوك العجم، وكان عالماً بِسِيَرِهم، وكان عثمان بن عفّان يُقرِّبُه على ذلك ويُدْني مجلسه، وكان نصرانيّاً، فحضر ذات يوم عثمانَ وعنده المهاجرون والأنصار، فتذاكروا مآثر العرب وأشعارَها، فالتفت عثمان إلى أبي زُبَيد فقال: يا أخا تُبَّعِ المسيح، أسمعنا بعض قولك، فقد أُنْبِئْتُ أنّك تجيد، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

مَـنْ مُـبْـلِـغٌ قَـوْمِـيَ الـنّـائينَ إذ شَـحَـطُـوا أنّ الـفـؤادَ إلـيـهـم شَـيِّـقٌ وَلِـعُ[2]

نستنتج من هذه الرواية أن عثمان رضوان الله عليه كان يحب الاستماع إلى الشعر، ويبدو أنه كان يتذوقه، فهو على دراية به، لذلك يغتنم الفرص

(1) كتاب النقائض ـ أبو عبيدة البصري 219/1 مكتبة المثنى بغداد ـ الأصمعيات ص 179 ـ تحقيق شاكر وهارون ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 182/3.

(2) طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلاّم 594/2 وانظر الأغاني ـ الأصفهاني 127/12 ـ معجم الأدباء ـ ياقوت 193/10 ـ دار المستشرق بيروت.

ليجلس مع أصحابه يتذاكرون مآثر العرب وأشعارهم، والمآثر تدل على الصفات الحسنة ومكارم الأخلاق، فهو إذن يستحسن هذه الأنواع من الشعر والتي تقرّها الشريعة الإسلامية.

واللافت هنا أيضاً أن أبا زبيدة شاعر نصراني، فقد رأينا عثمان وهو أمير المؤمنين، وفي عهده كان الإسلام في أوج فتوّته، فهو يقرّب أبا زبيدة ويُدني مجلسه ويلاطفه ويمدحه بأنه جيّد الشعر ويطلب منه أن يُسمعه شيئاً من شعره والصحابة من المهاجرين والأنصار يتقبّلون ذلك بطيبة خاطر، وكأنّ أبا زبيد واحد منهم، فليس هناك من حرج، وليس هناك من عصبية، الخلق كلّهم عيال الله أحبهم إليه أنفعهم لعياله.

أمّا صاحب كتاب العمدة فهو يؤكد أن عثمان رضي الله عنه كان شاعراً ويذكر له من شعره هذين البيتين:

غَنِيُّ النفسِ يُغْني النّفْسَ حتى يَكُفَّها وإن عَضَّها حتى يَضُرَّ بها الفقرُ

وما عُسْرَةٌ، فاصبِرْ لها إن لقيتها، بِكائِنَةٍ إلاّ سيتبعُها يُسْرُ[1]

ونلاحظ هنا أن هذا الشعر يتضمّن معنىً قرآنياً: إنّ مع العسر يُسراً، وهذا ليس غريباً على الخليفة المسلم، الذي نشأ وترعرع في أحضان محمد ﷺ، فهو يعاقب على شعر الهجاء والذي يتعارض وأحكام الشريعة الإسلامية، ويُثني على الشعر الحسن ويحبّ الاستماع إليه وليس هناك ما يمنعه من قول الشعر، وكل ذلك ضمن المفاهيم الإسلامية، إذا كان هذا موقف الخليفة الراشديّ الثالث من الشعر والشعراء فكيف كان موقف الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنهما؟

د ـ علي بن أبي طالب: (23 ق.هـ ـ 40 هـ = 600 - 661م).

علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي، يكنّى أبا الحسن، أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين، ابن عمّ الرسول ﷺ وصهره، أحد الشجعان الأبطال، من أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، أول الناس

(1) العمدة ـ ابن رشيق 34/1.

إسلاماً بعد خديجة، ولد بمكة ونشأ في حجر النبي ولم يفارقه، ولّيَ الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان سنة 35هـ. انقسم المسلمون في عهده إلى ثلاثة أقسام: قسم حافظ على بيعته بالخلافة، وقسم بايع لمعاوية بن أبي سفيان، والقسم الثالث اعتزل الاثنين ونقم عليهما وهم الخوارج. أقام عليّ بالكوفة ـ (دار خلافته) إلى أن قتله غيلة: عبد الرحمن بن ملجم المرادي، وقُبض ليلة الأحد لإحدى وعشرين ليلة مضت من شهر رمضان سنة أربعين هجرية، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر[1].

علي والشعر: قال ابن عبّاس: قُسم علمُ الناس خمسة أجزاء، فكان لعليّ منها أربعة أجزاء ولسائر الناس جزء شاركهم عليّ فيه، فكان أعلمهم به[2]. هذا القول يدل على أن الخليفة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه كان أعلم أهل زمانه. وقال سعيد بن المسيّب: كان أبو بكر شاعراً، وعمر شاعراً، وعليٌ أشعر الثلاثة[3]. وابن المسيّب هنا يشهد لعليّ بتفوقه بالشعر على صاحبيه. وذكر صاحب العمدة: قال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: الشعر ميزان القول، ورواه بعضهم: الشعر ميزان القوم[4]. وقال صاحب الروائع: نُسب إلى علي ديوان يحتوي على نحو 1500 (ألف وخمسمائة) بيت في الزهد والابتهالات والحكم، وهو بالإجمال ضعيف الصنعة، عزاه بعض العلماء إلى الشريف الرضي جامع «نهج البلاغة»... الخ. فهو ينفي نسبة الديوان إلى علي، وبالتالي فهو لا يرى أنه كان لعلي شاعرية ويستند في ذلك إلى أسباب منها ما ذكره ياقوت في معجم الأدباء عن أبي عثمان المازني أنه لم يصح أن علياً تكلم من الشعر بشيء غير بيتين[5].

يبدو من خلال ما ذكرناه أنه يوجد ستار كثيف على آثار عليّ بن أبي

---

(1) مقاتل الطالبيين ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص 41 ـ مروج الذهب ـ المسعودي 414/2، الأعلام ـ الزركلي 295/4، الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 38/3وانظر الاصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني 507/2، والتنبيه والأشراف ـ المسعودي ص 255.

(2) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 399/3.

(3) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 283/5 وانظر البداية والنهاية ـ ابن كثير 8/8.

(4) العمدة ـ ابن رشيق 28/1.

(5) الروائع ـ فؤاد أفرام البستاني ص 12 وانظر معجم الأدباء ـ ياقوت الحموي 43/14.

طالب كرّم الله وجهه وقد يعود ذلك لأسباب عدة منها الخلافات السياسية في عهد معاوية بصورة خاصة وفي عهد الأمويين بصورة عامة، إذ كان من مصلحتهم العمل على محو جميع مناقب الإمام علي. وكذلك الشعوبيون والمنافقون الذين يهمهم التشكيك في المستوى الثقافي للخلفاء، وتضخيم المثالث والإغضاء عن المناقب.

إن أخبار عليّ رضوان الله عليه كثيرة وفضائله شهيرة، ومهما حاولنا نظل مقصرين في استيعاب محاسنها. وهو لا يختلف موقفه عن مواقف سلفه من الخلفاء الراشدين فيما يتعلق بالشعر والشعراء، فكلّهم يستقون من كتاب الله وسنّة رسوله، إنما كان الاختلاف في البيئة الاجتماعية، وانقسام المسلمين فيما بينهم في عهده، وانهماكه في الحروب الداخلية: معركة الجمل، ومعركة صفين ومعركة نَهْرَوَان مع الخوارج، وما نتج عن تلك الحروب من عشرات الألوف من القتلى، كل ذلك كان له تأثير على الشعر والشعراء. فما هو تأثير ذلك على الخليفة عليّ رضوان الله عنه؟ كيف كانت علاقته بالشعر؟ وهل له آثار شعرية؟ وما هي الموضوعات التي طرقها في نظمه؟ للإجابة على تلك التساؤلات نقول:

لم يكن عليّ رضي الله عنه بعيداً عن ميدان الشعر، فهو على اطلاع على نتاج الشعراء الجاهليين، فقد سُئل من أشعر الشعراء؟ قال: إنّ القومَ لم يَجْرُوا في حلْبةٍ تُعرفُ الغايةُ عند قَصَبَتِها. فإن كان ولا بُدَّ فالملكُ الضِّلِّيل، يريد امرأ القيس. وكأنه يريد القول: إن الشعراء جميعهم لم يجتمعوا في سباق للوصول إلى غاية واحدة حتى إذا سبق سابقٌ يُعرف من هو، أي لم يكن كلامهم في مقصد واحد، بل ذهب بعضهم مذهب الترغيب، وآخر مذهب الترهيب، وثالث مذهب الغزل والتشبيب. وفي رواية أخرى لابن رشيق تتوضح لنا المقدرة النقدية عنده بقوله: فإذا لم يكن فالذي لم يقل لرغبة ولا لرهبة. فقيل ومن هو؟ فقال: الكندي، لأنّي رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة. فهو يعلّل سبب تفضيله له[1].

(1) نهج البلاغة 104/4، وانظر العمدة ـ ابن رشيق 42/1.

ويبدو أنه عليه السلام كان كثيراً ما يتمثل بالشعر في خطبه وكتاباته وأحاديثه وهذا دليل على تقديره للشعر، ومدى تأثيره في نفوس السامعين، فقد ورد في العديد من ذلك منها:

في خطبة له عليه السلام بعد نتيجة التحكيم في معركة صفين، هو يلوم فيها أصحابه الذين أوقفوا القتال في صفين مخالفين رأيه، واختيارهم أبي موسى الأشعري مخالفين رأيه أيضاً وهو اختار لذلك عبد الله بن عباس أو الأشتر النخعي، منها قوله: «كما قال أخو هوازن:

أَمَرْتُكُمُ أمري بمنعرجِ اللّوى فلم تَسْتَبينوا النُّصْحَ إلاّ ضُحى الغدِ[1]

ومن كتاب إلى أخيه عقيل: ولا تَحْسَبَنَّ ابنَ أبيكَ ـ ولو أسْلَمَهُ الناسُ ـ متضرّعاً مُتخشّعا ولكنه كما قال أخو بني سليم:

فإن تسألِيني كيفَ أنتَ فإنّني صبورٌ على رَيْبِ الزّمانِ صليبُ
يَعِزُّ عليَّ أن تُرى بي كآبةٌ فَيَشْمَتَ عادٍ أو يُسَاءَ حبيبُ[2]

وهذا يدل على صبره وجلده وشجاعته وشدة اعتداده بنفسه. وفي هذا المجال أيضاً ما ذكره الطبري من حديث كان بين ابن عباس وعليّ رضي الله عنه بشأن معاوية: فقال ابن عباس: وأنا أُشيرُ عليك بأن تُثْبِتَ معاوية، فإن بايَعَ لك، فَعَلَيَّ أن أقلِعَهُ من منزله. قال عليّ: لا والله، لا أعطيه إلاّ بالسيف، ثم تمثّل بهذا البيت:

ما ميتةٌ إن مُتُّها غيرَ عاجزٍ بِعارٍ إذا ما غالتِ النفسَ غولُها[3]

هذه نماذج لتمثل أمير المؤمنين عليّ رضوان الله عليه بأشعار الآخرين. والآن سنتعرّف إلى شعره المنثور في ثنايا أمهات الكتب.

عليّ الشاعر: سبق أن أشرنا إلى الاختلاف في الآراء حول ما نُسِبَ إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من أشعار، وهذا الاختلاف لا يقلّل من

---

(1) نهج البلاغة 86/1.
(2) نهج البلاغة 62/3.
(3) تاريخ الطبري 441/4.

شاعريته المتمثّلة فيما رجّحت نسبته إليه، إنما يبدو أن الشعر لم يكن غايتُه، فلم يلتفت إلى صناعة الشعر وروايته، ومع ذلك فقد اشتُهر له شعر كثير منه ما قاله بصفّين:

لمن رايةٌ سوداء يخفق ظلُّها ... إذا قيلَ قدِّمْها حُضَيْنُ تقدَّما

فيوردها في الصفّ حتى يَرِدْ بها ... حياضَ المنايا تقطُرُ الموتَ والدّما[1]

* * *

وذكر ابن رشيق: ومن شعر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وكان مجوِّداً، ما قاله يوم صفِّين يذكر همْدان ونصرهم إياه:

لما رأيتُ الخيلَ ترجمُ بالقنا ... نواصيُّها حُمْرُ النُّحورِ دوامي

وأعرضَ نقعٌ في السماء كأنّه ... عجاجةُ دَجْنٍ مُلْبَسٍ بقَتَامِ

وهي مقطوعة تتألف من سبعة أبيات إلى أن يقول في البيت الأخير:

ولو كنتُ بَوّاباً على باب جنةٍ ... لقلتُ لهمْدانَ: ادخلوا بسلام[2]

واللافت هنا قول ابن رشيق: «وكان مجوِّداً». فهو يؤكد هنا جودة شعر عليّ رضوان الله عليه.

ويُروى عنه أنه قال بعد وفاة زوجته فاطمة رضي الله عنها:

أرى عِلَلَ الدنيا عليَّ كثيرةً ... وصاحبُها حتى المماتِ عليلُ

لكلِّ اجتماعٍ من خليلينِ فُرْقةٌ ... وإنّ الذي دُون الممات قليلُ

وإنَّ افتقادي فاطماً بعد أحمدٍ ... دليلٌ على ألا يدومَ خليلُ[3]

فبيناً كنّا نسمع قرقعة الحرب ونحن نقرأ شعر عليّ في معركة صفين، إذ بنا نشعر بالأسى والحزن في هذا الشعر الذي ينطوي على الزهد في الحياة والمرارة على فقدان أحب حبيبين بالنسبة إليه: الرسول ﷺ وابنته فاطمة، كما

(1) العمدة ـ ابن رشيق 34/1، زهر الآداب ـ القيرواني 82/1العقد الفريد، ابن عبد ربّه 283/5.

(2) العمدة ـ ابن رشيق 34/1.

(3) زهر الآداب ـ القيرواني 82/1.

أنه ينطوي على حِكَم: «لكلّ اجتماعٍ من خليلين فرقة».

وذكر ابن كثير، أنّ معاوية كتب إليّ عليّ يذكر له فضائله الكثيرة، فانفعل، ثم قال: اكتب يا غلام:

محمّدٌ النبيُّ أخي وصهري	وحمزةُ سيّدُ الشهداءِ عمّي
وجعفرٌ الذي يُمسي ويُضحي	يطيرُ مع الملائكة ابنُ أمّي
وبنتُ محمّدٍ سكني وعرسي	مسوطٌ لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمدٍ ولدايَ منها	فأيُّكمُ له سهمٌ كسهمي
سبقتكمُ إلى الإسلامِ طُرّاً	صغيراً ما بلغتُ أوانَ حِلمي

قال: فقال معاوية: اخفوا هذا الكتاب لا يقرأه أهل الشام فيميلون إلى ابن أبي طالب[1].

ويذكر صاحب البداية والنهاية العديد من المقطوعات الشعرية وينسبها إلى الإمام عليّ كرّم الله وجهه، وهي بمجملها تنطوي على حِكم ويبدو الأثر الإسلامي جليّاً فيها، منها قوله:

إذا اشتملتْ على الناسِ القلوب	وضاقَ بما بهِ الصدرُ الرحيبُ
أتاكَ على قنوطٍ منكَ غوثٌ	يمنُّ بهِ القريبُ المستجيبُ[2]

* * *

في هذا الشعر تبدو الآثار القرآنية جلية ففي الشطر الثاني من البيت الأول تتلاءم الألفاظ مع الآية الكريمة: ﴿**ويضيقُ صدْري ولا ينطلقُ لساني**﴾[3] وفي الشطر الثاني من البيت الثاني نلاحظ أنه من وحي الآية القرآنية: ﴿**وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ**﴾[4].

ويُنسب إليه أيضاً قوله:

---

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 8/8.

(2) البداية والنهاية ـ ابن كثير 10/8.

(3) سورة الشعراء ـ الآية 13.

(4) سورة البقرة ـ الآية 186.

ألا فاصبرْ على الحدثِ الجليلِ وداوِ جَواكَ بالصبرِ الجميلِ

* * *

فإنَّ العسرَ يتبعُه يسارٌ وقَوْلَ اللّهِ أصدقُ كلِّ قيلِ[1]

وفي هذه الأبيات تتجلّى أيضاً المعاني الاسلامية والألفاظ القرآنية، حيث أن ألفاظ البيت الأول تتلاءم مع الآية الكريمة: ﴿فاصبرْ صبراً جميلاً﴾[2]. والشطر الأول من البيت الثاني تتلاءم ألفاظه مع الآية القرآنية: ﴿فإنّ مع العسرِ يُسْراً﴾[3]. والشطر الأخيرُ مستوحى من الآية الكريمة: ﴿ومنْ أصدقُ مِنَ اللّهِ قيلاً﴾[4].

واللافت أنه نُسب لعليّ رضوان الله عليه الكثير من الأراجيز، وردت في ثنايا الكتب مجملها في الحرب منها:

يا لَهفَ نفسي على رَبيعهْ ربيعةَ السامِعَةِ المطيعَهْ
قد سَبَقَتْني فيهمُ الوَقيعَهْ دعا عليٌّ دعوةً سميعَهْ
حلّوا بها المنزلة الرّفيعَهْ[5]

ويوم «خيبر» وقد برز إليه «مُرَحّب» اليهودي وهو يقول:

قد علمت خيبر أنّي مرحّب شاكي السلاح بطلٌ مجرّب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه عليٌ عليه السلام وهو يقول:

أنا الذي سمّتني أمي حيدره كليث غابٍ في العرين قسوره
أكيلكم بالصاع كيل السندره[6](*)

---

(1) البداية والنهاية ـ ابن الأثير 10/8.
(2) سورة المعارج ـ الآية 5.
(3) سورة الشرح ـ الآية 5.
(4) سورة النساء ـ الآية 122.
(5) تاريخ الطبري 481/4.
(6) مقاتل الطالبيين ـ الأصفهاني ص 25.
(*) السندره: مكيال كبير.

عليّ يعطي على الشعر: يُروى أن أعرابيّاً وقف على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إنّ لي إليك حاجة، فرفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدتُ الله وشكرتك، وإن أنت لم تقضها حمدتُ الله تعالى وعذرتك. فقال له عليّ: أكتب حاجتك على الأرض فإنّي أكره أن أرى ذلّ السؤال في وجهك. فكتب الأعرابيّ على الأرض «إنّي فقير محتاج». فقال عليّ: يا قنبر، إدفع إليه حلّتي الفلانية. فلما لبسها الرجل، أنشأ يقول:

كسوتني حُلّةً تبلَى محاسنُها ... فَسَوْفَ أكسوكَ من حسنِ الثّنا حُللا

إنْ نلتَ حسنَ ثنائي نلتَ مكرمةً ... ولستُ أبغي بما قد قلتُه بدلا

إنّ الثناءَ ليحيي ذكرَ صاحبه ... كالغيثِ يُحيي نداهُ السهلَ والجبلا

لا تزهدِ الدهرَ في عرفٍ بدأتَ به ... فكلُّ عبد سيجزى بالذي فعلا

فقال علي: يا قنبر اعطه مئة دينار، أما الحلّة فلمسألتك وأما الدنانير فلأدبك. فدفعها إليه. فقال الأصبغ بن نباته: يا أمير المؤمنين، حلّة ومئة دينار؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنزلوا الناس منازلهم». وهذه منزلة هذا الرجل عندي[1].

وهكذا رأينا أمير المؤمنين لما استساغ هذا الشعر وأعجبه، زاد في أعطية الأعرابي، مستنداً في ذلك إلى توجيهات الرسول ﷺ.

إن أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه من أفصح العرب وأعلمهم وهذا ما اعترف به أخصامُه وأحبابُه، ومما ذكره «ضرار بن ضمرة» عنه وهو يصفه عند معاوية: «يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه» [2]. وذكر ياقوت: كان أولَ من وضعَ النحوَ وسنَّ العربيةَ وألقاه إلى أبي الأسود الدّؤليّ[3]. ومع ذلك يبدو لنا أنّ الشعر لم يكن غاية عنده، وأنّ الأحداث الجسام التي حصلت في عهده لم تسمح له بالالتفات إلى الشعر وصناعته، وإنما كانت تتفجّر شاعريته في بعض المناسبات، وكان يرتاح لسماع الحسن منه ويجزي عليه.

---

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 9/8 ـ العمدة ـ ابن رشيق 29/1.

(2) مروج الذهب ـ المسعودي 421/2 ـ زهر الآداب ـ القيرواني 78/1.

(3) معجم الأدباء ـ ياقوت الحموي 42/14.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ج ـ مظاهر الشعر وأغراضه

يحسن بنا، قبل أن نتعرض إلى مظاهر الشعر الإسلامي وأغراضه في عصر صدر الإسلام، أن نتعرف إلى حال الشعر بوجه عام في العصر الجاهلي، وأن نبيّن ما أصابه من ضمور أو ازدهار.

من المعروف أنّ الشعر الجاهلي في كثرته الغالبة كان قبليّاً يستوحي في أغراضه وفنونه نزعة العصبية القبلية ويهتدي بهديها، فلما جاء الإسلام أدرك خطر هؤلاء الشعراء على كيان الدولة الناشئة،كان لا بدّ من أن يقف منهم موقف المناهضة وأن ينفّر الناس من الشعر القبلي المثير للضغائن والأحقاد.

والشائع بين الناس أن الإسلام كان سبباً في انصراف الناس عن الشعر وروايته، من هؤلاء ابن سلام الذي قال: فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب (أي عن الشعر) وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولَهَتْ عن الشعر وروايته[1]. وتبعه ابن خلدون في هذا الرأي حيث يقول: ثم انصرف العرب عن ذلك (عن الشعر) أوّل الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوءة والوحيِ وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقرّ ذلك وأُونِسَ الرُّشْدُ من المِلَّةِ، ولم ينزل الوحيُ في تحريم الشعر وحظْره، وسمعه النبيّ ﷺ وأثابَ عليهِ، فَرَجعوا حينئذٍ إلى دَيْدَنِهِم منه»[2].

صحيح أن الشعر الجاهلي قد ضاع قسم كبير منه، ولكن السبب في ذلك كثرة الحروب والقتل مما أدّى إلى هلاك قسم كبير من الرواة، أضف إلى ذلك انفتاح أرض الله الواسعة أمام المسلمين حيث انتشر قسم من أولئك الرواة والشعراء، واستقرّوا في تلك الأصقاع منشغلين عن الشعر بما تطلّبته حياتُهم الجديدة من أعباء. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنّ ميدان الشعر بفضل تلك الفتوحات، لم يترك البادية تماماً، إنما امتد ونشط في أكثره في الحواضر ولا سيما حواضر الحجاز حيث مكة (مهد الدعوة الإسلامية وموطن قريش) والمدينة

(1) طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام الجمحي 25/1.

(2) المقدمة ـ ابن خلدون ـ ص 581.

(يثرب موطن الأنصار ثم مهد دولة الرسول ﷺ وعاصمة الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين)، وحواضر الشام (حيث دمشق قاعدة الخلافة الأموية)، وأخيراً العراق (حيث مقر الشيعة والمعارضة والأجناس المتباينة من فرس وغيرهم) والكوفة والبصرة (أهم مواطن الثقافة).

إن الإعراض الذي لاقاه الشعر في صدر الإسلام، لم يكن بسبب كره الإسلام له، وإنما بسبب التطوّر الذي طرأ على حياة العرب، فغيّرها من جميع الوجوه. وهناك ظاهرة هامة يجب الانتباه إليها وهي أن الشعراء في العصر الجاهلي كانوا يخوضون في أعراض الناس على هواهم وليس ثمة سلطان يردعهم عن إيذاء الناس بهجائهم، فلما قامت الدولة الإسلامية منعت الشعراء من التصدي لهجاء الناس درءاً للفتنة، وعاقبت كلَّ من يقدم على ذلك، لذلك انحسر الشعر المتصل بتلك الأغراض، وانصرف قسم منهم إلى أغراضٍ أخرى من الشعر، وضعف وَلاَنَ عند آخرين، ربما لتأثير الدين الإسلامي على نفوسهم وبالتالي لتقدمهم في السنّ وانصرافهم إلى العبادة أمثال: لبيد وحسان وغيرهما.

وبما أنّ الدين الاسلامي كان قد تخلّل مختلف مناحي الحياة الخاصة والعامّة عند أولئك المؤمنين، فلا شك أن أحكامه وتشريعاته هي التي كانت تحكم الشعر وأغراضه المتنوعة وتوجهه في الطريق التي يقرّها الاسلام.

فالإسلام كدين لم يقف حائلاً دون نظم الشعر وروايته، وإنما عمل على تحويل مجرى أفكار المؤمنين عن الفنون والأغراض الشعرية المنحرفة عن سنن الشرف والحق، كالتشبيب والغزل الفاحش والمدح الباطل، والهجاء المقذع. ولاحظنا أن الرسول ﷺ قد استمع إلى الشعر وحث على قوله في مجالات معيّنة، وكذلك الخلفاء الراشدون ومعظمهم كما رأينا كانوا من الشعراء، ربما يمكننا القول: إنّ الإسلام كان سبباً في تنشيط الحركة الشعرية في صدر الإسلام، ونتج عن ذلك مظاهر وأغراض نوردها فيما يلي:

1 ـ مظاهر الشعر الإسلامي

تأثر الشعراء في عصر صدر الإسلام بالقرآن وحديث الرسول لذلك نرى في آثارهم الشعرية المعاني الإسلامية وبعض الألفاظ القرآنية منها ما ذكره العسقلاني حيث يقول:

كان (ضرار بن الأزور بن مرداس) الأسدي، فارساً شجاعاً وشاعراً مطبوعاً، استشهد يوم اليمامة، وقيل بعد ذلك، وقد أتى النبيّ فأنشده:

خلعتُ القِداحَ وعزفَ القِيا نِ والخمرَ أشربُها والثّمالا

* * *

وكري المجبر في غمرة وجهدي على المشركين القتالا
وقالت جميلةُ بدّدْتَنا وطرحتَ أهلك شتّى شمالا
فيا ربُّ لا أُغبَنَنّ صفقةً فقد بعتُ أهلي ومالي بَدالا[1]

الواضح من كلام ضرار أنه يخبر النبي بتركه لعب الميسر، وشرب الخمر، والبعد عن أماكن اللهو، وهذا تنفيذ لأمر الله في الآية الكريمة: **﴿يا أيّها الذين آمنوا إنّما الخمرُ والميسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوه لعلّكم تُفلحون﴾**[2]. وأنه نذر نفسه لقتال المشركين والجهاد في سبيل الله وباع نفسه وأهله وماله في سبيل الله، بأنّ له الجنّة. وهذا تنفيذ لأمر الله في الآية الكريمة: **﴿إنّ اللّهَ اشترى من المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنّة﴾**[3] الخ.

إنّ ضرار بن الأزور شاعرٌ حديث العهد بالإسلام ومع ذلك نلاحظ النفحات الإسلامية تفوح من شعره، كما اننا بدأنا نسمع بألفاظ جديدة الاستعمال لها تعاريف إسلامية أمثال كلمةُ المشركين الواردة في هذا الشعر.

ويُنسب إلى (سحيم) عبد (بني الحسحاس) وهو شاعر مخضرم، قوله:

ودِّعْ سليمى إن تجهّزت غادياً كفى الشيبُ والاسلامُ للمرء ناهياً[4]

وقال (عديّ بن عمرو بن سويد) الأعرج الطائي، وهو مخضرم أيضاً:

تركتُ الشعرَ واستبدلتُ منه إذا داعي صلاةِ الصبح قاما

---

(1) الاصابة ـ العسقلاني 208/2.
(2) سورة المائدة ـ الآية 90.
(3) سورة التوبة ـ الآية 113.
(4) الاصابة ـ العسقلاني 110/2 رقم 3664.

كـتـابَ الله لـيـس لـه شـريـكٌ ... وودّعـتُ الـمـدامـةَ والـنـدامـى

وحـرّمـتُ الـخـمـورَ وقـد أرانـي ... بـهـا سـدكـاً وإن كـانـت حـرامـا[1]

و(شداد بن عارض الجشمي) كان شاعراً مشهوراً، ولما سار رسول الله ﷺ إلى الطائف قال شداد في ذلك:

لا تـنـصـروا اللاتَ إنّ اللّهَ مُهْلِكُـهـا ... وكيف يُنصر من هو ليس ينتصرُ

إن الـرسـولَ مـتـى يـنـزلْ بـلادَكُـمُ ... يظعنْ وليس بهَا من أهلها بشرُ[2]

هذا غيض من فيض مما نجده في شعر الشعراء المخضرمين من مظاهر إسلامية، إذ انّ العقيدة الاسلامية سيطرت على أحاسيس المؤمنين ومشاعرهم وبفترة وجيزة من الزمن وتمكنت من تبديل الكثير من العادات الفاسدة التي كانت منتشرة في العصر الجاهلي، ليحلّ محلّها عادات جديدة وقيم سامية عالية كان لها الأثر الكبير في تطوير الفرد والمجتمع في البيئة العربية، وأضحى لها شأنها على الإنسانيّة. كلها مصداقاً لقوله تعالى: **﴿كنتم خير أمّةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾**.

2 ـ أغراض الشعر الإسلامي:

إنّ أغراض الشعر في صدر الإسلام كانت متعدّدة، منها ما كان مألوفاً، ومنها ما كان جديداً، ومن أهم تلك الأغراض ما يلي:

أ ـ الوعظ ونشر العقيدة: قال الصَّلْصال بن الدَّلَهْمَس بن جندلة:

تَـجَنَّـبْ خـلـيـطاً مِـن مقـالِـكَ إنّـمـا ... قَرِينُ الفتَى في القبرِ ما كان يفعلُ

ولا بـدَّ بـعـد الـمـوتِ مـن أن تَـعُـدَّهُ ... لـيـومٍ يُـنـادى الـمـرءُ فـيـه فَـيُـقْـبِـلُ

وإن كـنـتَ مـشـغـولاً بشـيءٍ فلا تـكـنْ ... بغيرِ الذي يَرْضَى به اللّهُ تُشْغَلُ

ولـن يـصـحـبَ الإنسانَ من قبلِ موتِه ... ومِنْ بَعْدِه إلاّ الذي كان يعملُ

ألا إنّـمـا الإنـسـانُ ضـيـفٌ لأهـلـهِ ... يُـقـيـمُ قـلـيـلاً بَـيْـنَـهُـمْ ثـم يـرحـلُ[3]

---

(1) معجم الشعراء ـ المرزباني ص 251.

(2) الاصابة ـ العسقلاني 141/2 رقم 3852. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 906/9.

(3) الاصابة ـ العسقلاني 193/2 رقم 4098.

قال الصّلصال هذه الأبيات من الشعر لوفد من بني تميم وكان الرسول ﷺ حاضراً، وإننا نلاحظ في البيت الأول الحثّ على الصدق والتحذير من عذاب القبر حيث لا ينفع الإنسان إلاّ عمله الصالح، وفي البيت الثاني يحذر من البعث والحساب، وفي البيت الثالث يحضّ الانسانَ على تقوى الله والعملِ بما يرضي الله عزّ وجلّ، وفي البيت الرابع ينبّه إلى أنّ مَنْ عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ولن يفيد الانسان إلا عمله في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وفي البيت الأخير يشبه وجود الإنسان في الحياة كوجود الضيف يمكث قليلاً ثم يرحل. وهكذا نلاحظ أن العقيدة الإسلامية متأصلة في نفس هذا الشاعر وأنه يسعى لإقناع الآخرين بتعاليم الإسلام، ويعظهم لاتباع تلك التعاليم قبل فوات الأوان.

ومن قصيدة للنابغة الجعدي الصحابي قوله:

الـحـمـدُ لله لا شـريـكَ لـه	من لم يَقُلْها فنفسَهُ ظَلَمَا
المولجُ الليلَ في النهارِ وفي	الليلِ نهاراً يفرّجُ الظّلما
الخافضُ الرافعُ السماءِ على الـ	أرضِ ولم يبنِ تحتها دِعَما
الخالقُ البارىء المصوّرُ في الـ	أرحامِ ماءً حتى يصيرَ دما
من نطفةٍ قدّها مقدّرُها	يخلقُ منها الأبشارَ والنّسَما(*)
ثمّ عظاماً أقامها عصبٌ	ثُمّتَ لحماً كَساهُ فالتأما

* * *

يا أيّها الناسُ هل ترون إلى	فارسَ بادتْ وخدُّها رُغِما
أمسَوْا عبيداً يرعونَ شاءَكُمُ	كأنّما كان مُلْكُهم حُلُما(1)

* * *

وهكذا نرى الشاعر الإسلامي الصحابي ينظم مواعظه شعراً وهذا دليل آخر على أن الاسلام والرسول ﷺ لم يقفا حائلاً دون نظم الشعر، وملاحظة ثانية هي أن كتاب الله قد ملك حواس هؤلاء الناس، وما ينظمونه من شعر ليس

(*) الأبشار: جمع بشرة وهي الجلد. النّسم: الخلْق والناس.

(1) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 212/1 وانظر خزانة الأدب ـ البغدادي 4/4 ـ دار صادر ـ بيروت.

إلاّ ترجمة حرفية لآيات القرآن الكريم، فالبيت الأول كأنّه ترداد للآية الكريمة: ﴿وإذْ قال لُقْمانُ لابنه وهو يعظُهُ يابنيَّ لا تُشرِكْ باللّهِ إنَّ الشِّركَ لظُلمٌ عظيم﴾[1]. والبيت الثاني ما هو إلاّ صدىً للآية الكريمة: ﴿تولجُ الليلَ في النهارِ وتولجُ النهارَ في الليل..﴾[2]..والبيت الثالث يتلاءم مع الآية القرآنية: ﴿خَلَقَ السمٰواتِ بغيرِ عَمَدٍ ترونَها وألْقَى في الأرضِ رَوَاسِيَ..﴾[3] وهكذا البيت الرابع، ما هو إلاّ ترداد للآية الكريمة: ﴿هو اللّهُ الخالقُ البارىءُ المصوِّرُ﴾[4]. ثم ينتقل النابغة الجعدي إلى خلق الإنسان متأثراً بمضمون الآية الكريمة: ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ من سلالةٍ من طينٍ * ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مكينٍ * ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقةَ مُضْغَةً، فخلقنا المضغَةَ عظاماً، فكَسَوْنا العظامَ لحماً، ثم أنشأناهُ خلقاً آخرَ فتبارك اللّهُ أحسنُ الخالقينَ﴾[5].

وهكذا نرى الشاعر الإسلامي يعظنا ويحثنا على التفكير في آيات الله في هذا الكون البديع، فهو الله الواحد الأحد لا شريك له، خلق لنا الليل والنهار يلج أحدهما في الآخر، ورفع السماء بغير عمد وبسط الأرض، ثم انتقل يدفعنا إلى التفكير بعملية خلق الإنسان، وأخيراً يذكّرنا بالأمم السالفة التي بادت وكانوا أعزة فأصبحوا أذلّة حينما كفروا بنعمة الله، ونحن لا شك سيكون لنا نفس المصير فاتّعظوا يا أولي الألباب.

وأبو قيس صِرْمة بن أبي أنس، قدِمَ رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه. وهو شيخ كبير وهو الذي يقول:

* * *

يا بَنيَّ الأرحامَ لا تقطعوها ... وَصِلُوها قصيرةً من طِوالِ
واتقوا اللّهَ في ضِعافِ اليتامى ... ربّما يُسْتحَلُّ غيرُ الحلالِ

* * *

(1) سورة لقمان ـ الآية 14.
(2) سورة آل عمران ـ الآية 27.
(3) سورة لقمان ـ الآية 11.
(4) سورة الحشر ـ الآية 24.
(5) سورة المؤمنون ـ الآية 12 وما بعدها.

ثم مالَ اليتيم لا تأكُلوه … إنّ مالَ اليتيمِ يرعاهُ والي

يا بَنيَّ التخومَ لا تَخْزِلوها … إنّ خزلَ التُّخومِ ذو عُقّالِ(*)

يا بنيَّ الأيامَ لا تأمَنُوها … واحذروا مكْرَها ومرَّ الليالي

* * *

واجمعوا أمْرَكم على البرّ والتقوى … وترك الخَنا وأخذ الحلالِ[1][2]

إن أبا قيس يعظ أبناءه وكذلك جميع الناس بالمحافظة على صلة الأرحام، والمحافظة على أموال اليتامى، وعدم ظلم الجار، وعدم الاطمئنان إلى صروف الدهر، ثم يطلب أخيراً التعاون على البر والتقوى والبعد عن الفحشاء والاعتماد على الحلال. وجميع هذه العظات هي من ضمن العقيدة الإسلامية والوحي القرآني.

هذه بعض النماذج عن الوعظ والإرشاد عند الشعراء في بداية العهد الإسلامي وقد لاحظنا مدى تأثرهم بالعقيدة الجديدة، وهم في الوقت عينه يعملون على نشر المبادىء الإسلامية عن طريق أشعارهم التي كانت سريعاً ما تنتشر في مختلف الأماكن. فكان الشعر من الأسباب التي ساهمت إلى حدٍّ ما في نشر تلك العقيدة.

ب ـ الفخر والمديح: الفخر والمديح هما من أغراض الشعر العربي قبل الاسلام وبعده، ولكن القيم التي كانت تدفع الشاعر الجاهلي إلى هذا الغرض، تختلف كثيراً عن القيم التي زرعها الاسلام في نفوس المسلمين، لذلك نرى أن الفخر قد اتخذ في الاسلام مَنْحى جديداً يتوافق مع العقيدة الدينية الجديدة فها هوذا عليّ بن أبي طالب يفتخر بصلته بالرسول ﷺ، وبسبق أهله إلى الشهادة في سبيل الله، وأنه كان سباقاً إلى الاسلام رغم حداثة سنّه حيث يقول:

(*) لا تعتدوا على أرض الجار فهذا ظلم، والظلم يعقل صاحبه عن السباق .

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام 510/2.

(2) الخنا: الفحش.

محمدٌ النبيُّ أخي وصهري ... وحمزةُ سيّدُ الشّهداءِ عمّي

* * *

سبقتكمُ إلى الاسلام طُرّاً ... صغيراً، ما بلغتُ أوانَ حِلْمي[1]

وحسان بن ثابت الأنصاري، قال في الثناء على الله سبحانه وتعالى، والتضرّع إليه ومدح الرسول:

أغرُّ عليه للنبُوّةِ خاتَمٌ ... من اللّهِ من نورٍ يَلُوحُ ويَشْهَدُ(*)

وضمَّ الإلٰهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمهِ ... إذا قال في الخَمْسِ المؤذّنُ أَشْهَدُ

وشقَّ له من اسمِهِ ليُجِلَّهُ ... فذو العرشِ محمودٌ، وهذا مُحمَّدُ

نبيٌّ أتانا بعد يأسٍ وفترةٍ ... من الرّسْلِ والأوثانُ في الأرض تُعْبَدُ

* * *

وأَنْذَرَنا ناراً وبَشَّرَ جنّةً ... وعلّمنا الاسلامَ فاللّهَ نَحْمَدُ

وأنت - إلٰه العرش - ربّي وخالقي ... بذلك ما عمّرتُ في الناس أشهدُ

* * *

لك الحمدُ والنعماءُ والأمرُ كلُّهُ ... فإيّاك نستهدي وإياكَ نَعْبُدُ[2]

وإننا نَحِسُّ ونحن نقرأ هذه الأبيات بالمعاني الاسلامية تتجلّى واضحة صريحة نستشفُّ من خلالها قوّة الايمان عند حسان، ونلاحظ كيف أن المديح ظل محافظاً على مكانته في الأدب الإسلامي ولكن بمعانٍ مستحدثة.

وهذا كعب بن زهير يمدح الرسول ﷺ في لاميته المشهورة حيث يقول:

* * *

نُبِّئْتُ أنَّ رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسولِ الله مأمولُ

---

(1) البداية والنهايه - ابن كثير 8/8.

(*) أغرّ: كريم الأفعال واضحها.

(2) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص 47 - دار صادر - بيروت.

مهلاً هداكَ الذي أعطاك نافلة الـ   قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ

* * *

إنّ الرسولَ لسيفٌ يُستضاءُ به   مهنّدٌ من سيوف الله مسلولُ(1)

* * *

وهنا نلاحظ الشاعر يمدح الرسول بالعفو وهذا من شيم الكرام، هو لا شك واجده عنده، ويعتذر عما بدر منه قبل أن يَفِدَ على الرسول، ويشير إلى القرآن الكريم، وإلى الرسالة العظمى التي حملها النبيّ إلى العالم كافة.

ويُنسب إلى سعد بن أبي وقاص أنه قال:

هلْ أتى رسولَ الله أنّي   حَمَيْتُ صحابَتي بصدورِ نَبْلي

أذودُ بها أوائِلَهم ذياداً   بكلِّ حزونة وبكلِّ سَهْلِ(*)

فما يَعْتَدُّ رامٍ في عدوٍّ   بسهمٍ يا رسولَ اللّهِ قَبْلي

وذلك أنَّ دينَكَ دينُ صِدْقٍ   وذو حقٍّ أتيتَ به وعَدْلِ(2)

يبدو من هذه الأبيات أن سعد بن أبي وقاص يتساءل إن كان وصل نبأُ شجاعته وإقدامه إلى الرسول ﷺ وأنّه هو الذي حمى المسلمين في الأراضي الصعبة والسهلة، بنباله التي كان يرشقها إلى المشركين، وإلى جانب افتخاره بشجاعته يفتخر ويعتزّ بأنه أوّلُ مسلم رمى نبلاً إلى صدور المشركين وأصاب به أحدَهم، وأن الدافع الرئيسي لهذا الاقدام هو إيمانه بالدين الاسلامي، دينُ الصدق والحق والعدل.

وقال كعب بن مالك الأنصاري:

يذودُ ويحمي عن ذمارِ محمّدٍ   ويدفعُ عنه باللسان وباليدِ

وينصرُه من كلِّ أمرٍ يُريبُهُ   يجودُ بنفسٍ دونَ نفسِ محمّدِ

---

(1) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 90/1 ـ نظرات في الشعر الاسلامي والأموي ـ ظافر القاسمي ص 74 ـ دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1977.

(*) الحزونة: الوعر من الأرض.

(2) السيرة النبوية ـ ابن هشام 594/2.

يصدِّقُ بالأنباءِ بالغيب مخلصاً   يريدُ بذاك الفوْزَ والعزَّ في غَدِ[1]

إنّ كعب بن مالك يفخر في هذه الأبيات من الشعر بكلّ واحد من قومه (الخزرج)، بأنهم يذودون عن الرسول ﷺ ويدافعون عنه باللسان وبالسنان ويبذلون النفس في هذا السبيل، ويدفعهم إلى ذلك إيمانهم بما جاء به الاسلام من عقائد ورغبتهم بأن يفوزوا غداً بالجنّة.

وهكذا نلاحظ من شعر تلك الحقبة من الزمن أن معظم المديح جاء في مديح الرسول ﷺ، وأنّ مضامينه هي في الفخر برسالة الإسلام التي أوحى الله بها إلى النبيّ. وبذلك يكون الشعراء المسلمون اتخذوا منحىً جديداً في المدح، فبدلاً من توزيع الكلام بغير حساب على أصحاب النفوس الضعيفة فقد توجهوا بشعرهم إلى مديح الاسلام المتمثّل بشخص الرسول ﷺ. وبذلك ابتعدوا عن محاور المديح في العصر الجاهلي والتي كان مجالها الأنا أو القبيلة أو أحد أبنائها أو أصحاب الأموال طمعاً بها، إلى ما هنالك من قيم كالفخر في السطو والسبي والقتل والغنائم وغيرها.

ج ـ الجهاد والمعارك: الجهاد من الفرائض الهامة التي فرضها الاسلام على المؤمنين، وهذا يستدعي حمل السلاح وقتال كل من يقف عقبة في وجه الدعوة الاسلامية في كل زمان ومكان حتى تتحقق الغاية الأساسية وهي أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى. وقد حثّ القرآن الكريم على الجهاد في آيات عديدة منها: ﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله**﴾[2]. و﴿**يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين وآغلظ عليهم**﴾[3]. و﴿**إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يُقاتلونَ في سبيل الله**﴾[4]. فالجهاد يكون

---

(1) كعب بن مالك الأنصاري ـ سامي مكي العاني ص 79 ـ أعلام المسلمين 18 دار القلم دمشق ـ بيروت ـ الطبعة الأولى. 1979

(2) سورة التوبة ـ الآية 20.

(3) سورة التوبة ـ الآية 73.

(4) سورة التوبة ـ الآية 111.

بالأموال والأنفس، والمجاهد له درجة عالية عند الله، ومن يُقتل في سبيل الله فهو شهيد وثوابه الجنّة، فهي تجارة رابحة جداً.

وقد حث الرسول ﷺ أيضاً على الجهاد بقوله وفعله فقد كان القدوة الحسنة لأصحابه في أمر الجهاد إذ اشترك في العديد من الغزوات وحمل السلاح وقاد المجاهدين بنفسه إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى. لذلك أخذ المسلمون يتسابقون لحمل السلاح ومقاتلة أعداء الاسلام، في حياة النبيّ وبعد وفاته، وذلك ابتغاء مرضاة الله وطمعاً بجنّته.

ولم يكن الشعر بعيداً عن هذا الصراع بين المسلمين والمشركين، بل كان في صلب المعارك، حتى أنه يمكن القول إنّ تلك المعارك ساعدت على تنشيط الشعر في تلك الفترة وهذا ما نلاحظه جليّاً في شعر الشعراء المخضرمين، وكان من نتائجه بروز المناقضات الحادة بين شعراء قريش في مكة وبين شعراء الأنصار في المدينة، ويمكن أن نحدّد بداية نشاطهم ببيتين لضرار بن الخطاب (وكان شاعر قريش وفارسها) قالهما في سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو الأنصاريين، وهما:

تداركتَ سعداً عَنْوَةً فأخذتَه ... وكان شِفاءً لو تداركْتَ مُنْذِرا

ولو نِلْتُهُ طُلَّتْ هناك جِراحُه ... وكان حَرِيّاً أن يُهانَ ويُهدَرا[1]

وكان أن أجابه حسان بن ثابت الأنصاري (شاعر الرسول) بقصيدة منها:

لستَ إلى سعدٍ ولا المرءِ مُنْذِرٍ ... إذا ما مَطَايا القومِ أَصْبَحْنَ ضُمَّرا

* * *

فلا تَكُ كالوَسْنانِ يحلُمُ أنّه ... بقرية كِسْرى أو بقرية قَيْصرا

* * *

ولا تَكُ كالشّاةِ التي كان حَتْفُها ... بِحَفْرِ ذِرَاعَيْها فلم ترضَ مَحْفَرا[*][2]

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام 450/1.

(*) الوسنان: النائم. كالشّاة: تبحث عن مدية لنحرها.

(2) السيرة النبوية ـ ابن هشام 451/1

ويستمر نشاط الشعر مع نشاط الصراع الدامي ليشمل القرشيين في مكة، والقرى اليهودية، والأعراب في البادية، والثقفيين في الطائف، فانحاز بعض من هؤلاء إلى معسكر المسلمين في المدينة، وانحاز آخرون إلى معسكر المشركين في مكة. وقد استمرت هذه الحال خلال السنوات التسع التي سبقت النصر في الفتح ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وكسر شوكة اليهود من قريظة والنضير.

وقد كانت تلك الأحداث الكبرى، من أهم عوامل إزدهار الشعر، حيث تجلّى شعر النقائض، وظهر الطابع الديني في شعر الشعراء المسلمين أكثر فأكثر، وأضحى الشعر سجلاً لتصوير المعارك والغزوات. -

ومن أهم تلك الأحداث معركة بدر، وهي معركة النصر الأولى للمسلمين، وقد ذاقت قريش فيها الذلّ والهزيمة ورجعت صاغرة بعد أن تركت فرسانها مصرعين على الروابي وبين الشعاب، وقد ورد أنّ الرسول ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «والذي نفسُ محمّدٍ بيده، لا يقاتلهم اليوم رجلٌ فيقتَلُ صابراً مُحتَسِباً مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِر، إلاّ أدخله الله الجنّة». فقال عُمَيْرُ بن الحُمام، أخو بني سَلَمة، وفي يده تَمَراتٌ يأكلُهن: بَخْ بَخْ(*)، فما بيني وبين أن أدخلَ الجنة إلا أن يقتلَني هؤلاء! ثم قذف التَّمراتِ من يده، وأخذ سيفه، فقاتلَ القوم حتى قُتل وهو يقول:

رَكْضاً إلى الله بغيرِ زادِ ... إلاّ التُّقى وعملِ المَعادِ
والصَّبْرِ في الله على الجهادِ ... وكلُّ زادٍ عُرْضَةُ النَّفادِ
غيرُ التُّقى والبِرِّ والرَّشادِ(1)

ومما ورد عن حسّان قوله في تصوير معركة بدر:

وخبِّرْ بالذي لا عَيْبَ فيه ... بصِدْقٍ غيرِ إخْبارِ الكَذُوبِ
بما صَنَعَ المليكُ غداةَ بَدْرٍ ... لنا في المشركين من النَّصيبِ

* * *

(*) بخ بكسر الخاء وإسكانها، كلمة تقال للإعجاب.

(1) تاريخ الطبري 448/2 وانظر السيرة النبوية ـ ابن هشام 627/2.

فـغـادَرْنـا أبـا جَـهْـلٍ صـريـعـاً وعُـتْـبـةَ قـد تـركـنـا بـالـجَـبُـوبِ

* * *

يُـنـاديـهـم رسـولُ الله لـمّـا قَذَفْناهُمْ كَباكِبَ فـي القَـليـبِ

* * *

فـمـا نَـطَـقُـوا، ولـو نـطـقـوا لـقـالـوا: صَدَقْتَ وكنتَ ذا رأيٍ مُصيبِ[1]

وكان أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكة مع المنهزمين من قريش في معركة بدر، نذر أن لا يقرب النساء ولا يمسّ رأسه ماء حتى يغزُوَ محمداً ويثأر منه، ثم خرج في مائتي راكب من قريش قاصداً المدينة وكان يقول أبياتاً من الشعر يحرّض فيها قريشاً على المسلمين منها:

كُـرُّوا عـلـى يَـثْـرَبٍ وَجَـمْـعِـهِـمُ فـإنّ مـا جـمَّـعـوا لـكـمْ نَـفَـلُ
إنْ يَـكُ يـومُ الـقـلـيـبِ كـان لـهـم فـإنّ مـا بـعـدهُ لـكـمْ دُوَلُ
آلَـيْـتُ لا أَقْـرَبُ الـنّـسـاءَ ولا يَـمَـسُّ رأسي وجـلْـديَ الـغُـسُـلُ
حـتـى تُـبـيـرُوا قـبـائـلَ الأوسِ والْـ خَـزْرجِ، إنّ الـفُـؤادَ مُـشْـتَـعِـلُ

فأجابه كعب بن مالك:

تَـلْـهَـفُ أمُّ الـمـسـبِّـحـينَ عـلـى جيش ابن حربٍ بالحرَّةِ الْفَشَلِ
إذ يَـطْـرَحُـونَ الرجـالَ مَـنْ سَـئِـمَ الـطَّـ ـيـرُ تَـرَقّـى لِـقُـنَّـةِ الـجـبَـلِ
جـاؤوا بـجـمْـعٍ لـو قِـيـسَ مَـبْـرَكُـهُ مـا كـانَ إلاّ كـمـفْـحَـصِ الدُّئِـلِ(*)
عـارٍ مـن الـنَّـضْـرِ والـثَّـراء ومـن أبطالِ أهلِ البَطْحاءِ والأَسَلِ(**)[2]

هذه نماذج من شعر الجهاد وشعر المعارك في صدر الإسلام، وإذا أراد أحدنا أن يجمع ذاك الشعر من بطون الكتب فإنه سيجد أمامه الكثير. وهنا لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ أحداً من القادرين على الجهاد لم يتخلف، ما لم تكن له

---

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام 640/2.

(*) الدُّئل: دويبّة كالثعلب.

(*) الأسل: نبات لا ينبت إلاّ في موضع ماء.

(2) تاريخ الطبري 483/2 وما بعدها.

معذرة مشروعة كالمرض والشيخوخة ونحوهما، وهؤلاء الذين أقعدهم العجز، قد تحسّروا على القعود وتألّموا للتخلف، وصوّر الشعرُ تلك الآلام من ذلك قول البُرَيْق الهذلي:

فإنْ أُمْسِ شيخاً بالرَّجيع ووِلْدةً ... وتصبحُ قَوْمي دون دارِهِمُ مضْرُ
أسائلُ عنهمْ كلّما جاء راكبٌ ... مقيماً بأملاحٍ كما رُبِطَ الْيَعْرُ[1]

فانظر إلى هذا الشيخ الذي شبّه نفسه بالجدي الكبير المربوط فلا يستطيع حراكاً ونفسه تتحرّق على الجهاد ولكنه لا يقوى. أضف إلى ذلك نوعاً آخر من الشعر المتعلق بالجهاد، ذاك الذي يصور جزع الآباء على أبنائهم الوحيدين المشتركين بالجهاد كشعر المخبّل الربيع بن ربيعة الذي جزع على ابنه شيبان الذي كان مجاهداً مع سعد بن أبي وقاص، فلما سمع عمر بن الخطاب ذاك الشعر أعاد شيبان إلى والده وقد سبقت الإشارة إلى هذه الحادثة، وحادثة مماثلة مع عمر أيضاً والشاعر المسنّ أبي خراش الهذلي، ومنها حادثة أميّة بن حرثان وولده كلاب الذي خرج إلى حرب الفرس.

ومن الشعر المتعلق بالجهاد ما قيل في مفارقة الزوج لزوجته للاشتراك في الجهاد، وهذا هو النابغة الجعدي يتأهب للجهاد، فتجزع زوجة وتحاول أن تصرفه عن ذلك فيعاتبها ويقول.

* * *

يا ابنةَ عمّي كتابُ اللّهِ أَخْرَجَني ... كُرْهاً وهلْ أمنَعنَّ اللّهَ ما فَعَلا
فإنْ رَجَعْتُ فَرَبُّ الناسِ يُرْجِعُني ... وإنْ لَحِقْتُ بِرَبِّي فابْتَغي بَدَلاَ
ما كنتُ أعرجَ أوْ أَعْمَى فَيَعْذِرَني ... أوْ ضارِعاً من ضَنىً لم يستطعْ حولاَ[2](*)

وهكذا نلاحظ أن شعر الجهاد كان مرآة تنعكس عليها صور المعارك

(1) ديوان الهذليين 58/3. الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة 1965 نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.

(2) شعر النابغة الجعدي ـ ص 194 ـ منشورات المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ط 1964/1.

(*) الضارع: النحيف. الضنى: المرض.

والقتال، ومرآة لما في نفوس الناس من ألم المتخلفين، وجزع الآباء على أبنائهم الوحيدين، ولهفة الزوجات على الأزواج المجاهدين، وانصياع الأزواج لأمر ربّ العالمين.

ولا بدّ لنا ونحن نتحدث عن شعر الجهاد والمعارك، إلاّ أن نشير ولو بإيجاز إلى شعر الفتوحات، فالمعروف أن المسلمين بعد انتصارهم على المشركين واليهود، وبعد الانتهاء من حروب الردّة، انطلقوا من جزيرتهم مجاهدين في سبيل الله وناشرين العقيدة الاسلامية خارج حدود جزيرتهم، فكانت لهم معارك عنيفة وقتال مرير مع القوتين العظيمتين المتاخمتين لحدودهم وهما: الفرس والروم البيزنطيين، وكان بين المقاتلين شعراء نظموا أثناء الحرب الأناشيد الحماسية المدوّية، ثم صوروا جهادهم وبسالاتهم وانتصاراتهم وتمدّحوا بشجاعتهم ومن الصعب أن نعرض لكل ما نظموه، إنما نلمّ بطرف صغير منه، فنقف قليلاً مع أبي محجن الثقفي ورفاقه في معركة القادسية التي كانت بين المسلمين والفرس، وكان سعد بن أبي وقّاص يقود جيوش المسلمين، وكان أبو محجن في سجن سعد لإدمانه على شرب الخمر مع أنه كان من الشجعان الأبطال في الجاهلية والاسلام وكان شاعراً مطبوعاً كريماً، فكأنّه عرف أن المشركين قد أصابوا من المسلمين، فألحّ على زوجة سعد أن تحلّ قيوده وعاهدها على العودة إلى السجن إن بقي على قيد الحياة، ففعلت وقدمت له سلاحاً وفرساً ثم إنه حمل على الأعداء وأبلى بلاءً حسناً ثم عاد إلى محبسه وأنشأ يقول:

وليلةَ قادسٍ لم يَشْعُروا بي ... ولم أشْعِرْ بِمَخْرَجِيَ الزُّحوفَا

فإن أُحْبَسْ فقد عَرفوا بلائِي ... وإن أُطْلَقْ أُجَرِّعْهم حُتوفَا[1]

ومن أبطال القادسية القعقاع بن عمرو الذي يقول:

وما خامَ عنها يومَ سارتْ جموعُنا ... لأهلِ قُدَيْسٍ يمنعونَ المواليِا[*]

(1) خزانة الأدب البغدادي 553/3 ـ الأغاني ـ الأصفهاني 6/19.

(*) خام: نكص وجبن.

فإن كنتُ قاتلتُ العدوَّ فَلَلْتُهُ فإنّي لألْقَى في الحروبِ الدَّواهِيا
فيولاً أَرَاها كالبيوتِ مُغِيرَةً أُسَمِّلُ أعياناً لها ومآقيا[1]

ومن هذا الشعر يتبيّن لنا الدور الكبير للفيلة التي اعتمد عليها الفرس في حروبهم والتي كان العرب يجهلون استخدامها ويجهلون طريقة قتلها للتخلص من شرّها، لأنّ الخيل والجمال كانت تخافها، ورغم ذلك فقد انتصر المسلمون على الفرس في القادسية، وكذلك انتصر المسلمون على الروم البيزنطيين، في اليرموك وغيرها، وهذا هو زياد بن حنظلة يحدثنا عن ذلك بقوله:

وإذْ أَرْطَبُونُ الرُّومِ يَحْمي بلادَهُ يُحاوِلُهُ قَرْمٌ هناكَ يُساجِلُهْ
فلمّا رأى الفاروقُ أزمانَ فَتْحِها سَمَا بجنودِ الله كَيْما يُصَاوِلُهْ
فلمّا أَحَسُّوهُ وخافوا صِوَالَهُ أَتَوْهُ وقالوا أنتَ مِمَّنْ نُواصِلُهْ
وَأَلْقَتْ اليه الشأم أفلاذَ بَطْنِها وعَيْشاً خصيباً ما تُعَدُّ مآكِلُهْ[2]

هذه لمحات بسيطة عن شعر الجهاد والمعارك والفتوح، وإن ما تطفح به كتب الصحابة مثل الاستيعاب والإصابة، وكتب التاريخ مثل الطبري وابن الأثير، وكتب الأدب مثل الأغاني وكتب الجغرافيا مثل معجم البلدان لياقوت الحموي، ليؤلّف للعرب في الفتوح ملحمة ضخمة. وإنّ ذاك الشعر يصور لنا أيضاً هجرة القبائل العربية من مواطنها إلى البلاد المفتوحة، ويتحدث عن الأبطال الذين ساهموا في تلك الحروب، وفيه مراث رائعة لبعض من كانوا يفقدونهم في تلك المعارك والحروب.

د ـ الرثاء

كانت الثروةُ الأدبية التي سبّبها الإسلام عظيمةً على الأدب واللغة، وكان منها ما نشأ بين الدمار والدموع، وأنين الثكالى. والشاعر، لما طُبع عليه من رقّة الحسّ وإرهاف الشعور. وسرعة الانفعال بالأحداث، تهزه الفواجع، فيعبّر عن تأثره بها بالأبيات يقولها إثر الفجيعة ويصور مشاعره إزاءها. فكان فنّ الرثاء

(1) تاريخ الطبري 557/3.
(2) تاريخ الطبري 612/3.

واحداً من أغراض الشعر الرئيسة على مدى العصور ومختلف الأزمان - إلاّ أن النظرة إلى الموت تختلف من أمة إلى أمّة ومن شعب إلى آخر.

وإذا كان الرثاء في الجاهلية عبارة عن ذرفٍ للدموع وأسىً في القلوب وحدادٍ على الأموات ووعدٍ بالثأر والانتقام أحياناً. فإن الرثاء في الإسلام يختلف في بعض جوانبه، فالشاعر الاسلامي إنسان ملتزم بعقيدة دينية تحدد له أبعاد الرثاء ضمن القيم والمعاني الاسلامية، وقد يتسابق المسلمون إلى الموت والشهادة في مجالات الجهاد، فيكون الموت مفخرة من المفاخر التي يعتز بها المسلم. وهذه هي الخنساء، أميرة شعر الرثاء في الجاهلية، والتي عاظمت العرب بمصيبتها بابنها وأخويها، وبدت القروح في عينها من البكاء عليهم، هي نفسها أدركت الاسلام وحضرت حرب القادسية ومعها بنوها، أربعة رجال، فحثّتهم على القتال والإستماتة في سبيل الله فقتلوا جميعاً، فقالت: الحمدَ لله الذي شرفني بقتلهم[1]. وهكذا نرى أنّ الموت أضحى مفخرة يعتزّ بها المسلم لأنه على يقين أنّ جزاءه سيكون الجنّة، إنما يظلّ له أثره في النفس البشرية وإن قلَّ البكاء والنحيب، وظلّ فن الرثاء مزدهراً في العصر الإسلامي، لاستمرار المعارك الدامية بين المسلمين والمشركين وخلال تلك المعارك يسقط صرعى من كلا الطرفين، فكان أن رثى المسلمون شهداءهم، وبكى المشركون قتلاهم. من ذلك ما ورد عن الأسود بن المطّلب الذي قُتل له ثلاثة أبناء يوم بدر، وقد منعت قريش البكاء على قتلاها حتى لا يشمت بهم محمد وأصحابه، فسمع الأسود نائحة تنوح، فظنّ أن قريشاً أحلّتْ النَّحْب، فإذا هي تبكي على بعير أضلّته، فقال:

أتبكي أنْ يَضِلَّ لها بعيرٌ ... ويَمْنَعُها من النَّومِ السُّهودُ

* * *

وبكّي إن بكيتِ على عَقيلٍ ... وبكّي حارثاً أسَدَ الأسودِ(*)

وبكّيهم ولا تَسَمِيْ جميعاً ... وما لأبي حَكيمة من نديدِ(**)

---

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي 877/9.

(*) للانتباه إلى الاقواء، اختلاف في حركة الروي.

(**) تسمى: أي تسامي - النديد: الشبيه.

ألا قــد ســادَ بــعــدَهُــمُ رجــالٌ   ولـولا يـومُ بَـدْرٍ لـم يـسـودوا[1]

وبعد عام من وقعة بدر الكبرى جاءت قريش بجموعها وأحابيشها ونسائها لتثأر لذلّها وقتلاها في بدر، والتقت الجموع في (أُحد)، وكانت هند بنت عتبة (زوجة أبي سفيان) في النُّسوة اللواتي معها، وأخذن الدُّفوفَ يضربْن خلف الرجال ويُحرّضْنهم على قتال المسلمين بقولهنّ:

نحن بناتُ طارقْ   إن تُقْبِلُوا نعانقْ   ونَفْرِشُ النّمارقْ
أو تُدْبِروا نفارقْ   فِراقَ غيرِ وامِقْ

وكذلك قولهنّ:

وَيْــهــاً بــنــي عــبــدِ الــدَّار   وَيْــهــاً حــمــاةَ الأدْبــار
ضــربــاً بــكــلِّ بــتّــار[2]

وانتهت المعركة بانتصار المشركين على المسلمين، واستُشهد فيها عدد كبير من المسلمين وفيهم حمزة بن عبد المطلب، عمُّ النبيّ ﷺ. فأخذ الشعراء دورهم في رثاء شهداء (أُحُد)، ومن بين أولئك الشعراء كعب بن مالك الذي قال:

وقـتـلاهـمُ فـي جـنـانِ الـنـعـيـم   كِـرامُ الـمـداخِـلِ والـمـخـرجِ
بـمـا صـبـروا تـحـت ظـلِّ الـلّـواء   لـواءِ الـرسـولِ بـذي الأضْـوجِ
فـكـلّـهـمُ مـاتَ حُـرُّ الـبـلاءِ   عـلـى مـلّـةِ الـلّـهِ لـم يَـخْـرَجِ

ثم يذكر حمزة، وصبره في الحرب وعظيم بلائه، ويخاطب كعبٌ المشركين بأنّ أولئك الشهداء في جنّات ربّهم منعمين، لا كقتلاكم الذين يرتكسون في الدرك الأسفل من جهنم:

أولـئـكَ لا مـن ثـوى مـنـكـمُ   مـن الـنّـارِ فـي الـدركِ الـمـرتـجِ[3]

وهكذا نلاحظ الأثر الإسلامي في شعر الرثاء هذا، إذ هؤلاء القتلى هم

---

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام 648/2.

(2) تاريخ الطبري 512/2.

(3) خصائص شعر المخضرمين ـ يحيى الجبوري ص 274 ـ مؤسسة الرسالة ط 1981/2.

شهداء، والشهداء مصيرهم إلى جنات النعيم، وذلك جزاءً بما صبروا وجاهدوا مع الرسول لتكون كلمة الله هي العليا، ولنصرة دينه، وأولئك الكفرة مصيرهم إلى جهنم وبئس المصير.

وعلى الرغم من الصدمة العنيفة التي أحدثها موت النبيّ ﷺ في نفوس المسلمين عامة، فإنّ الإيمان الراسخ في قلوبهم جعلهم يتقبلون الأمر بصبر وثبات على العقيدة. وإذا كان الرسول ﷺ قد انتقل إلى جوار ربه، فإنّ رسالته الخالدة مستمرة إلى يوم القيامة. وقد عبّر معظم الشعراء المخضرمين عن أحاسيسهم بقصائد رثاء، اخترنا منها قصيدة لحسان بن ثابت نقتطف منها الأبيات التالية:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ للرسولِ ومَعْهَدُ ... مُنِيرٌ، وقد تَعْفُو الرّسومُ وتَهْمَدُ

ولا تَنْمَحِي الآياتُ من دارِ حُرْمَةٍ ... بها مِنْبَرُ الهادِي الذي كانَ يَصْعَدُ

* * *

بها حُجُراتٌ كانَ يَنْزِلُ وسْطَها ... من الله نورٌ يُسْتَضاءُ، وَيُوقَدُ

* * *

أطالتْ وُقوفاً تَذْرِفُ العينُ جُهْدَها ... على طَلَلِ القَبْرِ الذي فيه أحمدُ

* * *

عزيزٌ عليهِ أنْ يَحيدوا عن الْهُدَى ... حَريصٌ على أن يَسْتَقيموا ويَهْتَدُوا

عَطُوفٌ عليهِمْ، لا يُثَنِّي جناحَهُ ... إلى كَنَفٍ يَحْنُو عليهم ويَمْهِدُ[1]

هذه الأبيات من قصيدة طويلة بلغت ستة وأربعين بيتاً بيّن فيها حسان ما لاقاه من أسى وحزن على فقدان رسول الله، ووصف الأماكن التي يرتادها الرسول: الحجرات، المنبر، المصلّى، المسجد، ثم انتقل إلى وصف القبر، وتفجّع الناس وهم يغيّبون جسده الطاهر في القبر، إنها لمصيبة كبيرة لا توازيها مصيبة لأن موت الرسول يعني انقطاع الوَحي وغياب المعلم، المرشد، الذي يهدي الناس إلى طريق الرشاد، ثم ينتقل حسان إلى وصف المزايا التي كان

---

(1) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ـ دار صادر. ص 54.

يتمتع بها النبي، وإننا نلاحظ الآثار الإسلامية جليّة في ألفاظه ومعانيه، وتأثره بالألفاظ القرآنية ومعاني الآيات الكريمة وذلك في كثير من الأبيات ومنها في البيتين الأخيرين المذكورين أعلاه حيث تنسجم معانيهما مع الآيات القرآنية:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[1].

ورُوي أنه بعد أن تمّ دفن الرسول ورجع الناس إلى ديارهم ورجعت فاطمة الزهراء إلى بيتها، اجتمع إليها نساؤها فقالت أبياتاً في رثاء أبيها منها:

* * *

فَلْيَبْكِهِ شرقُ البلادِ وغَرْبُها ... ولْيَبْكِهِ مُضَرٌ وكلُّ يمانِ

* * *

يا خاتم الرسل المباركُ ضَوءُهُ ... صلّى عليك منزِّلُ الفرقانِ[2]

إنّ المرأة، بطبيعتها النسويّة، أكثرُ تأثّراً في مثل هذه المواقف المحرّكة لمشاعر الإنسان وأحاسيسه، وبخاصة إذا كان من ذوي القُربى أو من ذوي المحبّة السامية. فلا عجب إذا وجدنا فاطمة تحركها عاطفة الأبوة لأب ليس كبقيّة الآباء، وما عساها أن تفعل سوى البكاء والنّدب، وهي لا تكتفي ببكائها بل تطلب من جميع الناس أن يشاركوها البكاء، وتطلب من الله أن يصلّي عليه.

وعند وفاة الخلفاء الراشدين جاء الشعراء يرثونهم معدّدين فضائلهم وصلتهم الوثيقة بالرسول ﷺ، ويعدّدون مآثرهم التي قدّموها للإسلام والمسلمين، خالصة لوجه الله، ويعبّرون عن سخطهم واستيائهم من الأجواء التي وصل إليها المسلمون خاصة بعد الفتنة في مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهذه ليلى الأخيلية تعبّر عن مشاعرها في هذه المناسبة بقولها:

أَبَعْدَ عثمانَ تَرْجو الخيرَ أمّتُهُ ... وكانَ آمَنَ مَنْ يمشي على ساقِ

(1) سورة التوبة ـ الآية 128.

(2) زهر الآداب ـ الحصري 70/1.

خـليـفـةُ الـلّـهِ أعـطـاهُـمْ وخَـوَّلَـهُـمْ ما كـان مـن ذَهَـبٍ جَـمٍّ وأوراقِ

* * *

ولا تَـقـولـنْ لـشـيءٍ سـوفَ أَفْـعَـلُـهُ قد قدَّرَ اللّهُ ما كلُّ امرىءٍ لاقِ[1]

وهنا أيضاً نرى الآثار الإسلامية بادية وخاصة في البيت الأخير الذي يتلاءم مع مضمون الآية القرآنية: ﴿**ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً إلاّ أن يشاءَ اللّهُ**﴾[2].

لم يكن الرثاء مقصوراً على الرسول والخلفاء الراشدين وإنما كان غرضاً من أغراض الشعر في صدر الإسلام، ولا مجال هنا لذكر الأشعار التي قيلت في هذا الفن، وقد اخترنا حادثة واحدة كنموذج لشعر الرثاء لأشخاص عاديين، وهي حادثة مقتل مالك بن نويرة، الذي قتله خالد بن الوليد في حروب الردّة، فرثاه أخوه متمّم بقصيدة طويلة بلغت واحداً وخمسين بيتاً، وقد ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لمتمّم: «لودِدْتُ لو أنك رثيتَ أخي زيداً بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك». وقد بدأ قصيدته بقوله:

لَعَمْري وما دَهْري بِتَأْبِينِ هالكٍ ولا جَزَعٍ ممّا أصابَ فَأَوْجَعَا

ثم تابع عامداً إلى التنويه بمآثر أخيه وطيب خلاله منها: الايثار والجود، وغلبته الخصوم، وأنه يملك نفسه في مجلس الشراب، ثم جلده في الحرب وإقدامه، وهذه المزايا ليست بعيدة عما نلاقيه في رثاء العصر الجاهلي، ثم غلبه البكاء وتابع سرد ذكريات جوده وشجاعته وعاوده الجزع والحسرة لفقدان أخيه فيقول:

وأنّي متى ما أدعُ بآسْمِكَ لا تُجِبْ وكنت جديراً أن تُجيبَ وتُسْمِعَا

* * *

فلمّا تَفَرَّقْنا كأنّي ومالكاً لِطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً مَعاً

* * *

---

(1) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرّد 38/2.

(2) سورة الكهف ـ الآية 23.

سَقَى اللّهُ أرضاً حلَّها قَبْرُ مالِكٍ ذِهَابَ الْغَوَادِي المُدْجِناتِ فَأَمْرَعَا(*)(1)

واستسقاء الغيث هو من العادات الجاهلية. ثم صوّر تغيّر حاله بعد أخيه وأخيراً كشف لنا عن أثر هول تلك الصدمة في نفسه. إنها قصيدة مؤثرة تعدّ من المراثي الجيدة القويّة، تعبّر عن قلب منفطر من شدّة ما حلّ به من ألم.

وهكذا نرى أنّ الرثاء في الشعر الاسلامي هو تعبير عمّا يعتري الإنسان من أسى لفراق عزيز، وكثيراً ما ينتقل الشاعر إلى تعداد محاسن الفقيد وذلك ضمن نطاق المفاهيم الاسلامية، وما يخفّف ألم الفراق تلك القناعة في أن الميّت ينتقل إلى عالم الخلود، وأنّ الشهداء سينعمون في جوار ربّهم مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصدّيقين والصالحين.

هـ ـ الهجاء

الهجاء من الأغراض الشعرية الهامّة التي مارسها الشعراء العرب في الجاهلية حيث تعرضوا فيه إلى الأعراض وذكروا المثالب والعورات، وعيّروا بعضهم بالأيام، وصبّوا فيه جام غضبهم، فازدهر كثيراً وأصبح له أثره الكبير في نفوس الناس، وجاء الإسلام والناس على هذا الحال، وقد لاقى الرسول والاسلام عداءً شديداً من مشركي قريش ومن والاهم من الثقفيين والأعراب واليهود، وقد استمرّ هذا العداء حوالى عشر سنوات قدّم خلالها الفريقان العدد الكبير من الضحايا. وكان لشعر الهجاء دوره في تلك العداوات، فكان شعراء قريش وحلفاؤهم يهاجمون الرسول وأصحابه والدين الاسلامي، وكان لا بدّ من ردعهم وبالسلاح الفعّال عينه، فسمح الرسول لشعراء المسلمين بالردّ عليهم لإسكاتهم ومن أشهرهم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. فكان حسان وكعب يعارضانهم ويهجوانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشدَّ القول عليهم قولُ حسان وكعب، وأهوَنَ القول عليهم قولُ ابن

(*) الذِّهاب: بكسر الذال المطرة الغزيرة، الغوادي: التي تغدو بالمطر، المدجنات: تغطية السماء بالسحاب. أمرع: أخصب.

(1) المفضليات ـ ص 263 ـ القصيدة رقم 67.

رواحة، فلما أسلموا، وفقهوا الاسلام، كان أشدّ القول عليهم قول ابن رواحة.

وهنا، قد يتبادر إلى الأذهان سؤال وهو: كيف نهى الإسلام عن الهجاء المقذع، وهنا نرى الرسول يطلب من الشعراء المسلمين، الردّ على شعراء المشركين وهجائهم لهم؟

لذلك لا بدّ من الاشارة إلى الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ آعْتَدَى عليكُمْ فآعْتَدُو عليه بِمِثْلِ ما آعتدى عليكم﴾[1]. وهذا الهجاء الذي سمح به الرسول ﷺ هو بين المسلمين والمشركين، أمّا حينما يكون الأمر بين المؤمنين، فالأمر مختلف.

وهذا الهجاء لا يتعلّق بشخص وإنما يتعلّق بالدعوة الاسلامية، فكان لا بدّ من الذود عن الاسلام بمختلف أنواع الأسلحة وأهمّها الشعر، لأنه حينذاك كان الوسيلة الإعلامية المؤثّرة في عقول القوم وعواطفهم؛ يضاف إلى ذلك ما كان من تلاحم وقتال ومعارك وغزوات متتابعة وها هوذا حسان بن ثابت يصف واقع الحال فيقول:

لنا في كلّ يومٍ من معدٍّ سبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ
فنحكمُ بالقوافي منْ هجانا ونضربُ حين تختلطُ الدّماءُ[2]

ذلك لأن هؤلاء الشعراء كانوا يحمون أعراض المسلمين من هجوم خصومهم باللسان، وإخوانهم يحمونها بالسنان، فكأنها معركة سياسية دينية تؤثر في النصر النهائي، وتصنع في المحاربين كما تصنع السيوف سواء بسواء. وقد أسرف المشركون في التحريض على النبيّ وأعوانه، وفي هجائهم لهم حتى أهدر النبيُّ دمَ الهجائين منهم..

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى دور القرآن الكريم في الهجاء الديني، فقد تناول المشركين والكفار فأصلاهم ناراً حامية وصبّ عليهم سوط عذاب، فأنذرهم وهدّدهم وتوعّدهم ومنهم أبا لهب وامرأته حمالة الحطب، وهجا الشعراء المشركين فجعلهم في كلّ وادٍ يهيمون ويقولون ما لا يفعلون، ووصف

---

(1) سورة البقرة ـ الآية 194.

(2) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ـ دار صادر ـ ص 9.

المنافقين بالكذب، وندّد بسوء أعمالهم، هم السفهاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى، وهجا اليهود، وجعل لهم الخزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب.

لقد عجّ عصر صدر الاسلام بالحرب الكلامية وخاصة الشعر الهجائي بين المسلمين والمشركين حيث استعر أوَارُه وحميَ وطيسُه. وأخذ في أكثر الأحيان صورة المناقضات الشعرية وفي بعض الأحيان صورة المراجزات، والمناقضة في الشعر تعني أن ينقض شاعر ما قاله شاعر آخر ويجيء بضدّ ما جاء به الأول من حيث الموضوع وأن يلتزم بقافية القصيدة وبحرها ورويِّها، ومن أمثلة شعر الهجاء ما يلي:

قال أبو جهل أثناء معركة بدر الكبرى:

ما تَنْقَمُ الحربُ الشّموسُ منّي   بازلُ عامينِ حديثٌ سنّي

لمثلِ هذا وَلَدَتْني أمّي[1]

وكان أن قُتِل أبو جهل فيمن قتل في تلك المعركة فقال حسان بن ثابت الأنصاري شعراً كثيراً منه:

* * *

فغادَرْنا أبا جهلٍ صريعاً   وعُتْبةَ قد تركْنا بالجَبوبَ(*)

وشيبةَ قد تركْنا في رجالٍ   ذَوي حَسَبٍ إذا نُسِبُوا حسيبِ

* * *

يناديهمْ رسولُ اللّهِ، لمّا   قَذَفْناهُمْ كَباكِبَ في القَليبِ

* * *

فَما نَطَقوا، ولو نَطَقُوا لَقَالُوا: صَدَقْتَ وكنتَ ذا رأي مُصِيبِ[2]

---

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 283/3.

(*) الجبوب: اسم للأرض لأنها تجب أي تحفر.

(2) ديوان حسان بن ثابت ـ دار صادر ـ ص 13.

نلاحظ مما تقدم في هذا الشعر أن الهجاء لا يختلف كثيراً عما كان عليه في العصر الجاهلي، إذ إن الشاعر يبيّن حالة الأعداء على أثر المعركة، وكيف أصبح قادتهم قتلى مطروحين أرضاً، ولكثرتهم حفرت لهم الأخاديد ودُفنوا جماعات جماعات.

وكان في الأسارى، يوم بدر، عمرو بن أبي سفيان، وحينها خرج سعد بن النعمان بن أكّال، إلى مكة معتمراً، وكان شيخاً مسلماً، وهو يظن أن لن يتعرّض له أحد لأنه جاء معتمراً، فقبض عليه أبو سفيان وحبسه بابنه عمرو وقال في ذلك:

أرهطَ ابنِ أكّالٍ أجيبوا دُعاءَه تعاقدتمُ لا تُسْلِمُوا السيِّدَ الكهلا

فإنّ بني عمرٍو لِئامٌ أَذِلَّةٌ لَئِن لم يكفُّوا عن أسيرِهم الكَبْلا

فأجابه حسان بن ثابت بقوله:

لو كان سعدٌ يومَ مكة مطلقاً لأكثرَ فيكم قبل أن يؤسَرَ القتلا

بِعَضْبٍ حُسامٍ أو بصفراءَ نبعةٍ تحنُّ إذا ما أنبضتْ تحفِزُ النَّبْلا[1]

هذا شيء من النقائض في صدر الإسلام، ومضمونه الهجائي لا يختلف عما كان عليه في العصر الجاهلي، إذ إنّ أبا سفيان يعيّر بني أكّال بأسر أحدهم وبأنهم قوم لئام أذلّة، إذا لم ينقذوه من الأسر، وحسان يردّ عليه مشيداً بقوة سعد وشجاعته وإقدامه في الحروب.

ومن أشعار المشركين يوم بدر، قصيدة قوية منسوبة إلى ضرار بن الخطاب بن مرداس منها قوله:

عَجِبْتُ لفخرِ الأوسِ والحَيْنُ دائِرُ عليهم غداً والدهرُ فيه بصائِرُ

* * *

فإنْ تكُ قَتْلَى غُودِرَتْ منْ رجالنا فإنّا رجالاً بعدهم سنغادِرُ

* * *

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 311/3.

وتبكيهمُ من أرضِ يثربَ نِسْوةٌ ... لهنَّ بها ليلٌ عن النّومِ ساهِرُ[1]

فأجابه كعب بن مالك بقصيدة يقول فيها:

عجبتُ لأمرِ اللّهِ واللهُ قادرٌ ... على ما أرادَ ليس للّهِ قاهرُ

قضَى يومَ بدرٍ أن نلاقِيَ معشراً ... بَغَوْا وسبيلُ البغي بالناسِ جائِرُ

* * *

وفينا رسولُ اللّهِ والأوسُ حَوْلَه ... له مَعْقِلٌ منهم عزيزٌ وناصِرُ

* * *

وقد عَرِيَتْ بِيضٌ خِفَافٌ كأنّها ... مقاييسُ يُزْهيها لِعَيْنَيْكَ شاهِرُ

* * *

بِهِنَّ أَبَدْنَا جَمْعَهم فَتَبَدَّدُوا ... وكان يلاقي الْحَيْنَ من هو فاجِرُ

* * *

فأمسوا وقودَ النّارِ في مستقرِّها ... وكلّ كَفورٍ في جهنّم صائِرُ[2]

هذا شيء من شعر النقائض في صدر الإسلام، أنظر في المطلع والوزن والروي في قصيدة ضرار بن الخطاب وقصيدة كعب بن مالك، وكيف أن كعباً يفتخر بالرسول ﷺ وبأعوانه من الأوس، ويهجو المشركين مبيّناً كيف أبادوهم بسيوفهم، وليس ذلك فحسب وإنما ينعتهم بالكفر والفجور، ومصيرهم إلى جهنم وبئس المصير، وهنا تبدو المعاني الاسلامية جليّة واضحة: فاجر، كافر، وقود النار.. الخ.

وقال عبد الله بن الزّبعري، يوم الخندق، وكان لم يزل مشركاً قصيدة طويلة منها:

* * *

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 341/3.

(2) كعب بن مالك الأنصاري ـ سامي مكي العاني ـ ص 144 ـ أعلام المسلمين 18 ـ دار القلم ـ دمشق ـ بيروت ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير 335/3.

حتى إذا وَرَدُوا المدينةَ وارتدَوْا ... للموتِ كلَّ مُجَرَّبٍ قَضَّابِ

* * *

لولا الخنادِقُ غادروا من جَمْعِهم ... قتلى لطيرِ سُغَّبٍ وذئابِ[1]

فأجابه حسان بن ثابت بقصيدة نقض فيها المعاني التي جاءت على لسان ابن الزّبعري منها:

* * *

ساروا بأجمعهم إليه وألّبُوا ... أهلَ القرى وبواديَ الأعرابِ

* * *

حتى إذا وردوا المدينةَ وارتَجُوا ... قتلَ الرسولِ ومَغْنَمَ الأسلابِ

وغدَوْا علينا قادرين بأيْدِهم ... رُدّوا بغيظِهُمُ على الأعقابِ[2]

هذا النوع من الشعر، شعر النقائض، في فن الهجاء، لم يكن مقتصراً على الشعراء فحسب، بل شاركت فيه الشواعر أيضاً. فهذه هند بنت عُتبة ـ زوجة أبي سفيان ـ تعبّر عمّا في دفائن نفسها من غلٍّ وحقدٍ على المسلمين لقتلهم ذويها في معركة بدر، فهي تفخر بانتصار قومها في معركة أُحُد، فتقول مُتَشَفِّيةً:

نحن جَزَيْناكم بيومِ بدرِ ... والحربُ بعدَ الحربِ ذاتُ سُعْرِ

ما كان لي عن عتبةٍ من صَبْرِ ... وَلا أخي وعمِّه وبكرِ

شَفَيْتُ نفسي وقَضَيْتُ نَذْري ... شَفَيْتَ وَحْشِيُّ غليلَ صدري

فَشُكْرُ وحشيٍّ عليَّ عُمري ... حتى ترمَّ أعظُمي في قبري[3]

فأجابتها هند بنت أُثاثة بن عبّاد بن المطلب فقالت:

خَزِيتِ في بدرٍ وبعد بدرِ ... يا بنتَ وقّاعٍ عظيم الكُفْرِ

صبَّحكِ اللّهُ غداةَ الفَجْرِ ... مِ الهاشميّين الطوالِ الزُّهرِ

---

(1) شعر عبد الله بن الزبعري ـ يحيى الجبوري ـ ص 30 ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية 1981.

(2) البداية والنهاية ـ ابن كثير 133/4 وانظر ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص 11 ـ دار صادر.

(3) البداية والنهاية ـ ابن كثير 37/4.

بكلِّ قطاعٍ حسامٍ يَفري حمزةُ لَيثي وعليٌّ صَقري
ونذرَكِ السوءَ فشرُّ نَذرِ[1]

ووحشيٌّ هذا الذي تشير إليه هند بنت عتبة في شعرها هو غلام حبشيٌ لجبير بن مطعم الذي قُتل عمُّه يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أُحُد قال له جُبير: إن قتلت حمزة عمَّ محمد بعمّي فأنت عتيق. فكان أن قتله وأعتق. وأغدقت عليه هند بنت عتبة كثيراً من عطاياها أيضاً متشفّيةً لمقتل أبيها وأخيها وعمّها وغيرهم يوم بدر، والنَّذر الذي تشير إليه وقد نفّذته يوم أُحُد هو بقرها لبطن حمزة وقطع قسم من كبده فلاكَتْهُ فلم تستطع أن تستسيغه فلفظته، وقيل إن الذي بقر عن كبد حمزة وحشياً فحملها إلى هند.

وفي ردّ هند بنت أثاثة نلاحظ أنّها تعيّرها بجبروت المشركين وكفرهم وتذكّرها بيوم بدر، حين قُتِل أهلُها، وتعتزّ بفرسان المسلمين وشجاعتهم.

هذا شيء من الشعر الذي ينطوي على الهجاء في صدر الإسلام، ويبدو أن الكثير من هجاء اليهود للمسلمين وهجاء المشركين للمسلمين لم يذكر في كتب التاريخ والأدب وذلك إمّا لأن أصحاب تلك الكتب آثروا عدم ذكرها لأنها تنطوي على إقذاع بحق الرسول والمسلمين وخاصة بعد فتح مكة وانتصار الاسلام، وإمّا لأن أصحاب تلك الأشعار قد دخلوا في الإسلام، وقد خجلوا مما قالوه قبل إسلامهم فعملوا على إزالته وعدم روايته.

ثم كانت موقعة الجمل ومن بعدها معركة صفين، فنشط شعر الهجاء يعبّر عن ذلك الانقسام الخطير الذي شهده المسلمون في باكورة مجدهم العسكري والسياسي، إذ أخذ كل فريق يدافع عن وجهة نظره، ويهاجم ويهاجي أخصامه.

وقد مرّ كعب بن جعيل على جماعة لعلي بن أبي طالب يصلحون سلاحهم فتركهم وهو يقول:

أَصْبَحَتِ الأمةُ في أمرٍ عَجَبْ والْمُلْكُ مجموعٌ غداً لمنْ غَلَبْ

---

(1) البداية والنهاية ـ ابن كثير 38/4.

فـقـلـتُ قـولاً صـادقـاً غَـيْـرَ كَـذِبْ　　إنّ غـداً تـهـلـكُ أعـلامُ الـعـربْ[1]

فهو يظهر أساه وحزنه لما وصل إليه المسلمون وكيف أن أعلام العرب والمسلمين ستهلك في تلك المعارك.

وهذا حنظلة الكاتب، جاء ينصح محمداً بن أبي بكر، فلم يستجب له، فانصرف عنه وهو يقول:

عـجـبـتُ لـمـا يـخـوضُ الـنـاسُ فـيـهِ　　يَـرُومُـونَ الـخـلافـةَ أن تـزولا

ولـو زَالَـتْ لَـزَالَ الـخـيْـرُ عَـنْـهُـمْ　　وَلاقَـوْا بـعـدهـا ذُلاً ذلـيـلا

وكـانـوا كـالـيـهـودِ أو الـنّـصـارَى　　سـواءٌ كـلُّـهُـمْ ضَـلُّـوا الـسـبـيـلا[2]

وهكذا رأينا فنّ الهجاء في الشعر الاسلامي كان نشطاً منذ بداية الدعوة الاسلامية، تارة بين المشركين والمسلمين، وطوراً بين اليهود والمنافقين والمسلمين، وأخرى بين المسلمين بعضهم لبعض حين انقسموا على أنفسهم شيعاً وأحزاباً. وكان يغلب على أهاجيهم الأسلوب الجاهلي تزركشه بعض الألفاظ والمعاني الاسلامية والتي أخذت، مع الزمن، تنمو شيئاً فشيئاً حتى عصر بني أميّة.

(1) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 296/3.

(2) تاريخ الطبري 386/4.

الفصل الثاني

النثر مظاهره وأغراضه

تعريف النثر

الأصل في الكلام أن يكون منثوراً لإبانة مقاصدَ النفس بوجه أوضح وكلفة أقلّ. وهو إمّا حديثٌ يدور بين الناس في شؤون الحياة والمعيشة وهذا ما يُسمّى (المحادثة) أو (لغة التخاطب)؛ وإمّا خطابٌ من فصيح نابهِ الشّأن يلقيه على جماعة في أمرٍ ذي بال وهو ما يُسمّى (الخطابة) وإمّا كلامٌ نفسيٌّ مدلولٌ عليه بحروف أو نقوش وذلك ما يُسمّى (الكتابة) فأقسام النثر ثلاثة: محادثة وخطابة وكتابة، وكلّها إمّا أن تكون كلاماً خالياً من التزام التقفية في أواخر العبارات، فحينها يكون (النثر المرسل)، وإمّا أن تكون عبارات كل فقرتين منها أو أكثر تلتزم بقافية واحدة وهذا ما يُسمّى (السجع)، وهو نوع من الحلية اللفظيّة، إذاجاء عفواً ولم يُتعمّد، لحسن وقعه في الأسماع. وكان أكثر ما يُستعمل في الخطابة والأمثال والحكم والمفاخرات والمنافرات وتخرّصات الكهّان.

والنثر الذي نقصده ونعنيه، هو النثر الذي يبحث عنه مؤرّخ الآداب، لكونه قطعة فنيّة، تعبّر عن عاطفة إنسانية، وعن مظاهر الجمال والذوق والتأثير في النفوس، فهو كلامٌ عالٍ لا يشبه كلام العامّة، ولا مما يُتعامل به في التجارة أو في الدوائر، وإنما هو من قبيل كتب الأدب ومن قبيل الأمثال والخطابة والمراسلات الأدبية ونحوها.

بين النثر والشعر

قلنا إنّ النثر هو الكلام المرسل الذي لا يتقيد بالوزن والقافية، فهو الجزء

المقابل للشعر من أجزاء الكلام، وهو أقدر من الشعر على إظهار الأفكار، وعلى التعبير عن الرأي، وعلى الإفصاح عن علم ومعرفة، لكونه كلاماً حرّاً لا يتقيّد بقيود.

وقيل: ما تكلّمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيّد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عُشْره، ولا ضاع من الموزون عُشْره[1].

وقد انقسم النقّاد والأدباء إلى قسمين متعارضين: أحدهما يُمجّد الشعر ويرفعه على النثر، وثانيهما يحطّ من قدره، ويرى النثر أشرف منه، وأرفع قدراً. وقد لجأ الفريقان في البرهنة على سداد رأيهما إلى الدّين حيناً، وإلى التاريخ حيناً آخر، وإلى الناحية الفنيّة مرة ثالثة. ومن هؤلاء على سبيل المثال، ما نجده في كتاب العمدة لابن رشيق حيث أفرد باباً في فضل الشعر وهو الباب الأول من الكتاب، ثم جاء الباب الثاني منه في الرد على من يكره الشعر، وهكذا.. الخ. أما القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا فإنّه خصّص الفصل الثالث من الجزء الأول تحت عنوان: «في ترجيح النثر على الشعر».

أمّا صاحب كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، فإنه، وإن كان يبدو من مجمل كتاباته تفضيله للشعر، إلاّ أنه يبدو أنّه سلك سبيلاً وسطاً حيث يقول: «ومع ذلك فإنّ من أكمل الصفات... صفات الخطيب والكاتب، أن يكونا شاعرين، كما أنّ من أتم صفات الشاعر، أن يكون خطيباً كاتباً»[2].

وقد يجوز لنا القول: إنّ لكلٍّ من الشعر والنثر خصائصَ تُمَيّزُ كلَّ نوعٍ من صاحبه، ولكلٍّ منهما مكانته ودوره في المجتمع، وإن كان الأساس الفنّي لكليهما واحداً. وإنّ الأديب المنتج: شاعراً، أو كاتباً، أو خطيباً، يُخْلَقُ وفيه تلك الموهبة الفنيّة، فإذا لم تكن فيه تلك الموهبة كان من الأفضل لمن يحاول معالجة قَرْضِ الشعر، وتدبيج النثر، أن ينصرف عن محاولته، إلى عمل آخر يكون أقرب إلى نفسه.

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 20/1.

(2) كتاب الصناعتين ـ أبو هلال العسكري ص 157.

1 ـ النثر الجاهلي

إنّ أوّلَ ما يواجه الباحث في النثر الجاهلي هو قضيّة الشكّ في صحة النصوص النثرية التي وصلت إلينا عن الجاهليين، فكما شك الكثيرون في صحة الشعر الجاهلي، شك الكثيرون أيضاً في النثر الجاهلي، ويعتمد هؤلاء على أنّ العرب في جاهليتهم كانوا يعيشون عيشة أوليّة بدائية، وهذا لا يؤدّي إلى النثر الفنّي لأنه لغة العقل، وقد تسمح بالشعر لأنه لغة الخيال.

ونحن لا نحبّ أن نغلو كما يغلون، ونذهب إلى أن عرب الجاهلية الأخيرة كانوا من الحضارة بمنزلة لا سبيل إلى تجاوزها، ولا مزيد عليها لمستزيد، وإنما نحب أن نشير إلى أمر اتصال العرب بالحضارات المجاورة لهم أولاً، ومن أمر حضاراتهم التليدة الموروثة ثانياً.

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدلّ على أنّ الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة، فقد عرفوها واستخدموها في أغراض متنوعة: أدبيّة وسياسيّة وتجاريّة، ولكنها كانت محدودة الانتشار بينهم.

وإذا كنّا نفتقد إلى الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقّق أنه وجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهّان، وقد قام اللغويون والرواة، حوالي نهاية القرن الأول الهجري وما بعده، بتدوين ما انتهى إليهم من تلك الآثار الأدبية.

ويبدو أن أولئك العلماء لم يعتمدوا على الرواية الشفهية فحسب، وإنما كانوا يستعينون بدواوين ومجموعات مكتوبة توارثوها عمّن قبلهم، وبما أنّ المشهور المتداول أنّ الأدب الجاهلي وأدب صدر الإسلام قد انتقلا بالرواية الشفهية جيلاً بعد جيل وحتى نهاية القرن الأول الهجري أو يزيد، حتى قُيِّض لها أن تدوّن، لذلك كان لا بدّ من محاولة تبديد تلك الغيوم بالإشارة إلى ما يلي:

1 ـ ذكر صاحب الأغاني، «قال حماد الراوية: أرسل الوليد بن يزيد إليّ بمائتي دينار، وأمر يوسفَ بن عمر بحملي إليه على البريد. قال: فقلت: لا

يسألني إلاّ عن طَرَفَيْه قريش وثقيف، فنظرت في كتابي قريش وثقيف، فلما قدمت عليه سألني عن أشعار بَلِيّ. فأنشدته منها ما استحسنه»[1].

من هذه الرواية يتبيّن لنا أنه كان هناك كتب عند القبائل تدوّن فيها جميع أخبارها ككتابي قريش وثقيف التي ذكرها حماد، ورجع إليها يتصفحها كي لا يفشل أمام الخليفة، وقد تكون بداية كتابتها في عصر متقدّم قبل الإسلام، ويمكننا القول إنه ربما كانت بحوزة حماد كتب لقبائل أخرى.

2 ـ وذكر الطبري ما يلي: «وقد حُدِّثتُ عن هشام بن محمد الكلبيّ أنه قال: إنّي كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب (آل نصر بن ربيعة) ومبالغ أعمار مَنْ عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيِّهم من بِيَع الحيرة (كنائسها)، وفيها مُلْكِهم وأمورهم كلِّها»[2].

وهذا يدل على مبلغ عناية بلاط المناذرة وأهل الحيرة بتذوين الأخبار والأشعار الجاهلية في حينها، ويدل أيضاً على توفّر تلك الكتب التي يعود إليها المؤرخون والأخباريون.

3 ـ وقد ذكر الشعراء الجاهليون الكتابة والكتب في أشعارهم، منهم مَعْقِل بن خويلد حيث يقول:

فإنّي كما قالَ مُمْلِي الكِتا ... بِ في الرَّقِّ إذْ خطَّهُ الكاتبُ:
يرى الشاهدُ الحاضرُ المطمئنُّ ... منَ الأمرِ ما لا يرى الغائبُ[3]

وقال بشر بن أبي خازم (وهو شاعر جاهلي لم يدرك الاسلام):

وجدنا في كتاب بني تميم: ... «أحقُّ الخَيْلِ بالرَّكْضِ المُعارُ»[*][4]

فماهو كتاب بني تميم؟ وما هو الكتاب الذي أشار إليه معقل بن خويلد؟

---

(1) الأغاني ـ الأصفهاني 94/6.

(2) تاريخ الطبري 628/1.

(3) ديوان الهُذَليين 70/3 نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة 1965.

(4) المفضليات ص 344 ـ القصيدة 98.

(*) المعار: قيل المسمّن، وقيل: المضمر.

وما هي تلك الكتب التي كانت في كنائس الحيرة؟ وتلك التي أشار إليها حمّاد لقريش وثقيف؟ الذي نراه أن كلّ قبيلة من القبائل كانت تجمع شعر شعرائها، وحكم حكمائها، وأقوال خطبائها، وأخبارها ومفاخرها ومآثرها وأنسابها في كتاب.

وهذا لا يعني أن الكتابة كانت منتشرة في جميع أنحاء الجزيرة العربية وبشكل واسع، وإنما المقصود أنها كانت موجودة، فكان هناك من يعرف الكتابة وكانت أدواتها متوفرة من جلد وورق وأقلام ومداد ونحوها. ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة، كي لا نبتعد عن النهج الذي وضعناه، ولننتقل إلى مرحلة تالية.

2 ـ النثر في صدر الاسلام

إذا كان الجاهليون في نثرهم لم يحفلوا بانتقاء الألفاظ والتعمق في المعاني وترتيبها، ولم يهتمّوا بالتأنق في صوغ العبارات التي كانت قصيرة وبخاصة الحكمة والمثل، على قصد منهم إلى الإيجاز في الألفاظ دون الإخلال في المعنى، وابتعدوا عن صناعة السجع إلاّ ما أتى عفو الخاطر أو ما كان من سجع كهانهم. وإذا كانوا قد عرفوا الكتابة والخطابة، فكيف كانت أحوال النثر في العصر الاسلامي، عصر الرسول والخلفاء الراشدين؟

لقد تبدّلت أوضاع الحياة العربية بعد الإسلام تبدّلاً ملموساً في جميع الميادين: الاجتماعية والسياسية والدينية والفكرية. فبعد أن كان صوت الشعر هو الأقوى في الجاهلية، جاء الإسلام وطوى صفحة الماضي بما فيها من تنافر وتناحر، وأحقاد وضغائن، وخصومات منكرة، فقضى على تلك الحميّة: حميّة الجاهلية، وفتح صفحة جديدة تحضّ على الالفة والمحبة والاخاء بين الناس: «كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربيّ على عجميّ إلاّ بالتقوى، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، والخلق كلّهم عيال الله أحبّهم إليه أنفعهم لعياله، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. بهذه التعاليم وأمثالها جاء الاسلام، لذلك لم تقم للشعر في ظلاله، تلك المكانة التي كانت له في الجاهلية، خاصة وأن الإسلام دين العفّة وصدق الحديث، فانتقلت الراية إلى النثر الذي حمل أعباء الفكر، وبه دعا الرسول ﷺ الناس إلى الله وأنذرهم وبشّرهم، وبه كتب

إلى الملوك والأمراء، ثم أصبح النثر لسان الدولة الفتيّة، به تكتب العهود، وتصاغ الوصايا، وتدوّن الدساتير.

قال قدامة بن جعفر: «ليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة، أو ترسّلاً أو احتجاجاً أو حديثاً، ولكلّ واحدٍ من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه»[1]. والنثر يشمل القصص والأمثال والحكم وسجع الكهان والخطابة والكتابة، وبما أن التدوين بصورة عامة قد تأخر إلى ما بعد ظهور الإسلام، وهذا ما أدى إلى اختلاط بعض القصص الجاهلية بما يحاكيها من قصص إسلامية أضحى من المتعذر التحدث عنها كنثر إسلامي، وقد عمد بعض الأدباء العرب إلى تقصي تلك القصص وعملوا على جمعها وترتيبها ومنهم: محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ومحمد أحمد جاد المولى، الذين جمعوا تلك القصص بأربعة مجلدات مرتبة ومنسقة، مما يدل على بذل جهد مشكور. ومما جاء في مقدمة الجزء الأول:

«وكتابنا هذا جمعنا فيه هذه القصص... وفيها عرض شامل لحياة العرب.. ثم ما كان للمرأة عندهم من سامي المكانة... وما نقله الرواة من أحوال العامة والملوك... وأخبار الأيام والحروب... الخ[2].

وأما الأمثال والحكم فشأنها شأن القصة، تَأَخُّر التدوين، واختلَط الجاهلي بالاسلامي، وقد أشار إلى ذلك أحد العلماء المشهورين في هذا المجال وهو أبو الفضل أحمد الميداني المتوفى في سنة 518 هجرية حيث يقول في مقدمة كتابه «مجمع الأمثال» وهو يتحدث عن هذا الكتاب:«... مُبَرِّزٍ على ما لَهُ من الأمثال، مشتملٍ على غثّها وسمينها، مُحْتَوٍ على جاهليّها وإسلاميها...». ويبدو أن هناك كثير من العلماء سبقوا الميداني في هذا المجال فهو يشير إلى ذلك بقوله: «فطالعت من كتب الأئمة الأعلام، ما امتدَّ في تقصّيه نفسُ الأيّام، مثل كتاب أبي عبيدة وأبي عبيد، والأصمعي وأبي زيد، وأبي عمر وأبي فَيْد، ونظرت فيما جمعه

---

(1) كتاب نقد النثر ـ لأبي الفراج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ص 93 ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ـ لبنان 1980.

(2) قصص العرب ـ 4/1 تأليف محمد أبو الفضل ابراهيم ورفاقه ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الرابعة 1962.

المفضّل بن محمد والمفضّل بن سَلَمَة. حتى لقد تصفّحت أكثرَ من خمسين كتاباً... ونقلت ما في كتاب حمزة بن الحسين إلى هذا الكتاب... الخ»[1].

أما سجع الكهان فيبدو أنه لم يبق له مجال في ظل الدين الاسلامي الجديد، لأن أسجاع الكهان في الجاهلية كانت مرتبطة إلى حدّ كبير بالتنبّؤ والعرافة وهذا ما حرّمه الاسلام. وكذلك كان الذين يدّعون الكهانة أن مع كلّ واحد منهم رئيّاً من الجنّ مثل: حازي جهنية وشقّ وسطيح وأشباههم... فوقع النهي في سجعهم لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلّة زال التحريم[2].

وبالنسبة إلى القرآن الكريم، سبق وتحدثنا عن بداية نزوله على محمد ﷺ وحتى نهايته، وطريقة جمعه وأهم علومه وغيرها. ويكفي الآن أن نشير إلى أن الجاهليين كانوا قد بلغوا حينها ذلك المستوى الرفيع من الفصاحة والبلاغة في منثور الكلام ومنظومه، وحينها بزغ فجر الاسلام، ونزل القرآن على النبي محمد ﷺ وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل، ولم يكن بالنثر الذي عرفوه ولا بالشعر الذي نظموه، ومن فضائله أنه وحّد اللهجات في لهجة قريش، وحفظ اللغة العربية من الضياع، أضف إلى ذلك أنها بفضله سادت في مختلف البقاع العربية والاسلامية، وحباها مصطلحات دينية ومعاني جديدة منها على سبيل المثال: «الايمان، الاسلام، الركوع، السجود، النفاق، الكفر، الزكاة، الصدقة الخ.. ونتج عن دراسته ثروة فكرية هائلة وهي حصيلة انكباب الفقهاء والعلماء على دراسته، ويكفي أنه كان الأداة لنشر الرسالة الكريمة التي أعزّت العرب بعد ذلّ، وهدتهم بعد ضلال، وساهمت في نقل المجتمع البشري من ظلمات الجهل، إلى نور المعرفة وإلى الطريق المستقيم، لما فيه خيرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

بعد هذه الجولة السريعة على فنون النثر الاسلامي، سنتحدث بالتفصيل عن الفنين الباقيين المهمّين: الخطابة والكتابة.

---

(1) مجمع الأمثال ـ الميداني 4/1 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السنة المحمدية 1955.

(2) أنظر البيان والتبيين للجاحظ 154/1 وما بعدها.

أ ـ الخطابة

1 ـ لمحة عامة عن الخطابة في العصر الجاهلي

كان العرب في الجاهلية قبائل متناحرة متنازعة، وكانت تربطهم صلات مختلفة بالأمم المجاورة بعضها تجاري، وبعضها سياسي وبعضها الآخر ديني، وكانت حياتهم الدينية مضطربة يغلب عليها عبادة الأصنام والأوثان، لهذه الأسباب مجتمعة كان للخطابة شأنها الكبير إن كان في مجال المفاخرة بالمآثر ووصم الخصوم بالمثالب والمعايب، أو في مجال الحرب لتثبيت الجنان وتحميس الجبان. وكذلك كانت الوفود التي ترسل إلى ملوك الأمم المجاورة بحاجة إلى خطباء لعرض قضاياهم أو طلب حاجاتهم. كما أنه كان للخطابة دورها في المجال الديني وفي مجال المصاهرة والزواج والنصح والارشاد وغيرها. لهذا علت منزلة الخطيب وازدهرت الخطابة وساعدهم على ذلكَ تأصُّلُ ملكة البيان فيهم، وقدرتهم على التصرّف في وجوه القول وتشقيق الكلام.

قال الجاحظ: «وقال عمرو بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب... فلما كثر الشعر والشعراء، واتّخذوا الشعر مكسبة.. وتسرّعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر»[1].

وقال جواد علي: «وكانوا يحبّون في الخطيب أن يكون جهير الصوت.. وأن يكون شديد التأثير في نفوس سامعية حتى يسحرهم ويأخذ بألبابهم... وصارت الخطابة في ساداتهم وأشرافهم الذين يتكلمون باسمهم في المحافل والمجامع العظام»[2].

وذُكر أن حمل العصا المخصّرة دليل على التأهب للخطبة وذلك شيء خاص في خطباء العرب، وأحياناً يتّكيء الخطيب على أطراف القسيّ، ويضع

---

(1) البيان والتبيين ـ الجاحظ 134/1 ـ العمدة ـ ابن رشيق 82/1.

(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 772/8.

على رأسه عمامة، ومن عوائدهم ألاّ يخطب الخطيب وهو جالس إلاّ في خِطبة النكاح. وقد يخطب الخطيب وهو قائم على نشزٍ من الأرض، أو على راحلته ويستحسن أن يكون قليل التلفّت. نظيف البزّة، وأن يحتجز عمامته، ويكمل هذه الخصال شرف الأصل وصدق اللهجة[1].

وكان هناك من يجمع بين الشعر والخطابة، من هؤلاء: عمرو بن كلثوم، وزهير بن جناب، ولبيد، وعامر بن الظرب العدواني[2].

ومن الخطباء المشهورين: أكثم بن صيفي، وحاجب بن زرارة وقس بن ساعدة، وقيس بن مسعود وعامر بن الطفيل وعبد المطلب وذو الأصبع العدواني، وسحبان وائل وكثير غيرهم[3].

2ـ الخطابة في صدر الاسلام ودواعيها

كان للخطابة شأن خطير ودور رائد في حياة العرب في العصر الجاهلي، فلما جاء النبي محمد ﷺ بالدعوة الدينية الجديدة، استدعت تلك الدعوة من أهلها ألسنةً قوالة من أهلها لتأييدها ونشرها، فأصبحت الخطابة أداة الدعوة، تشرح للناس أسرارها، وتبيّن المثل والقيم التي أتت بها، وتوضّح خفاياها، وتحبّب الناس فيها، وتجادل خصومها. إن هذا الانقلاب الديني قد فجّر كثيراً من الطاقات الكامنة عند العرب، وتلك الدعوة العظمى إلى الاسلام قد أنشطت الألسن من عُقلها، وأثارت الخطابة من مكامنها، فكان أن تعاظمت وعملت على اختلاب النفوس بسحر بيانها، فوق ما كانت عليه في جاهليتها، وكان العمل الأكبر والأساسي لصاحب الدعوة سيدنا محمد ﷺ الذي بلّغ القرآن، وعمل جاهداً على نشر دعوته معتمداً كثيراً على الخطابة بدعوته عشيرته الأقربين، وذهابه إلى أحياء العرب، ولقائه الناس في الأسواق العامة وفي مواسم الحج، ثم في يثرب، ومع وفود العرب التي كانت تفد إليه من كل حدب وصوب، فيشرح

---

(1) البيان والتبيين ـ الجاحظ 395/3 ـ وانظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 773/8.

(2) المفصل ـ جواد علي 773/8.

(3) راجع المفصل ـ جواد علي 776/8 وما بعدها.

لهم ببيانه، ويفيض عليهم من عذوبة لفظه وسماحة لسانه[1].

وكان دُعاةُ النبي ﷺ ورُسلُه إلى الملوك، وأمراءُ جيوشه وسراياه، ثم خلفاؤه من بعد، جلُّهم من الخطباء البلغاء، ومن أسباب نجاحهم أنهم كانوا يخاطبون عرباً مثلهم، للفصاحة عندهم هزّةٌ في النفس، وروعةٌ في الفؤاد، وأنّ الشرع صرفهم عن اللهو بالشعر الذي لا ينهض بأعباء الخطابة ولا سيما الدينية منها، لشرحها الحقائق، وقرْعِها الأسماع بالحجج العقلية والوجدانية، وترغيبها في الثواب، وترهيبها من العقاب، ولخلوّها من قيود الوزن والقافية، وكان لهم من القرآن وأدلّته وحججه والاقتباس منه مَدَدٌ أيما مدد.

وإذا نظرنا إلى تلك البيئة في عصر صدر الاسلام بعين الفاحص المدقّق نرى:

1 ـ ديناً جديداً يبث دعوته ويناضل خصومه، وينطلق الوعّاظ منتشرين في كل مكان لتغذية الشعور الديني.

2 ـ أمّة تتوحد تحت نظام اجتماعي جديد وفي ظل رئاسة واحدة تحتاج إلى توطيد وتثبيت وتفاهم بين الرعاة والرعيّة معتمدين على الألسنة والخطابة.

3 ـ جيوشاً تفتتح بلاداً جديدة واسعة شاسعة، يبعث قوّادها في صدور جنودها الحماسة والشجاعة، والفخر بالنصر.

4 ـ وفوداً تتسابق لإعلان ولائها على لسان خطبائها وآخرين يردون على كلامهم.

5 ـ فتنة كبيرة تمزق الشمل، وتخلّف وراءها أحزاباً تتجالد، وعصبيات تتنازع، ومفاخرات ومناقضات ومحاورات في السياسة والاجتماع وغيرها.

في كل هذه الأمور كان للخطابة شأنها، وكان لها الدور الريادي والخطير في تلك الحقبة الحاسمة من حياة الأمة الاسلامية.

---

(1) انظر العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 31/2 وما بعدها وخاصة حديث الرسول ﷺ مع جرير بن عبد الله البجلي 49/2.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

3 ـ أغراض الخطابة الاسلامية.

للخطابة في عصر صدر الإسلام غايات وأهداف، عملت على تحقيقها، أهمها:

أ ـ نشر الاسلام، بدعوة الناس إلى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشرح آداب الدين ونشر فضائله وتوضيح أسراره، وتبيان مزاياه، وتوجيه الناس إلى ما يصلحهم في دنياهم ويسعدهم في أخراهم. بدلاً من عبادة الأوثان والمفاخرات والمنافرات التي كانت تهدف إليها الخطب في الجاهلية.

ب ـ الحث على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، وينتشر دينه في جميع نواحي المعمورة، وذلك تنفيذاً لأوامره، وابتغاءً لمرضاته، للحصول على ما وعد به من أجر عظيم، وهذا بدلاً مما عرفه الجاهليون من حضّ على القتال بين القبائل لنزاعٍ على موارد العيش أو على الشرف والرياسة.

ج ـ الحث على السعي في الحياة الدنيا لتأمين العيش الكريم، إلى جانب الدعوة إلى الزهد وإلى ترك الانغماس في ملذات الدنيا ونعيمها، فنعيم الجنّة خير وأبقى.

د ـ توضيح نظم الحياة التي ينبغي أن تقوم عليها الدولة الإسلامية من مساواة في الحقوق، وعدالة اجتماعية، وتعاون ضمن آداب رفيعة وسلوك سامي في سبيل الحق والخير. وتوضيح العلاقات بين الأفراد القائمة على مبدأ الأخوّة، والعلاقات الزوجية، ووضع الحلول لمشاكل المجتمع من رقٍّ وعبودية وتوزيع الثروة، ومشكلة الفقر، وغيرها بما يحقق سعادة الجنس البشري ورفاهيته. وهكذا نرى أن الخطابة كانت في عصر صدر الاسلام موضّحة لمضمون آي الذكر الحكيم وسنّة النبيّ الكريم، ثم تحوّلت في بعض مجالاتها إلى دفاع عن رأي، أو تحمّس لمبدأ، أو شرح لنهج سياسي وبما أنه كان للخطابة هذا الدور الخطير، فما هي خصائص الخطابة الاسلامية؟

4 ـ خصائص الخطابة الاسلامية

تمتاز الخطابة في صدر الاسلام بأشياء أهمها:

أ ـ أنها كانت تسلك مسلكاً دينياً مفروضاً في مثل خطب الجمع والعيدين والحج والمناسبات وذلك لخدمة الدعوة الاسلامية ونشر مبادىء الدين الجديد وتشريعاته. والخطبة في الجمع قبل الصلاة بينما هي في الأعياد بعد الصلاة.

ب ـ للخطبة سنن وتقاليد منها ما ثبت إلى اليوم: يصعد الخطيب المنبر أو نشز من الأرض، يقبل على المصلّين بالتحية والسلام، ثم يجلس لسماع الآذان، وبعدها تبدأ الخطبة الأولى بحمد الله وشهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، ويتلو الخطيب بعض آي القرآن الكريم حتى يستلهمها في موعظته، وإذا انتهى منها جلس، ثم يقوم للخطبة الثانية وفيها يكثر من الدعاء. وإذا لم تستفتح الخطبة بالتحميد يسمّونها البتراء وإذا لم توشّح بالقرآن وتزيّن بالصلاة على النبي ﷺ يسمونها الشوهاء[*].

قال صاحب عيون الأخبار: «تتبّعتُ خُطب رسول الله ﷺ، فوجدت أوائل أكثرها: «الحمدُ لله نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكّل عليه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»... ووجدت كلّ خطبة مفتاحها: الحمدُ إلاّ خطبة العيد فإنّ مفتاحها التكبير»[1].

وقال صاحب العقد الفريد: «وكان آخر دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته: اللهم اجعلْ خيرَ زماني آخرَه، وخيرَ عملي خواتِمَه، وخير أيامي يومَ لِقائك»[2].

ج ـ من عادة الخطباء أخذ المخصرة والاتكاء عليها أو القنا أو القسيّ، ولزومهم العمائم في أيام الجموع، وقيامهم في جميع أنواع الخطب، وجلوسهم في خطب النكاح. وقد يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام[3]. قال عبد

(*) البيان والتبيين ـ الجاحظ 215/2.

(1) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة 231/2.

(2) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 222/3.

(3) البيان والتبيين ـ الجاحظ 395/3.

الملك بن مروان: لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي؛ وأراد معاوية، سحبان وائل، على الكلام، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة[1].

د ـ كانت الخطب تميل إلى الإيجاز في غير عجز وقصر الفقرات، وجزالة اللفظ وفصاحة العبارة، وكان الخطباء إلى جانب استشهادهم بالآيات القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ يستشهدون بالحكم والأمثال والشعر، وذلك لتأكيد المعنى وزيادة التأثير في نفوس السامعين وإقناعهم على نحو ما نجد في خطبة لأبي بكر في الأنصار، فقد استشهد بشعر «طفيل الغَنَوي» حيث يقول:

جزى اللّهُ عنّا جعفراً حين أَزْلَقَتْ ... بنا نعلُنا في الواطئين فَزَلَّتْ
أبـوْا أن يـمـلّـونـا ولـو أنّ أمُّـنـا ... تُلاقي الذي يَلْقَوْنَ منّا لَمَلَّتِ
هُـمُ أسكـنونا فـي ظـلال بـيوتـهـم ... ظـلال بـيـوتٍ أدفـأتْ وأظـلّـتِ[2]

وكان الخطباء يجرون مع الطبع والفطرة ويكرهون التكلف والصنعة، ويتجنبون الأسجاع وذلك لكراهتها، لأن كهّان العرب في الجاهلية كانوا يحكمون بالأسجاع، فوقع النهيُ في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيّتها فيهم وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم. وقد كان الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة، فلم ينهوا منهم أحداً[3].

هـ ـ كان للخطابة تأثيرها الكبير، لأن الخطيب كان مندفعاً بقوة إيمانه وشدة عاطفته وكان حريصاً على إقناع الآخرين بأسلوب يحاكي الأسلوب القرآني. لذلك نجده يلجأ إلى أساليب التوكيد بالتكرار والقسم وغيرها وإلى الأساليب الانشائية كالاستفهام والتعجب ونحوها، فهو ليّن هادىء، أو ثائر عاصف، على حسب المقتضيات، ووفقاً للأحوال، وبذلك تصل إلى قرارة النفوس وتمتلك الوجدان والشعور بوعظها الزاجر، ونصحها البالغ، مما يُرَقِّق القلوب القاسية، ويُسيل الأعين الجامدة. ولبلوغ تلك الغاية، كان الخطيب يلجأ أحياناً

(1) البيان والتبيين ـ الجاحظ 445/3.
(2) زهر الآداب ـ القيرواني 71/1.
(3) البيان والتبيين ـ الجاحظ 155/1.

إلى إعداد الخطبة، فقد ذكر ابن قتيبة ما يلي: «ولما وَلِيَ عثمان (بن عفان) صعِد المنبر فقال: رحمهما الله، لو جلسا هذا المجلس ما كان بذلك من بأس، فجلس على ذِرْوة المنبر فرماه الناس بأبصارهم، فقال: إنّ أوّلَ مركبٍ صعبٌ، وإنّ مع اليوم أياماً، وما كُنّا خُطَباء، وإن نَعِشْ لكم تأتكم الخطبةُ على وجهها إن شاء الله تعالى»[1]. واللافت العبارة الأخيرة، فعثمان رضي الله عنه يعترف بأنه لم يكن خطيباً، ويَعد الناسَ بالخطبة في وقت لاحق أي بَعد أن يتمّ إعدادُها.

وذكر صاحب البيان والتبيين: «قال عبد الله بن مسعود: حَدِّثْ الناسَ ما حدجوك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم، فإذا رأيتَ منهم فَتْرَة فَأَمْسِكْ»[2]. فهو رضي الله عنه يرشد الخطباء إلى أصول الخطابة ويطلب مراعاة الحالة النفسية عند الناس، ومدى استعدادهم للاستيعاب.

و ـ وامتازت الخطابة في صدر الاسلام أيضاً بوحدة الموضوع، وبتوجيه الفكر وجهة جديدة تحت تأثير القرآن والحديث النبوي، فتغيّرت المُثُل والقيم والمفاهيم، وتأثّرت بالأحداث الكبيرة المتلاحقة، وبثقافات الشعوب الأخرى التي انضوت تحت لواء الاسلام، وأفسحت صدرها للأفكار السياسية والاجتماعية، وأَذْلَتْ بدلوها في المعارك والفتوحات، فكم من قائد وقف خطيباً يحث جنوده على الجهاد ونشر الدين الحنيف في مشارق الأرض ومغاربها، ويحضهم على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب، ولا نغالي إذا قلنا إن كثيراً من البلدان لم تُفتح إلاّ بعد أن فَتَحَتْهُ خطبةُ أحد هؤلاء القواد. فها هوذا خالد بن الوليد يخاطب جنود المسلمين وقوادهم في معركة اليرموك قائلاً: «إنّ هذا يوم من أيّام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإنّ هذا يومٌ له ما بعده... هَلُمّوا فإنّ هؤلاء تهيئوا، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم، وإن هزمونا لم نُفْلح بعدها»[3].

(1) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة 235/2.

(2) البيان والتبيين ـ الجاحظ 70/1.

(3) تاريخ الطبري 395/3.

وهكذا فعل أيضاً سعد بن أبي وقّاص في معركة القادسية، فقد وقف خطيباً قائلاً بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه: «إنّ الله هو الحقُّ لا شريك له في المُلك، وليس لقوله خلْف، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿**ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذِّكْرِ أنّ الأرضَ يَرِثُها عبادِيَ الصالحونَ**﴾. إنّ هذا ميراثكم وموعِدُ ربِّكم... وأنتم وجوه العرب وأعيانُهم، وخيارُ كلّ قبيلة، وعِزُّ مَنْ وراءَكُم، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة، جمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يقرّب ذلك أحداً إلى أجلِه، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعُفوا تذهبْ ريحُكم، وتُوبِقوا آخرتَكُم»[1].

ز ـ امتاز عصر صدر الإسلام بكثرة الخطباء وذلك لفطرتهم العربية ولمحلّهم من الفصاحة والبيان، وانطباعهم على أساليب القرآن، واتساع مداركهم، وفي طليعتهم الخطيب الأول الزعيم الروحي النبي محمد ﷺ ثم يليه الخلفاء الراشدون، ثم سحبان وائل وزياد بن أبيه وكثير غيرهم ذكر قسم كبير منهم الجاحظ في البيان والتبيين[2].

وموجز القول في الكلام عن الخطابة أنه يستجاد أن يكون أسلوبها جارياً على السجيّة، غير متكلّف، وألاّ تغمض معانيه على السامعين، ولهذا يتغيّر الأسلوب، وتختلف العبارات والألفاظ على حسب من توجّه إليهم الخطبة. وإذا كانت الخطابة قد نشطت في عصر صدر الاسلام لكثرة دواعيها وخاصة في مرحلة الخلافات التي استفحل أمرها بين المسلمين وكذلك فترة الفتوحات ونحوها، فإنه لن يغيب عن أذهاننا عامِلٌ كان له دور كبير في ازدهار الخطابة، هو ما أسبغه الإسلام على المجتمع من حرّية وصراحة واسعة حيث يستطيع أي إنسان أن ينتقد ويناقش ويحاسب، وهذه الحريّة قد اتسع مداها حتى شملت النساء، فكان بعضهن يأتي إلى الرسول ﷺ لمناقشة بعض الأمور، وأخرى نجدها تعترض الخليفة عمر بن الخطاب وتناقشه فيقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر». وكانت عائشة أم المؤمنين تخطب لتردّ على

---

(1) تاريخ الطبري 531/3.

(2) البيان والتبيين ـ الجاحظ 187/1.

خصوم أبيها. وكانت أم الخير بنت الحريْش الباروقية تخطب لعليٍّ كرّم الله وجهه فتلهب النفوس وتثير الحماس[1].

5 ـ نماذج من الخطابة الاسلامية

أ ـ خطابة الرسول ﷺ: على هدي القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية بما أوتيَ من البلاغة والفصاحة فكان تارة واعظاً وطوراً مشرّعاً، وأخرى قد يجمع بين الطرفين من الوعظ والإرشاد في نسيج بلاغيّ رائع. وفي أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات وأحياناً يوجزها بعشر كلمات[2].

غير أنّ كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيّم إلاّ بأطراف قليلة، ولعلّ مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبه وعصر التدوين، فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلاّ بقايا قليلة.

واللافت أن صاحب كتاب حياة الصحابة جمع أكثر من أربعين خطبة نسبها إلى النبي ﷺ، وقد أوردها بتفاصيلها وأسانيدها. وتحت عنوان: أول خطبة لمحمد رسول الله ﷺ يقول: «أخرج البيهقي عن أبي سلَمَة بْن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، أيّها الناس فقدموا لأنفسكم، تَعَلَّمُنَّ والله ليصعَقَنَّ أحدكم، ثم لَيَدَعَنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولنَّ له ربّه ـ وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ـ: ألم يأتِكَ رسولي فبلَّغك، وآتيتكُ مالاً، وأفضلتُ عليك؟ فما قدّمتَ لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدّامه فلا يرى غير جهنّم، فمن استطاع أن يقيَ وجهه ولو بشقّ تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته». وقد ذكر ابن هشام هذه الخطبة في السيرة النبوية حيث ذكر أيضاً

---

(1) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ـ محمد عبد المنعم الخفاجي ـ ص 119 ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1973.

(2) حياة الصحابة ـ محمد يوسف الكاندهلوي 426/3 ـ وانظر البيان والتبيين ـ الجاحظ 160/1.

أنها أول خطبة خطبها الرسول ﷺ[1]. وتجدر الإشارة أنّ خطبة أول جمعة هي غير هذه التي ذكرناها آنفاً.

وورد في حياة الصحابة، عن آخر خطباته ﷺ، ما يلي: - أخرج الطبراني عَن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «صبّوا عليَّ من سبع قرب من آبار شتّى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم» قال: فخرج عاصباً رأسه ﷺ حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إنّ عبداً من عباد الله خيِّر بينَ الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله». فلم يُلَقَّنْها إلاّ أبو بكر رضي الله عنه، فبكى فقال: نفديك بآبائنا وأمهاتنا وأبنائنا. فقال رسول الله ﷺ: «على رسلك، أفضل الناس عندي في الصحبة وذات اليد ابن أبي قحافة، انظروا هذه الأبواب الشوارع في المسجد فسدّوها، إلاّ ما كان من باب أبي بكر، فإنّي رأيت عليه نوراً»[2].

وهكذا نلاحظ أن الرسول ﷺ يبدأ خطبه بحمد الله والثناء عليه، وهذا إقرار بوحدانية الله، وأنّه لا إله إلا هو، وليس هناك من معبود سواه، ثم نراه في الخطبة الأولى يحضّ الناس على البر والتقوى وعمل الخير قبل فوات الأوان، فليقدموا لأنفسهم من أعمال الخير، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وهذا ترغيب بالاقبال على تلك الأعمال، وإنه يرهبهم من الموت ويضرب لهم مثلاً من واقع حياتهم، مَثَلُ الانسان الذي يموت كمثل الراعي الذي يُقتل تاركاً ماله وغنمه هائمة ليس لها راع، وحينها سيحاسبه ربّه عما قدّم من أعمال، ولن يكون هناك من مجال للتهرّب خاصة بعد أن جاء الرسول ﷺ مبشراً ومنذراً وبعد أن أغدق الله على عبده الكثير من نعمائه. ويبيّن الرسول للناس أن سلوك طريق الجنة سهل، قد يكون بشق تمرة يتصدّق بها على محتاج، فإن لم يجد فبكلمة طيّبة.

أما في الخطبة الثانية، فإننا نلاحظ أن النبيّ ﷺ لما شعر بدنوّ أجله أراد

---

(1) حياة الصحابة - الكاندهلوي 391/3 - السيرة النبوية 500/2.

(2) حياة الصحابة - الكاندهلوي 424/3.

أن يوجّه الناس إلى من يستلم زمام الأمة، فأشار إلى أبي بكر، وأنه هو اختار جوار ربّه، ففهم أبو بكر بقرب وفاة الرسول.

لا شك أن النبي محمد ﷺ أوتيَ من اللَّسَنِ والفصاحة ما ملَك به أزمَّة القلوب، وإنّ ما أُثر عنه من أحاديث وخطب خير شاهد على ذلك، ولعلّ أشهر خطبة له تلك الخطبة التي ألقاها في حجّة الوداع بعد أن شعر بدنوِّ أجله، وهي تجري على هذا النّمط:

«الحمدُ لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد أيها الناس، اسمعوا منّي أبيّن لكم، فإنّي لا أدري، لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوْا ربّكم كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها. وإنّ ربا الجاهلية موضوع[1]، وإنّ أوّلَ رباً أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب، وإنّ دماءَ الجاهلية موضوعة، وإنّ أولَ دمٍ نبدأ به، دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإنّ مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة[2]، والسقاية[3]، والعَمْدُ قَوَدٌ[*]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مئة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

---

(1) موضوع: ساقط محرّم.

(2) السدانة: خدمة الكعبة.

(3) السقاية: سقاية الحجاج.

(*) القَوَد: القصاص، أي من قتل عمداً يُقتل.

أيها الناس، إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضيَ أن يطاعَ فيما سوى ذلك مما تَحْقرّون من أعمالكم.

أيها الناس، «إنما النّسيء[1] زيادةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ به الذين كَفَرُوا، يُحِلُّونه عاماً، ويُحرِّمُونَه عاماً، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللّهُ فيُحلُّوا ما حرّم الله..» وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خَلَقَ اللّهُ السموات والأرضَ. و«إنّ عِدةَ الشهورِ عند الله اثنا عشرَ شهراً في كتاب الله يوم خلَق السموات والأرض منها أربعة حُرُم». ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب الذي بين جُمادي وشعبان.

ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، إنّ لنسائكم عليكم حقّاً ولكم عليهنّ حقٌّ: لكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يُدْخِلْن أحداً تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فَعَلْنَ فإنّ الله قد أَذِنَ لكم أن تَعْضِلُوهُنّ[2] وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهنّ ضرباً غير مُبَرِّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقُهنّ وكسوتُهُنّ بالمعروف. وإنما النساءُ عندكم عَوانٍ[3] لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنّ خيراً.

ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لامرىءٍ مالُ أخيه إلاّ عن طيب نفس منه.

ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

فلا ترجعُنَّ بعدي كفّاراً يضرب بعضُكم رقاب بعض، فإنّي قد تركت فيكم، ما إن أخذتم به، لم تضلّوا بعده، كتاب الله.

ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

---

(1) النسيء: أي التأخير لحرمة شهر. إلى آخره كما كانت الجاهلية تفعله من تأخير حرمة المحرّم إذا هلّ وهم في القتال إلى صفر. سورة التوبة ـ الآية 37 وانظر تفسير الجلالين.

(2) تعضلوهن: تضيّقوا عليهن.

(3) عوان: أسيرات.

أيّها الناس، ربّكم واحد، وإن أباكم واحد، كلّكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربيّ على عجميّ فضلٌ إلا بالتقوى.

ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد. قالوا: نعم. قال: فليبلّغ الشاهدُ الغائبَ.

أيّها الناس، إنّ الله قد قَسَم لكلّ وارثٍ نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارثٍ وصيّة، ولا يجوز وصيّة في أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحَجَرُ، من ادَّعيَ إلى غير أبيه، أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبلُ منه صرف[1]، ولا عدل[2]. والسلام عليكم ورحمة الله»[3].

من هذه الخطبة العظيمة نستنتج أموراً كثيرة منها:

أ ـ إنّ النبيّ ﷺ قد أوتيَ من البلاغة والفصاحة الشيء الكثير فهو خير ناطق من البشر مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وَحْيٌ يوحى، علّمَه شديدُ القُوَى﴾**[4]. وقد تجلّى ذلك في إيجاز كَلِمه، ونصاعة لفظه، وصحّة معانيه.

ب ـ شعر النبيّ ﷺ بدنوّ أجله، فاستغلّ مناسبة الحج، مناسبة اجتماع المسلمين من كلّ حدب وصوب، وكانت حَجّة الوداع هي في الوقت عينه حَجّة البلاغ وذلك أنه لم يحج بعدها.

ج ـ لقد زوّد الرسول ﷺ الناس بالوصايا الثمينة التي ظلّت مناراً يستضيئون بها في مسالك حياتهم المظلمة. ووضع لهم القواعد الصلبة لتعاليم الاسلام وتوجيهاته.

د ـ لقد علّم الرسول ﷺ أصحابه قواعد الخطابة الإسلامية التي اتخذوها سنّة لهم، من حيث طريقة استهلال الخطبة، وطرق الموضوع، والخاتمة.

---

(1) صرف: توبة.

(2) عدل: فدية.

(3) البيان والتبيين ـ الجاحظ 228/2 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 57/4، وقارن مع تاريخ الطبري 150/3 (بين الخطبة هنا وهناك بعض الخلاف).

(4) سورة النجم: الآية ٣ ـ ٤ ـ ٥.

مضمون الخطبة

استهلّ رسول الله ﷺ خطبته بالحمد لله، والاستغفار، وإعلان التوبة، وطلب العون، والشهادة بوحدانية الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ثم أوصى الناس بالتقوى حتى انتقل يبيّن طائفة من التشريعات الاسلامية التي أقامها الدين حدوداً بين الجاهلية والإسلام، ودستوراً لمستقبل حياة الأمة.

وهي كما يلي:

1 ـ الدعوة إلى توحيد الله والإيمان الكامل.

2 ـ تحريم القتل والأخذ بالثأر، وردّ دم القتيل إلى الدولة فهي التي تعاقب عليه، وأوجب في قتل العمد، القود، للحدّ من القتل والقضاء على الحروب الداخلية، وقد أسقط دماء الجاهلية، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. فهي دعوة للتنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم. ليعيش أبناء الأمة تحت لواء الإسلام في أمان وإستقرار ووئام. وهي دعوة إلى وجوب احترام حقوق الإنسان في نفسه.

3 ـ تحريم الاعتداء على أموال الآخرين من أي نوع كان، فمن كان عنده أمانة فليؤدّها إلى صاحبها، ثم حرّم الرّبا، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر «العباس بن عبد المطلب»، فأسقط عن رقاب المدينين له رباه، وأوجب على كل مسلم أن يرعى أخاه في ماله، فلا يأخذ منه شيئاً إلاّ بالحق. «لكم رؤوس أموالكم». وهي دعوة إلى وجوب احترام حقوق الإنسان في ماله.

4 ـ لم يُبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج.

5 ـ التحذير من الشيطان وغواياته ومنها التلاعب بالأشهر الحرم كما كان يحصل في الجاهلية، فالنسيء زيادة في الكفر، وحدّد لهم التقويم القمري من اثني عشر شهراً منها أربعة حُرُمٌ: ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم ورجب.

6 ـ التأكيد على حقوق المرأة وحقوق الزوج وواجبات كلّ منهما، والرفع من شأن المرأة وحفظ كرامتها كما يحفظ للزوج كرامته، داعياً إلى التعاطف والتراحم فيما بينهما والتعامل برفق وإحسان.

7 ـ التأكيد على أُخوّة المؤمنين، وعلى صيانة الروابط الأخوية، ومن نقض ذلك عاد إلى الكفر، وإذا حصل أي خلاف يجب العودة إلى القرآن فهو يحكم في أمرهم. وبذلك نبذ للحياة القبليّة.

8 ـ إعلان المساواة بين بني الإنسان في الحقوق والواجبات بغضّ النظر عن لونه وجنسه، ولم يعد التفاخر بالحسب والنسب مشروعاً، وأصبح التفاخر بالتقوى وبما يقدمه المرء من خير لأبناء مجتمعه.

9 ـ توجيه الناس إلى ما قرّره القرآن بشأن الميراث وأنصبته.

10 ـ إعلان قاعدة شرعيّةِ الأبناء، فالابن ينسب إلى والده الفعلي، ولا يجوز نسبته إلى غيره، أو لا ينسب أبداً وخاصة الذين تلدهم العواهر، وهذا ما كان يحصل في الجاهلية.

11 ـ لقد أشهد الرسولُ ﷺ اللّهَ والناسَ على أنّه بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة وطلب من الشاهد أن يبلغ الغائب، وكأنها دعوة منه إلى تبليغ رسالته إلى الناس كافّة.

إنّ هذه الخطبة هي أطول خطبة وصلت إلينا لرسول الله ﷺ، وتتميّز عن غيرها بكثرة ما تتضمنه من تشريعات وأحكام تنظم حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية. وجاءت صياغتها اللغوية بأسلوب فريد من نوعه، فقد فتق الرسول ﷺ معاني هذه الخطابة الدينيّة التي لم يعرفها العرب قبله، بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده، وذلك بأسلوب سهل ممتنع، ولفظٍ محبّبٍ إلى النفوس لحلاوته وعذوبته، وهي تحتذي أسلوب القرآن الكريم وطريقة تصويره وجمال تعبيره.

ب ـــ خطابة الخلفاء الراشدين: انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربّه، تاركاً صحبه مشبعين بنور الإيمان، تمثل الإسلام في عقولهم وقلوبهم، ومنهم الخلفاء الراشدين، الذين استلموا زمام الأمور، وكانت خطبهم استمراراً لترسيخ التعاليم الاسلامية في نفوس الناس، وللعمل على نشر تلك التعاليم في مشارق الأرض ومغاربها.

وكان أول الخلفاء الراشدين أبو بكر الصديق، وهو خير من يمثّل المسلم بأخلاقه وفضائله وتأثره بهدي القرآن الكريم وبسنّة الرسول تأثراً استحوذ على

كل مشاعره، وكان هذا جليّاً في أصعب الأوقات. فقد ورد عن حال بعض الصحابة عندما بلغهم موت الرسول، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كذّب بموته، وعثمان رضي الله عنه كان ممّن أُخرس، وعليّ رضي الله عنه كأنّما صُرع ولم يبرحِ البيت حتى دخل أبو بكر، ثم خرج إلى الناس وهم في شديد غَمَراتهم، وعظيم سَكَراتهم، فخطب في الناس ومما قاله: «أيها الناس، من كان يَعْبُدُ محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبدُ الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامينَ بالقسط، ولا يشغلنّكم الشيطانُ بموت نبيّكم...»[1].

ثم إنّ الأنصار اجتمعوا في ظُلّة بني ساعدة، يريدون مبايعة أحدهم للخلافة وهو «سعد بن عبادة» فانطلق أبو بكر وعمر حتى أتياهم، فأراد عمر أن يتكلم، فنهاه أبو بكر وخطب في الناس ومما قاله: «أيها الناس، نحن المهاجرون أوّل الناسِ إسلاماً... وقدّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿**والسّابقونَ الأوّلونَ من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان..**﴾ فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدّين» فلم يترك شيئاً نزل في الأنصار من شأنهم إلاّ وذكره. وقال: «ولقد علمتَ يا سعد أنّ رسول الله قال وأنت قاعدٌ: قريش ولاةُ هذا الأمر.. فقال سعد: صدقت فنحن الوزراء وأنتم الأمراء.. فقال عمر: أبسُط يدك يا أبا بكر فلأُبايعك. فقال أبو بكر: بل أنت يا عمر، فأنت أقوى لها منّي.. ففتح عمر يد أبي بكر وقال: إنَّ لك قُوّتي مع قُوّتك. ثم بايع الناس[2].

لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المِنْبَر، فقام عمر فتكلم وطلب من الناس مبايعة أبي بكر مبايعة عامّة ففعلوا. ثم تكلم أبو بكر، فحمد اللّهَ وأثنى عليه بالذي هو أهلُه، ثم قال: أما بعدُ أيها الناس؛ فإنّي قد وُلّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوّموني الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أريح عليه حقّه

---

(1) زهر الآداب ـ الحصري القيرواني 68/1 وانظر تاريخ الطبري 202/3.

(2) تاريخ الطبري 203/3 ـ وانظر العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 58/4 ـ وانظر عيون الأخبار ـ ابن قتيبة 233/2.

إن شاء الله، والقويُّ منكم الضعيف عندي حتى آخذ الحقَّ منه إن شاء الله. لا يَدَعْ أحدٌ منكم الجهاد في سبيل الله، فإنّه لا يَدعُه قومٌ إلاّ ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلاّ عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعتُ الله ورسولَه، فإذا عصيتُ اللّهَ ورسولَه فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله»[1].

نلاحظ مما سبق رباطة جأش أبي بكر في أصعب المواقف وكيف أنه تمكن من إعادة الناس إلى رشدهم ووعيهم بكلامه المقنع وحجته الدامغة مستشهداً بالآيات القرآنية: **﴿وما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل...﴾** الخ.. ثم إنه كيف تمكن بأسلوبه المنطقي، إقناع الأنصار وجمع شمل المسلمين. وبعد أن أصبح أميراً للمؤمنين وجدناه يعلن عن التزامه بأحكام الدين، فهو قويّ بإيمانه حازم في ردّ الحقوق لأصحابها، وهو لا يدّعي العصمة في قول أو عمل، ولا يدّعي أنه أفضل الناس؛ وهل هناك من ديمقراطية أسمى من تلك التي يطلبها الخليفة من الشعب؟ إنه يطلب من الرعيّة أن تراقب أعماله وتحاسبه، فإن كان على حق، يطلب مؤازرة الناس له وتأييدهم، وإن أساء فعليهم التمرّد عليه وعصيانه. وهو يحث الناس على الصدق في كل شيء والابتعاد عن الكذب لأنه خيانة. ويحثهم على الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية؛ وحاول التهويل عليهم من انتشار الفاحشة لأنهم بذلك سيعمّهم الله بالبلاء. ولعلّ خير ما توصف به هذه الخطبة قول عمر بن الخطاب فيها: «لم أَرَ أقلَّ منها في اللفظ ولا أكثر في المعنى»[2].

ويستمر عصر الخلفاء الراشدين فتكثر المواقف، وتكثر الخطب فيها، إلى جانب خطب الجمع والأعياد لأن هذه كما ذكرنا فرضاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يحلّون فيه، وتتجلّى فيها جميعها براعة الخلفاء في فنّ الخطابة.

---

(1) تاريخ الطبري 210/3 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 59/4 ـ وقارن مع حياة الصحابة ـ الكاندهلوي 427/3، وعيون الأخبار ـ ابن قتيبة 234/2.

(2) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرّد 8/1.

وتزداد خطب أبي بكر في الجيوش الغازية يحضها على الجهاد ونشر الدين الإسلامي، ويرشد قادتها إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من وعي لواجباتهم وحرصهم على عسكرهم، واحتراس من عدوهم، فإن امتثلوا كُوفئوا وإن أهملوا عُزلوا. ومما قاله إلى يزيد بن أبي سفيان قائد جيوش المسلمين إلى بلاد الشام: «إنّي موصيك بعشر: لا تغدر، لا تمثّل، ولا تقتل هَرِماً ولا امرأة ولا وليداً، ولا تعقِرنْ شاة ولا بعيراً إلاّ ما أكلتم، ولا تَحرقنّ نخلاً، ولا تُخربَنّ عامراً، ولا تَغُلّ، ولا تَبْخس[1].

ويتولّى عمر بن الخطاب شؤون المسلمينْ بعد أبي بكر، فيُكثِر من الخطابة، إثر كلّ حادث، ومع كلّ خبر يأتيه بفتح، وسار على نهج سلفه في المواعظ والحضّ على الجهاد، وحتى في وصاياه لأمراء الجيوش. فقد ذكر النويري في نهاية الأرب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول عند عقد الألوية: باسم الله، وبالله وعلى عون الله، أمضوا بتأييد الله والنصر ولزومُ الحقّ والصبر، فقاتلوا في سبيل الله مَن كَفَرَ بالله، ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين؛ ولا تجبنوا عند اللّقاء، ولا تُمثّلوا عند القدرة، ولا تُشرِفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هَرِماً ولا امرأةً ولا وليداً، وتَوَقَّوْا قتلهم إذا التقى الزَّحفان وعند شنّ الغارات»[2]. هذه هي الآداب الإسلامية تتجلّى أثناء الفتوحات، ولذلك قيل: لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب.

ويتولّى عثمان بن عفان رضي الله عنه، أمر المسلمين، ويبدو أنه لم يكن على مستوى سلَفيْه في الخطابة وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك نقلاً عن ابن قتيبه، وأنه لمّا وَلِيَ أمر المسلمين صعد المنبر فارتجّ عليه[3]. ولكن هذا لم يمنعه من خطب قالها في مناسبات أخرىْ يغلب عليها الزهد في الدنيا وحث الناس على ذلك، بتقوى الله والعمل الصالح ووحدة الصف[4]. وحين حصلت الأحداث

---

(1) العقد الفريد - ابن عبد ربّه 128/1.

(2) نهاية الأرب - النويري 168/6 - عيون الأخبار - ابن قتيبة 107/1.

(3) عيون الأخبار - ابن قتيبة 235/2 - نقد النثر - قدامة بن جعفر - ص 109.

(4) تاريخ الطبري 422/4.

الجسيمة في أواخر عهده، أخذت الخطابة مكانها فيها، فمن مدافع عن الخليفة وأعوانه، ومن مهاجم له ولأعوانه يؤلّبُ الناس عليهم.

وبعد عثمان رضي الله عنه، تولى مقاليد الخلافة الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وزاد سعير نار الفتنة، وانقسم المسلمون إلى شِيَعٍ وأحزاب، وانتشرت الخطابة في كل مكان، فهؤلاء يدعون إلى طاعة عليّ وآخرون إلى منابذته وإلى طاعة معاوية، وفريق ثالث يحضّ على قتال الاثنين. ولا شك أن الإمام علي كان له دوره الكبير في الخطابة، كيف لا؟ وهو خليفة المسلمين والمدافع الأول عن أحقّيته بالخلافة، وقد اشتُهر بخطبه المدوّية، لِمَا أُوتيَ له من العلم والبلاغة، فقد تربّى في أحضان الرسول ﷺ وارتوى من معين كتاب الله. وقد نُسِبَ إليه كثير من الخطب منثورة هنا وهناك وجلّها موجود في كتاب نهج البلاغة الذي اختُلِف في أَمْرِهِ إذ يرى البعض أن هناك شكوكاً كثيرة في صحة نسبته للإمام، بينما يؤكد ذلك آخرون.

وان كثرة الوضع على لسان الإمام عليّ لا يغيّر من الواقع شيئاً، وهو أنّ علياً كان أخطب الخلفاء الراشدين، إنه الخطيب المفوّه الذي لا يُشَقُّ غُباره، تتدفّق البلاغة على لسانه ويجول بيانه في كل مجال، وله خطب عديدة منثورة في المصادر القديمة التي سبقت ولادة نهج البلاغة بأمد طويل، إذ إنّ الشريف الرضي، جامع كتاب نهج البلاغة ولد سنة تسع وخمسين وثلاثمائة هجرية[1]؛ بينما محمد بن جرير الطبري مثلاً، كان مولده أوّل سنة خمسٍ وعشرين ومائتين هجرية[2]. لذلك اخترنا هذه الخطبة للإمام من تاريخ الطبري وهي واحدة من عشرات الخطب التي ذكرها له، وكانت أثناء معارك صفين بين جيوشه وجيوش معاوية يقول فيها:

«اللهمّ ربَّ السقف المرفوع، المحفوظ المكفوف، الذي جعلته مَغيضاً للّيل والنهار، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ومنازل النجوم، وجعلت سكّانه سِبْطاً من الملائكة، لا يسأمون العبادة. وربَّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً

(1) نهج البلاغة ـ المقدمة للشيخ محمد عبده ص 6.

(2) معجم الأدباء ـ ياقوت الحموي 40/18.

للأنام، والهوامّ والأنعام، وما لا يُحصى مما لا يُرَى ومما يُرَى من خَلْقك العظيم. وربّ الفُلْك التي تجري في البحر بما يَنْفع الناس، وربّ السحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وربّ البحر المسجور المحيط بالعالم، وربّ الجبال الرَّواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً، وللخلق متاعاً؛ إن أظهرتَنا على عدوّنا فجنِّبنا البغيَ، وسدِّدنا للحقّ، وإن أظهرتَهم علينا فارزقني الشهادة، واعصم بقيّة أصحابي من الفتنة»[1].

والآن بعد أن ذكرنا جانباً من كلام أمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، يمكننا أن نقول: إنّ الإمام كان من أعلام البلغاء والخطباء في عصر صدر الإسلام، فهو ينطق بجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينيّة والدنياويّة، فقد تفقّه الكتاب والسنّة، وتفوّق في العلم والمعرفة، وسيبقى كلامه منهلاً لرواد اللغة والأدب، يستمتعون بمضامينه، ويحفظون روائعه.

إنّه الإنسان المؤمن الذي يناجي ربّه معدّداً آياته في خلق السماوات والأرض، يتوسّل إليه بقدرته العظيمة، إنْ نصره على أعدائه أن يُجنبه ظلم الآخرين وأن لا ينخدع وجماعته بنشوة النصر، وإن كان النصر مكتوباً لأعدائه، فيتمنّى على الله أن يموت شهيداً في سبيل الله وأن لا يرى ذلّ الهزيمة وأن يعصم أصحابه من الفتنة بعد وفاته.

مما تقدم نلاحظ كيف ارتقت الخطابة في عصر صدر الاسلام، وكيف تحوّلت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالُهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة، كما أخذت تتشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرةً، وهي في كل ذلك تستمد معانيها وأساليبها من القرآن الكريم وسنّة النبيّ الأمين.

ب ـ الكتابة

1 ـ لمحة حول الكتابة في العصر الجاهلي

عرف العرب الجاهليّون الكتابة في مجتمعاتهم، قبل الاسلام بفترة من

(1) تاريخ الطبري 14/5.

الزمن قد تتعدّى القرنين، وذلك بدليل وجود الألوف من النصوص الجاهلية التي عثر عليها في أنحاء مختلفة من جزيرة العرب، وكان أقربها إلى عربيتنا، الكتابة المعروفة بـ(نص النمارة)، وهي شاهد قبر امرىء القيس المتوفى سنة (328) ميلادية والنصوص الأخرى التي كتبت بعده ومنها الكتابة المعروفة بـ(أم الجمال) الثانية وهي كتابة جاهلية أصيلة مدوّنة بلغة القرآن والشعر الجاهلي ويعود تاريخها إلى أواخر القرن السادس الميلادي[1].

وتشير بعض المصادر إلى وجود معلمين في الجاهلية، فقد عقد كلٌّ من ابن حبيب في (المحبر) وابن رسته في (الأعلاق النفيسة)، فصلاً خاصاً أثبت فيه جريدة بأسماء المعلمين في الجاهلية والإسلام، ومن هؤلاء المعلمين في الجاهلية: عمرو بن زُراراة، وغيلان بن سلمة بن معتِّب الذي أسلم يوم الطائف، والطائف هي التي أخرجت يوسف بن الحكم الثقفي وابنه الحجاج وكانا من المعلمين فيها[2].

وذكر البلاذري: كان الكتّاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلاً، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكان تعلّمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون[3].

وذكر البلاذري أيضاً: دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلُّهم يكتب. وقد ذكر أسماءهم جميعاً، منهم: عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم.. ولم يكن الرجال وحدهم هم الكاتبين القارئين في الجاهلية، فقد ذكر المصدر عينه أنّ (الشفاء بنت عبد الله العدوية) من رهط عمر بن الخطاب كانت كاتبة في الجاهلية، وأنّ أم كلثوم بنت عقبة كانت تكتبُ وكذلك كريمة بنت المقداد وغيرهن[4].

وهكذا نلاحظ أن الكتابة كانت معروفة عند العرب الجاهليين وفي

---

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 248/8 وما بعدها.

(2) مصادر الشعر الجاهلي ـ ناصر الدين الأسد ص 50.

(3) فتوح البلدان ـ البلاذري ص 459.

(4) فتوح البلدان ـ البلاذري ص 457 وما بعدها.

مناطق مختلفة من جزيرة العرب، وكان يمارسها الرجال والنساء، وكان البعض يمتهنها ويعلّمها في أماكن خاصة.

2 ـ الكتابة في صدر الإسلام

أ ـ القرآن والكتابة

ظهر الاسلام وكان بين العرب قوم يكتبون، وقد نوّه القرآن الكريم بالكتابة وبفضلها وجليل قدرها، حتى أنّ الله تعالى نسب تعليمَها إلى نفسه، فقال جلّ شأنه: **﴿إقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربُّك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم﴾**[1]. ويُروى أن هذه الآيات هي أوّل التنزيل على النبي ﷺ، وهذا دليل على الاهتمام بشأنها ورِفعة محلّها.

وقد لاحظ ذلك القلقشندي فقال: ثم بيّن شرفها بأن وصف بها الْحَفَظَةَ الكرام من ملائكته، فقال جلّت قُدرته: **﴿وإنّ عليكم لحافظين، كراماً كاتبين﴾**. ولا أعلى رتبة، وأبذخ شرفاً مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حفظته[2].

ومن تمام هذا التنويه، القسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة، في قوله تعالى: **﴿ن والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربّك بمجنون﴾**[3]. والإقسام لا يقع منه سبحانه إلاّ بشريف ما أبدع، وكريم ما اخترع.

وكذلك التنويه بالكتاب في قوله عز وجل: **﴿والطور، وكتاب مسطور، في رقّ منشور﴾**. وهنا يقسم الله تعالى بمخلوقاته الدالّة على قدرته العظيمة منها الكتاب المسطور، قيل هو اللوح المحفوظ، وقيل الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً، ولهذا قال: **﴿في رقٍّ منشور﴾**[4].

---

(1) سورة العلق ـ الآية 1 وما بعدها.

(2) صبح الأعشى ـ القلقشندي 35/1.

(3) سورة القلم ـ الآية 1 وما بعدها.

(4) تفسير ابن كثير 239/4.

وتتردّد كلمات: اللوح والقرطاس والصحف في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ﴾[1]. وكذلك: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيءٍ موعظة﴾[2]. وقوله: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم، لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين﴾. وكذلك: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾[3]. وقوله: ﴿إنّ هذا لفي الصحف الأولى، صحف ابراهيم وموسى﴾[4]. وكذلك: ﴿رسولٌ من الله يتلو صحفاً مطهّرة﴾[5].

وقد حث الله عباده المؤمنين على الكتابة في قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا إذا تدايَنْتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمًّى فاكتبوه، ولْيكتُبْ بينكم كاتبٌ بالعدلِ، ولا يأْبَ كاتبٌ أن يكتُب كما علَّمَه اللّهُ، فليكْتُبْ ولْيُمْلِلِ الذي عليه الحقُّ... ﴾[6].

هذا إرشاد من الله تعالى لعباده المؤمنين، إذا تعاملوا بمعاملات مؤجّلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها.

ب ـ الرسول والكتابة:

كان النبيّ ﷺ يدرك أنّ للكتابة أثراً كبيراً في حياة الأمم وفي نشر الدعوة الإسلامية، لذلك عمل جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه، ففي غزوة بدر الكبرى وقع في أيدي المسلمين حوالى سبعون أسيراً من قريش وغيرهم، وكان يُفادي على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دُفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلّمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه، وكان زيد بن ثابت ممّن عُلِّم[7].

---

(1) سورة البروج ـ الآية 22.
(2) سورة الأعراف ـ الآية 145.
(3) سورة الأنعام ـ الآية 7 و 91.
(4) سورة الأعلى ـ الآية 18 و 19.
(5) سورة البيّنة ـ الآية 2.
(6) سورة البقرة ـ الآية 282 وانظر تفسير ابن كثير 333/1.
(7) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 22/2.

وكذلك شجع أمهات المؤمنين على تعلّم القراءة والكتابة. فقد ذكر «البلاذري» أن النبيّ ﷺ طلب من الشفاء بنت عبد الله العدوية أن تعلّم «حفصة» الكتابة، والشفاء هذه من رهط عمر بن الخطاب وكانت كاتبة في الجاهلية، وحفصة هي زوج النبي ﷺ. ويضيف البلاذري أن «أم كلثوم» كانت تكتب، وعائشة كانت تقرأ المصحف ولا تكتب، وأم سلمة كانت تقرأ ولا تكتب[1].

وقد أُثر عن النبيّ ﷺ أحاديث كثيرة تحثُّ على العلم منها: «أطلب العلم من المهد إلى اللّحد، وأطلب العلم ولو في الصين»؛ ويمكن القول إنّ الكتابة أصبحت سنّة عند المسلمين، وذلك تلبيةً لأمر رسولهم ﷺ حين جعلها حقّاً للولد على أبيه، فقد قال ﷺ: «من حقِّ الولد على والده أن يعلّمه الكتابة، وأن يُحسن اسمه، وأن يزوّجه إذا بلغ»[2].

ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت هي الوسيلة إلى
فقد كان الصحابة يكتبونه، حتى يتحفّظوه ومن هؤلاء: ع
بن أبي طالب وأُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وغيرهم.

وللكتّاب أحكام بيّنة، ينسبون إليها، فقد قال صاحب العقد الفريد: فمن أهل هذه الصناعة: عليّ بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، وكان مع شرفه ونبله وقرابته من رسول الله ﷺ، يكتب الوحي، ثم أفضت إليه الخلافة بعد الكتابة، وعثمان بن عفان، كانا يكتبان الوحي، فإن غابا كتب أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، فإن لم يشهد واحدٌ منهما، كتب غيرُهما. وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه، وكان المغيرة بن شُعبة والحصين بن نُمير يكتبان ما بين الناس، وكان عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عُقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم... وكان ربما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك عن النبيّ ﷺ ... وكان حنظلةُ بن الربيع، خليفةَ كلِّ كاتب

---

(1) فتوح البلدان ـ البلاذري ص 458.

(2) الأدب الإسلامي ـ نايف معروف ص 67 ـ وعن الديلمي، مسند الفردوس.

من كتاب النبيّ ﷺ إذا غاب عن عمله[1].

ومعنى ذلك كلّه أنّ الكتابة أخذت منذ هذا العصر تستخدم على نطاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب، بل في كتابة كلّ ما يهمّ المسلمين في معاملاتهم وعقودهم، وكان الرسول عليه السلام يستخدمها في جميع مواثيقه وعهوده، وفي رسائله إلى الملوك والأمراء وغيرهم.

وهكذا نرى أنّ الرسول ﷺ اتّخذ كتّاباً له، بعضهم يكتبون الوحي، أي يكتبون آيات القرآن الكريم التي كان ينزل بها جبريل عليه السلام، على النبيّ، والبعض الآخر يكتبون بين يديه في أمور الناس عامّة، والمسلمين خاصة، وذلك حسب ما يمليه عليهم النبيّ بأمانة متناهية، لا يزيدون حرفاً ولا ينقصون.

استفتاح الكتب:

قال ابن عبد ربّه، عن ابراهيم بن محمد الشيباني أنه قال: لم تزل الكتب تُستفتح باسمك اللهم حتى أُنزلت سورة هود وفيها: ﴿**بسم الله مَجْراها ومُرْساها**﴾، فكُتب: بسم الله؛ ثم نزلت سورة بني إسرائيل: ﴿**قل آدعوا الله أو آدعوا الرحمن**﴾، فكُتب: بسم الله الرحمن؛ ثم نزلت سورة النمل: ﴿**إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم**﴾؛ فاستفتح بها رسول الله ﷺ وصارت سُنَّة. وكان رسول الله ﷺ يكتب إلى أصحابه وأمراء جنوده: مِنْ محمد رسول الله إلى فلان، وكذلك كانوا يكتبون إليه، يبدءون بأنفسهم... وكذلك كُتُب الصحابة والتابعين[2].

الكتب والوثائق المشهورة: من الوثائق التي اشتهرت في أوّل عهد الاسلام، تلك الوثيقة التي علّقتها قريش في جوف الكعبة، متضمنة المبادىء التي اتفقوا عليها لمقاطعة بني هاشم وبني المطّلب فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جُهدوا لا يصل إليهم شيء إلاّ سرّاً[3].

---

(1) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 161/4 ـ وانظر التنبيه والاشراف ـ المسعودي ص 245.

(2) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 158/4.

(3) السيرة النبوية ـ ابن هشام 350/1.

وكذلك كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار وموادعة اليهود في المدينة المنوّرة في أول عهد الاسلام، وقد قال ابن إسحاق في ذلك: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه يهودَ وعاهدَهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم. ومما جاء في هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبيّ ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنّهم أمّة واحدة من دون الناس... ثم تابع، بعد أن ذكر أسماء القبائل، قائلاً: وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها (أسيرها) بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإنّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً (مُثقلاً بالدَّين كثير العيال) بينهم أن يُعطوه بالمعروف في فِداءٍ أو عَقْل... وإنّ المؤمنين المتّقين على من بغى منهم... ولو كان ولَدَ أحدهم... وإنه من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم...وإنّكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد ﷺ ... وإن يَثْرب حرام جَوْفها لأهل هذه الصحيفة، وإنّ الجار كالنفس غير مُضارّ ولا آثم... وإنّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنّه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلاّ من ظَلَم أو أَثِم، وإنّ الله جار لمن برّ واتّقى، ومحمد رسول الله ﷺ»[1].

ونلاحظ من مضمون هذا الكتاب، أنّ الرسول ﷺ جعل من المهاجرين والأنصار نواة للأمّة الإسلامية، ومن المدينة المنوّرة عاصمة لدولة الإسلام الأولى، كما نظّم العلاقات بين المسلمين واليهود فأقرّهم على دينهم وأرزاقهم غير مظلومين، على ألاّ يناصروا أعداء الإسلام على المسلمين، وقد أكدت هذه الوثيقة على حسن الجوار، وحذّرت من الجور والظلم وأعطت الأمان للجميع.

ونمضي في تلك الوثائق الهامّة التي أمر الرسول ﷺ بكتابتها فنجد معاهدة الحديبيّة بين الرسول وبين قريش والتي نصت على الهدنة لمدة عشر

(1) السيرة النبوية ـ ابن هشام 501/1.

سنين. واستفاد الرسول ﷺ من الكتابة في حمل الدعوة الإسلامية للأمم البعيدة فبعث رسلاً من أصحابه، وحمّلهم كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته، فبعث عبد الله بن حُذافة إلى كسرى، وسَليط بن عمرو إلى صاحب اليمامة، والعلاء بن الحضرمي إلى صاحب هَجَر، وعمرو بن العاص إلى عُمان، ودِحْيَة الكلبي إلى قيصر، وشجاع بن وَهْب الأسدي إلى المنذر الغسّاني، وعمرو بن أميّة إلى النجاشي، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه، وأرسل أيضاً إلى أساقفة الشام وأمرائها وقد يكتب إلى القبائل نفسها[1].

ويبدو أنّ كتابات الرسول لم تقتصر على هذا المجال، بل تعدتها إلى مجالات أخرى كالرسائل الاخوانيّة، فقد ورد أنه كتب إلى معاذ بن جبل، معزّياً له بابن له مات، ومما جاء فيه: «من محمدٍ رسولِ الله، إلى مُعاذِ بن جَبَل.

سلامٌ عليك، فإنّي أَحْمَدُ إليكَ اللّهَ الذي لا إلَهَ إلاّ هو.

أما بعد، فعظَّمَ اللّهُ لكَ الأَجْر، وأَلْهَمَكَ الصَّبْرَ، ورَزَقَنا وإيّاكَ الشُّكْر. ثم إنّ أَنْفُسَنَا وأهلينا ومَوَالِينا مِنْ مَوَاهِبِ الله السنِيَّة (الرفيعة)، وعَوارِفِه (عطاياه) المستَوْدَعَة، نُمَتَّعُ بها إلى أجلٍ محدود، وتُقبضُ لوَقْتٍ معلوم، ثم افْتَرَضَ علينا الشُّكْرَ إذا أَعْطى، والصَّبْرَ إذا ابْتَلَى... واعْلَمْ أَنَّ الجَزَعَ لا يَرُدّ مَيِّتاً، ولا يَدْفَعُ حُزْناً، فأَحسِنِ الْجَزَاءَ... »[2].

ولعلّ جمال هذه الرسالة ناشيء عن صياغتها الطبيعية، التي لا تكلّف فيها، وإلى حسن تقسيمها إلى جمل قصيرة، ثم إلى ترتيبها وحسن عرض أفكارها: فهو قد بدأ الرسالة، بعد تحيّته، بالدعاء له أن يعظّم الله أجره، ويرزقه الصبر، بل أن يمنحه نعمة الشّكر، وكأنّ الرسالة تشير بذلك إلى مرتبة أعلى من مرتبة الصبر، وهي مرتبة الشّكر، فكان الإنسان الكامل، هو الذي يقابل شدائد الحياة، وما ينزل به من البأساء، شاكراً الله، غير جزعٍ ولا مبتئس.

وهكذا نلاحظ أن الكتابة في العهد النبويّ قد اتّسعت اتساعاً كبيراً،

---

(1) حياة الصحابة ـ الكاندهلوي 126/1 وانظر البداية والنهاية ـ ابن كثير 262/4.

(2) صبح الأعشى ـ القلقشندي 80/9 وما بعدها.

فأصبحت تؤدّي تعاليم الدين الحنيف، وكل ما أقامه لصلاح الجماعة الإسلامية وسعادتها، وكل ما فرضه من معانٍ إنسانية في معاملة من يدخلون في دينه وبالتالي من يعيشون تحت لوائه من أهل الذمّة وغيرهم.

كذلك نلاحظ أن كتّابَ الرسول ﷺ نوعان منهم من عُهد إليه بكتابة الوحي، ومنهم كتّاب أعمال، ينظمون دفاتر وسجلات الصدقات والمعاملات ونحوها.

ج ـ الخلفاء الراشدون والكتابة

انتشرت الكتابة كثيراً في مختلف المجالات في العهد الراشدي، وزادت عما كانت عليه في الجاهلية، لازدياد الكتّاب أنفسهم، ووسعت موضوعاتها كثيراً، ولم يعد عملها مقصوراً على مبادىء الدعوة ونشر الدين الجديد، بل تعدّتها إلى نظام الدولة ومختلف نواحي الحياة.

ولشيوع الكتابة في عصر صدر الاسلام أمثلة كثيرة، لعلّ من أنصعها بياناً ما ذكرناه من أسماء الذين كتبوا للرسول ﷺ في مجالات كثيرة، فأي شيوع نرجوه للكتابة أكثر من أن يبلغ الكاتبون من الكثرة منزلة تجعلهم يتخصّصون في أنواع ما يكتبون، يستقلّ كل فرد منهم أو كلّ جماعة بضرب واحد؟ وما أكثر هؤلاء الكتاب الذين يورد المسعودي ما شاء من أسمائهم، ثم يقول إنه أغفل تسمية الذين كتبوا الكتاب الواحد والكتابين والثلاثة إذ كانوا لا يستحقّون بذلك أن يُسمّوا كتّاباً[1].

1 ـ أبو بكر الصديق والكتابة

ويتولّى أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، ويرتدّ كثير من العرب عن الدين الاسلامي، فيُجنّد لهم الجيوش، ويبعث مع قادتها الكتب، فكانت الكتب إلى قبائل العرب المرتدّة كتاباً واحدة، ومما جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، إلى من بَلَغه كتابي هذا من عامّة

(1) التنبيه والاشراف ـ المسعودي ص 246.

وخاصّة، أقام على إسلامه أو رجع عنه. سلام على من اتّبع الهدى... أما بعد، فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحقّ من عنده، إلى خلقه بشيراً ونذيراً.. فمن كان إنما يعبد محمداً، فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان إنّما يعبد الله وحده لا شريك له، فإنّ الله له بالمرصاد... وإنّي أوصيكم بتقوى الله... وأن تعتصموا بدين الله... وقد بلغني رجوعُ من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالاسلام وعمل به، اغتراراً بالله، وجهالةً بأمره، وإجابةً للشيطان... وإنّي بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرتُه ألاّ يقاتل أحداً ولا يقتلَه حتى يدعوَه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً قَبِل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرتُ أن يقاتلَه على ذلك، ثم لا يُبقي على أحد منهم قَدِرَ عليه، وأن يُحرقهم بالنار... ولا يُقبل من أحد إلاّ الاسلام، فمن اتّبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يُعْجِزَ الله... [1].

ونلاحظ هنا من هذه المقتطفات من رسالة أبي بكر، أنّه يحاول إقناع المرتدين بالعودة إلى حظيرة الاسلام، تارة بالترغيب، وطوراً بالتهديد والترهيب مما سيؤول إليه أمرهم على أيدي المسلمين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ويحذرهم من عذاب الله وسوء المصير. وأتبع أبو بكر ذلك، بعهد لأمراء الجنود، ضمّنه نفس المعاني ومما جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام، وعَهِدَ إليه أن يتّقي الله ما استطاع في أمره كلّه سرّه وعلانيته،... وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألاّ يُدخل فيهم حَشْواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم،... وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقّدهم... ويستوصي بالمسلمين في حُسْن الصحبة ولين القول[2].

وهكذا نرى أن أبا بكر شديد في مواجهة أعداء الله إلى أبعد حدود

(1) تاريخ الطبري 250/3.

(2) تاريخ الطبري 251/3.

الشّدة، ليّن لطيف مع المؤمنين، قائد موجّه لأمراء الأجناد، خبير بشؤون الحرب، عليمٌ بأساليب المعاملة الحسنة بين الرئيس والمرؤوس.

وما زال أبو بكر يتراسل مع القبائل والأمراء والقوّاد حتى رُتُب الصدع، وانتصر المسلمون، وتحوّل القوّاد بجنودهم إلى الفتوح، ولاحظ ضعف الجيش المتوجه إلى بلاد الشام لمجاهدة الروم البيزنطيينْ فكتب إلى أهل اليمن يحثهم على الالتحاق بجيوش المسلمين والجهاد في سبيل الله، ومما ورد في رسالته:

بسم الله الرحمن الرحيم

من خليفة رسول الله إلى من قُرئ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن. سلام عليكم... أما بعد... وقد استنفرنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام،... فسارعوا عباد الله إلى ما سارعوا إليه، ولتحسنْ نيّتكم فيه، فإنكم إلى إحدى الحُسْنَيَيْن: إمّا الشهادة وإمّا الفتح والغنيمة، فإنّ الله تبارك وتعالى لم يرضَ لعباده بالقول دون العمل، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته حتى يدينوا بدين الحق، ويقرّوا لحكم الكتاب. حفظ الله لكم دينكم، وهدى قلوبكم، وزكّى أعمالكم، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين[1].

لا بدّ لنا ونحن نقرأ هذه الرسائل لأبي بكر الصديق، والتي يرسلها شرقاً وغرباً وفي جميع الاتجاهات، وإلى القادة وعامّة الناس، إلاّ أن نستنتج أنّ هناك مجموعات من البشر كانت تعرف القراءة والكتابة، ولو لم يكن الأمر كذلك لما لجأ أبو بكر إلى هذه الوسيلة الإعلامية.

وتضيف بعض المراجع أن أبا بكر إستعان ببعض الكتّاب لمساعدته في شؤون دولته منهم عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم، وكان أبو عبيدة مسؤولاً عن الشؤون المالية وعمر بن الخطاب عن الشؤون القضائية وحنظلة بن الربيع كتب لأبي بكر أيضاً، وكان يكتب له من حضر[2].

---

(1) حياة الصحابة ـ الكاندهلوي 441/1.

(2) التنبيه والاشراف ـ المسعودي ص 249، تاريخ الطبري 426/3، العقد الفريد ـ ابن عبد 163/4.

وكان آخر ما كتبه أبو بكر رضي الله عنه، عهده لعمر بن الخطاب بتولّي شؤون الخلافة من بعده وقد جاء في هذا العهد:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عَهِدَ به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأوّل عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتّقي فيها الفاجر، إنّي استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ وعَدلَ فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جارَ وبدَّل. فلا عِلْمَ لي بالغيب، والخيْرَ أردتُ، ولكلِّ امرىءٍ ما اكْتسَبَ، وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون[1].

2 ـ عمر بن الخطاب والكتابة

حين آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب، أخذت تتّسع رقعة الدولة الاسلامية، فتمّت في عهده فتوح إيران والشام ومصر، وبذلك اشتدّت الحاجة إلى الكتابة، لتكون وسيلة الاتصال بين خليفة المسلمين في عاصمته ـ المدينة المنوّرة ـ وبين أمراء جنده وولاته وعمّاله الموزعين على مختلف الأمصار الإسلامية، والمناطق التي تعمل الجيوش الاسلامية على فتحها وضمّها للدولة الاسلامية.

فكان عمر، رضوان الله عليه، يكاتبهم ويكاتبونه في كل الأمور التي تهمّ الاسلام والمسلمين حتى أن الكتابة شملت جميع نواحي الحياة في ذلك العهد، كما أنها أصبحت الوسيلة الهامّة لتنظيم شؤون الدولة والحكم والإدارة، يتّضح لنا ذلك مما يلي:

أ ـ في القضاء:

من رسائل عمر المشهور في القضاء، كتابه إلى أبي موسى الأشعريّ، ومما جاء فيه:

---

(1) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرّد ـ 8/1 ـ وانظر تاريخ الطبري 429/3 ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 425/2.

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله، عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس (أبي موسى الأشعري):

سلام عليك، أما بعد، فإنّ القضاءَ فريضةٌ مُحْكمة، وسُنّةٌ متَّبعة، فافهم إذا أُدْلِيَ إليك، وأَنْفُذْ إذا تبيّنَ لك: فإنّه لا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بحقٍّ لا نفاذ له. آس[*] بين الناس في وَجْهِكَ وعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ، حتى لا يطمعَ شريفٌ في حَيْفِكَ، ولا يخافَ ضعيفٌ من جورِكَ. البيّنة على من آدّعى، واليمينُ على من أنْكَرَ، والصُّلْحُ جائِزٌ بين المسلمين، إلاّ صُلْحاً أحلّ حراماً، أو حرّم حلالاً. ولا يَمْنَعَنَّكَ قضاءٌ قَضَيْتَهُ بالأمْسِ، فراجَعْتَ فيه عَقْلَكَ، وهُدِيتَ فيه لرُشْدِكَ، أن ترجِعَ إلى الحقّ: فإنّ الحقَّ قديمٌ، ومُراجعةُ الحقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمادِي في الباطل.

الفَهْمَ الفهمَ فيما تَلَجْلَجَ في صدرك ممّا ليس في كتابٍ ولا سُنّةٍ. ثم آعْرِفِ الأشباهَ والأمثال، وقِسِ الأمورَ عند ذلك بنظائرها وآعْمِدْ إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحقّ...

المسلمون عُدُولٌ بعضُهم على بعض إلاّ مجلوداً في حدٍّ، أو مُجَرَّباً عليه شهادة زورٍ...[1].

إنّ رسالة عمر هذه تدل على مدى التزامه بدينه، وإخلاصه لأمته، وسهره على حقوق رعيته، وقد جمع فيها جُمَلَ الأحكام واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتخذوها إماماً ومثلاً أعلى يُحتذى لمن ولي أمر القضاء، وقد جسّد فيها مفاهيم الإسلام وقِيَمه في أصول المحاكمات بين الناس، من مساواة وعدل: «آس في الناس بين وجهك وعدلك ومجلسك». حتى لا يطمع شريفٌ في ميلك معه لشرفه ولا ييأس الضعيف من عدلك.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاوية بن أبي سفيان، كتاباً في القضاء، ومما جاء فيه:

(*) آس بين الناس، أي سوِّ بينهم، واجعل كلّ واحد منهم أسوة بخصمه.

(1) صبح الأعشى ـ القلقشندي 193/10 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 86/1 ـ الكامل في اللغة والأدب ـ المبرّد 9/1.

أما بعد، فإنّي كتبت إليك بكتاب في القضاء لم آلك ونفسي فيه خيراً. إلزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضلَ حظّك:

إذا تقدّم إليك الخصمان، فعليك بالبيّنة العادلة، أو اليمين القاطعة، وإدناء الضعيفَ حتى يشتدَّ قلبُه وينبسط لسانه. وتعهَّدْ الغريب فإنّك إن لم تتعهدّه ترك حقّه ورجع إلى أهله، وإنما ضيّع حقَّه من لم يرفقْ به. وآس بين لَحْظك وطرفك، وعليك بالصّلح بين الناس ما لم يتبيّن لك فصلُ القضاء[1].

نلاحظ هنا أن مضمون هذه الرسالة في القضاء لا يختلف كثيراً عن مضمون الرسالة السابقة التي أرسلها الخليفة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، ولعلّ أهم خصلة وردت في هذه ولم ترد في تلك، هي الاهتمام بأمر الغريب حتى لا يضيع حقه.

ب ـ في الوصايا:

عرفنا عمر الحاكم العادل، الخبير بشؤون القضاء، من خلال ما ذكرناه آنفاً، وعرفنا الكتابة في باب القضاء، وها هو الآن يكتب إلى إبنه عبد الله، مرشداً وواعظاً، حيث يقول:

أما بعد، فإنه من اتّقى اللّهَ وقاه، ومن توكّل عليه كَفَاه، ومن شكر له زادَه، ومن أَقْرَضهُ جَزَاهُ، فاجعل التقوى عمادَ قلبك، وجلاء بصرك، فإنّه لا عمل لمن لا نيّة له، ولا أجرَ لمن لا خشيةَ له، ولا جديد لمن لا خَلَقَ له[2].

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: «تفقّهوا في الدين فإنّه لا يُعذر أحد باتّباع باطل وهو يرى أنه حقّ، ولا بترك حقٌّ وهو يرى أنه باطل»[3].

وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقّاص ومن معه من الأجناد:

---

(1) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 84/1 ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ 289/1.

(2) زهر الآداب ـ القيرواني 72/1.

(3) حياة الصحابة ـ الكاندهلوي 491/1 ـ أنظر في كنز العمال 228/5.

أما بعد، فإنّي آمرك ومن معك بتقوى الله على كلّ حال، فإنّ تقوى الله أفضل العُدَّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوِّكم، فإنّ ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم، وإنّما يُنْصَرُ المسلمون بمعصية عدوِّهم لله ... فإن آسْتَوَيْنا في المعصية كان لهم الفضلُ علينا في القوّة...

وترفَّقْ بالمسلمين في مسيرهم... فإنهم سائرون إلى عدوٍّ مقيم حامي الأنفس والكُراع(*). وأقم بمن معك في كلِّ جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُجِمُّون(**) فيها أنفسهم، ويَرُمُّونَ(***) أسلحتهم وأمتعتهم...

وليكن منك عند دُنُوِّك من أرض العدوِّ أن تُكثر الطلائع وتبثّ السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادَهم ومرافِقَهم، وتتبع الطلائعُ عوارتِهم...

فإذا عاينتَ العدوَّ فاضمُمْ إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، وآجمعْ إليكَ مَكِيدَتَك وقوّتَك، ثم لا تُعاجلْهم المُناجزة، ما لم يستكرهْكَ قتال، حتى تُبْصِرَ عورة عدوِّك ومَقَاتِلَه، وتعرفَ الأرض كلّها كمعرفةِ إهلها، فتصنعَ بعدوِّك كصنيعه بك. ثم أذْكِ أحراسِكَ على عسكرك، وتَحفَّظْ من البيات جهدَكَ. ولا تُؤتَى بأسير ليس له عهدٌ إلاّ ضربت عنقِه، لِتُرْهِبَ بذلك عدوَّك وعدوَّ الله. والله وليّ أمرك ومن معك، ووليّ النّصر لكم على عدوِّكم، والله المستعان[1].

وهكذا نلاحظ أن الكتابة أخذت دورها في المجال الحربي، ونلاحظ ذلك المستوى الرفيع الذي بلغه الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه في العلم العسكري، فهو يضع القائد في الإطار الإسلامي الذي ينبغي أن يكون فيه، من إعداد روحيّ يتمثّل بتقوى الله، وامتثالٍ لأوامره واجتناب لمعاصيه. ويضعه أيضاً في الاعداد الميداني للمعركة قبل خوضها، من ترفقٍ بالمسلمين في مسيرهم، وإرسالٍ للسرايا والطلائع، وتريُّثٍ في خوض غمار الحرب، ريثما يتعرف إلى عورات العدوّ ومسالك أرضه، وحرصٍ من كيد الأعداء ومكرهم.

(*) الكراع: الخيل. يجمون أنفسهم: يتركونها لترتأح وتقوى. يرمّون: يصلحون.

(1) نهاية الأرب ـ النويري 169/6 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 130/1.

وفي هذا المجال، يقول الطبري:

كان أوّلُ كتابٍ كتبه عمر (بن الخطاب) حين وُلّي، إلى أبي عبيدة يولّيه على جند خالد: أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويَفْنى ما سواه، الذي هدانا من الضّلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور. وقد استعملتك على جُنْد خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحقّ عليك، لا تقدِّم المسلمين إلى هَلَكة رجاء غنيمة، ولا تُنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم، وتَعْلَمَ كيف مأتاه. ولا تبعث سريّة إلاّ في كثفٍ من الناس، وإيّاك وإلقاء المسلمين في الهَلَكة، وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك. فَغَمِّضْ بَصَرَك عن الدنيا، ألْهِ قلبك عنها، وإيّاك أن تُهْلِكَكَ كما أَهْلَكَتْ مَنْ كان قبلك، فقد رأيتَ مصارعَهم[1].

من هذه الكتابة يمكننا أن نعرف قوّة الايمان عند عمر، فهي كلمات مفعمة بالتقوى وبمخافة الله، وهو يكلّف أبا عبيدة بن الجراح بقيادة الجيش، ويرشده إلى واجباته نحو جنده، ويحذره من أن يسعى للحصول على الغنائم في مغامرات قد تعرض حياة المسلمين للخطر، وله في الأمم الغابرة عبرة لمن يعتبر، ثم إنه يتركه في حالة من الرعب إن هو انحاز عن جادة الصواب: «وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك».

ج ـ الحرص في الأموال العامة

وكتب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى عمرو بن العاص وكان عامله على مصر:

«من عبدِ اللّهِ عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص:

سلام عليك.

أمّا بعدُ. فقد بلغني أنه فَشَتْ لك فاشيةٌ من خيلٍ وإبلٍ وبقر وعبيد، وعهدي بك قبل ذلك، ولا مالَ لكَ، فاكتب إليّ من أين أَصْلُ هذا المال»[2].

(1) تاريخ الطبري 434/3.

(2) صبح الأعشى ـ القلقشندي 387/6 ـ وانظر العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 46/1.

إن هذه الرسالة الصغيرة التي كتبت في أول عهد الإسلام، تبيّن لنا أموراً كثيرة منها:

ـ الإيجاز الذي يفي بالمعنى.

ـ التواضع عند خليفة المسلمين، حيث بدأ كتابه: من عبد الله.. خلافاً لما نلاحظه اليوم عند ملوك المسلمين ورؤسائهم.

ـ التصدير والتعبير عن نفسه بلفظ الإفراد مثل: بلغني (الياء)، عهدي (الياء)، إليّ الخ.. وعن المكتوب له بكاف الخِطَاب مثل: لك، بك الخ.. فأين ذاك الأسلوب من التفخيم والتعظيم الذي يمارس الآن.

ومن حيث المضمون يمكننا أن نتأكد أن أمير المؤمنين هو القدوة الصالحة والمثل الأعلى في الحرص على الأموال العامة، ولا شك أنه حاسب نفسه ثم اندفع يحاسب عماله في الأمصار بدافع المسؤولية الملقاء على عاتقه. من أين لك هذا؟

إنه سؤال في كل آن وزمان. وهو من ضمن المبادىء الاسلامية، طرحه عمر على عمرو بن العاص أمير مصر، يسأله ويحاسبه: من أين لك هذا؟ حبذا لو نجد الآن بين ملوك المسلمين وحكامهم، وهم على كثرتهم، من يقتدي بعمر، يحاسب نفسه ويحاسب الآخرين.

لم تكن هذه الرسالة هي الوحيدة في هذا المجال، بل كانت هناك رسائل كثيرة مماثلة، فقد ذكر ابن سعد، عن ابن عمر، أنّ عمر بن الخطاب، أمر عمّالَه فكتبوا أموالهم، منهم سعد بن أبي وقّاص، فشاطرهم عمرُ أموالهم، فأخذ نصفاً وأعطاهم نصفاً[1].

وذكر ابن عبد ربّه: «قال الربيع بن زياد الحارثي: كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين، فكتب إليه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يأمره بالقدوم عليه هو وعمّاله وأن يَسْتخلفوا مَنْ هو من ثِقاتهم حتى يرجعوا...»

---

(1) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 307/3.

فلما قدموا اختبرهم عمر وتفحّصهم وعرف مَنْ منهم يستغلّ مركزه لمصلحته الشخصية، فطلب من أبي موسى أن يُقِرَّ الربيع على عمله وأن يَسْتبدلَ بقيّة أصحابه[1].

د ــ في أمور متفرّقة:

في سنة ثماني عشرة للهجرة أصاب الناسَ جهدٌ شديد وأَجدَبَت البلاد وهلكت الماشية وجاع الناس فسمّي ذلك العام عامَ الرمادة لأن الأرض كلَّها صارت سوداء فشُبِّهتْ بالرماد وكانت تسعة أشهر. فكتب عمر بن الخطاب حينها إلى عمرو بن العاص:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي.

سلام عليك. أمّا بعد، أفتراني هالكاً ومن قِبَلي وتعيش أنت ومن قِبَلك؟

وكتب في ذلك أيضاً إلى معاوية في الشام وإلى سعد بن أبي وقاص في العراق، فجاءه الغوث الكثير[2].

وفي عام الرمادة هذا، أجمع عمر على أن يستسقي ويخرج بالناس وكتب إلى عمّاله أن يخرجوا يومَ كذا وكذا وأن يتضرّعوا إلى ربّهم ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المحل عنهم[3].

وكتب عمرُ إلى حذيفة أن أَعْطِ الناسَ أَعْطِيَتَهم وأرزاقهم. فكتب إليه: إنّا قد فعلنا وبقي شيء كثير. فكتب إليه عمر إنّه فَيْؤهم الذي أفاءَ اللّهُ عليهم، ليس هو لعمر ولا لآل عمر، أَقْسِمْهُ بينهم[4].

وعرف عمر أنّ بعض الأمهات يستعجلن أولادهنّ في الفطام لأنّ الرُضّع

---

(1) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 14/1.
(2) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 310/3 وما بعدها.
(3) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 320/3.
(4) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 299/3.

يحق لهم الانتفاع من الأعطيات فقال: يا بؤساً لعمر، كم قتل من أولاد لمسلمين! ثم أمر منادياً فنادى: ألاّ تُعْجِلوا صِبْيانكم عن الفطام، فإنّا نفرض لكلّ مولودٍ في الاسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق: إنّا نفرض لكلّ مولود في الاسلام[1].

ومما كتبه عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص.

«أما بعد. فإنه جاءني كتابك تذكر أنّ صاحب الاسكندرية عَرَضَ أن يعطيك الجزية على أن تردّ عليه ما أُصيب من سبايا أرضه، ولعمري، لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحبُّ إليَّ من فَيْءٍ يُقْسَم ثم كأنّه لم يكن، فاعرض على صاحب الاسكندرية أن يعطيك الجزية، على أنْ تُخَيِّروا مَنْ في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومهم، فمن اختار الاسلام، فهو من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه وُضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه، فأمّا مَنْ تفرّق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن، فإنّا لا نقدر على ردِّهم، ولا نحبُّ أن نصالحه على أمرٍ لا نفي له به»[2].

ولما فتح المسلمون مصر، أتى أهلها إلى عمرو بن العاص، وأخبروه أن لهم عادة مع نهر النيل لكي لا تنضب مياهه، وهي أن يُلقوا بابنة بكر من أبويها فيه في وقت محدَّدٍ من كل سنة، فقال عمرو: هذا مما لا يكون في الاسلام، وبقيت مياه النيل فترة طويلة عمّا هي عليه حتى ضجّ الناس. فكتب عمرو إلى الخليفة عمر يعرفه بذلك. فكتب رقعة إلى نهر النيل فيها:

من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر.

أما بعد. فإن كنت تجري من قِبَلِكَ. فلا تجر. وإن كان الله الواحد القهّارُ الذي يُجريك، فنسأل الله أن يُجْرِيك.

وبعث بها إليه، فألقاها في النيل، وقد تهيّأ أهل مصر للخروج منها،

---

(1) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 301/3.

(2) حياة الصحابة ـ الكاندهلوي 233/1.

فأصبحوا يوم الصليب، وقد بلغ في ذلك اليوم ستّة عشر ذراعاً[1].

وهكذا نلاحظ أن الخليفة عمر بن الخطاب يكتب إلى الأمراء والعمال في مختلف الأمصار الاسلامية فيما يصدر عنه من توجيهات وقوانين جديدة. كما أنّ هؤلاء يكتبون إلى الخليفة في كلّ أمر يعترضهم وينتظرون تعليماته لينفّذوها بكل دقة.

وهذا يدلّ على أن الكتابة كانت منتشرة إنتشاراً واسعاً في طول البلاد وعرضها، وهناك أمثلة أخرى كثيرة لم نذكرها، وقد آثرنا الاكتفاء بما ذكرناه لأنّه يفي بالحاجة.

هـ ـــ في العهود والمواثيق

كان للكتابة دورها في العهود والمواثيق في عهد عمر بن الخطاب، من خلال الفتوحات الواسعة التي حصلت في عهده، وقد كانت عن طريق القادة في الجيوش الاسلامية أو مباشرة عن طريق الخليفة، ولعل أهمّها وأشهرَها ذلك العهد الذي أعطاه عمر إلى أهل إيلياء (بيت المقدس) وقد جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبدُ الله عمر أمير المؤمنين، أهلَ إيلياء من الأمان.

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبَريئها وسائر ملّتها، أنه لا تُسكن كنائسُهم ولا تُهدم، ولا يُنْتَقَصُ منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكرَهون على دينهم، ولا يُضارَّ أحدٌ منهم، ولا يَسْكنُ بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يَعْطوا الجزية كما يُعْطِي أهلُ المدائن. وعليهم أن يُخرجوا منها الرّوم واللصوت (اللصوص)، فمن خرج منهم فإنّه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومَنْ أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجِزْية، ومَنْ أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرّوم، ويخلّي بيعَهم وصُلُبهم فإنّهم آمنون

(1) صبح الأعشى ـ القلقشندي 291/3.

على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا، عليه مثل ما على أهلَ إيلياء من الجزْية، ومن شاء سار مع الرّوم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنّه لا يؤخذَ منهم شيءٌ حتى يُحصد حصادُهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمّة رسوله وذمّة الخلفاء وذمّة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحَضَر سنة خمس عشرة[1].

نلاحظ في هذا العهد الذي أعطاه خليفة المسلمين عمر بن الخطاب إلى أهالي بيت المقدس، ميثاقاً يضمن لهم الحماية لأنفسهم وأموالهم وعقائدهم وأماكن عبادتهم، ولا يُكرهون على دينهم، على أن يعطوا الجزية التي فرضها الاسلام على أمثالهم، لقاء الحماية والرعاية التي يتحمّل مسؤوليتّها المسلمون.

وقد ترك لهم الخيار بين البقاء أو الرحيل لمن شاء ذلك، مع الروم، وهو آمن على كلّ شيءٍ حتى يبلغ مأمنه، وحتى ينتهي من حصد غلاله.

واللافت هو ذاك الشرط: «ولا يسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود». فهل هذا كان بناءً على طلب من المسيحيين، يساعدهم المسلمون على تنفيذه، أو هو رغبة الخليفة والمسلمين في ذلك؟ ربما كان نزولاً عند رغبة المسيحيين، وهم الأكثرية الساحقة من السكان حينذاك وربما كانوا يعانون من أشياء من تصرفات اليهود، فكان لهم هذا الشرط.

و ـ الكتّاب وكتابة الدواوين

يقول القلقشندي في كتابه صبح الأعشى: «أعلم أنّ هذا الديوان (يعني ديوان الانشاء) أوّلُ ديوان وضع في الاسلام، وذلك أنّ النبيّ ﷺ كان يُكاتب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة رضوان الله عليهم ويكاتبونه، وكتب إلى مَنْ قَرُبَ من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام... وهذه المكتوبات كلّها متعلّقها ديوان الانشاء بخلاف ديوان الجيش، فإنّ أوّل من وضعه ورتّبه أمير

---

(1) تاريخ الطبري 609/3.

المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته»[1].

ويقول النويري: «وديوان الجيش هو أوّل ديوان وضع في الاسلام، وضعه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في خلافته، وقيل: بل وُضِعَ في عهد النبيّ ﷺ ... واختلف الناس في سبب وضعه في أيام عمر، قال قوم: سببه أن أبا هريرة - رضي الله عنه - قَدِم بمال من البحرين، فقال له عمر رضي الله عنه: ماذا جئت به؟ قال خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر وقال: أتدري ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألف خمس مرات؛ فقال عمر: أطيّبٌ هو؟ (أي أحلال هو)، فقال: لا أدري، فصَعِدَ عمرُ رضي الله عنه إلى المنبر، فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: أيّها الناس، قد جاءنا مالٌ كثير، فإن شئتم كِلنا لكم كيلاً، وإن شئتم عَدَدْنا لكم عدّاً، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيتُ الأعاجم يدوّنون ديواناً لهم، فدوِّن أنت لنا ديواناً.

وقال آخرون: بل سَبَبُه أنّ عمر، رضي الله عنه، بَعَثَ بَعْثاً وعنده الهُرْمُزان، فقال لعمر: هذا بَعْثٌ قد أعطَيْتَ أهلَه الأموالَ، فإنْ تخلّف رجلٌ منهم وأخلّ بمكانه أين يعلمُ صاحبُك؟ (أي أمير الجيش) فأثبتْ لهم ديواناً، فسأله عن الديوان حتى فسَّرَه له... فهذا كان سبب وضع ديوان الجيش.

وأمّا دواوين الأموال فإنّها كانت بعد ظهور الإسلام بالشأم والعراق على ما كانت عليه قبل الاسلام، فكان ديوان الشأم بالروميّة لأنّه كان من ممالك الروم، وكان ديوان العراق بالفارسيّة لأنه كان من ممالك الفرس، فلم يزل أمرهما جارياً على ذلك إلى زمن عبد الملك بن مروان فنقلها إلى العربية»[2].

وقال ابن الأثير: «وفي سنة خمس عشرة فرض عمر للمسلمين الفروض، ودوّن الدواوين، وأعطى العطايا على السابقة»[3]. (في الاسلام وفي القرابة إلى الرسول ﷺ).

---

(1) صبح الأعشى - القلقشندي 91/1.

(2) نهاية الأرب - النويري 196/8 وما بعدها. وانظر مقدمة ابن خلدون ص 243 وما بعدها.

(3) الكامل في التاريخ - ابن الأثير 502/2.

وقال ابن سعد: «وهو (أي عمر) أوّل مَنْ دوّن الدواوين وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم الأعْطِيَةَ من الفيء وقسم القسوم في الناس، وفرض لأهل بدر وفضّلَهم على غيرهم، وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدُّمهم في الإسلام»[1].

هذه الروايات التي ذكرناها، وهي تعود إلى ما نحسبه من أمّهات الكتب، تبدو وكأنّ فيها شيئاً من التّباين في وجهات النظر بالنسبة إلى أوّلية الدواوين في الاسلام، هل كانت على عهد الرسول ﷺ، أو كانت في عهد الخليفة الراشدي الثاني؟

مما لا شك فيه أن الرسول ﷺ أمر في كتابة الكثير من العهود والمواثيق والرسائل في مجالات متعدّدة، وربما أمر بوضع نواة للدواوين، خاصة إذا عرفنا أنه كان عنده نيّفٌ وثلاثون كاتباً[2]، إنما كان الاسلام في أول عهده، وكان عدد المسلمين قليلاً، بينما في عهد عمر، اختلف الأمر كثيراً، إذ أصبحت بلاد الشام، والفرس ومصر وغيرها تحت راية الاسلام، فقضت الحاجة بإيجاد الدواوين بالمعنى المعروف حالياً، وهذا ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه.

حينما أراد عمر تدوين الدواوين، دعا عقيل بن أبي طالب ومَخْرَمَة بن نوفل وجُبَيْر بن مَطْعَم وكانوا من كتّاب قريش. فقال: اكتبوا الناس على منازلهم[3].

وكتب لعمر بن الخطّاب، زيدُ بن ثابت، وعبد الله بن الأرقم، وعبد الله بن خلف الخُزاعي (أبو طَلْحة الطلحات)، على ديوان البصرة. وكتب له ديوان الكوفة أبو جَبيرة بن الضّحاك، فلم يزل عليه إلى أن ولي عبيد الله بن زياد فعزله[4].

وهكذا نرى أن الكتابة انتشرت انتشاراً كبيراً في عهد الخليفة عمر بن

---

(1) الطبقات الكبرى ـ ابن سعد 282/3.

(2) صبح الأعشى ـ القلقشندي 92/1.

(3) نهاية الأرب ـ النويري 198/8 ـ مقدمة ابن خلدون ص 244.

(4) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 163/4 ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 728/2 ـ صبح الأعشى ـ القلقشندي 92/1.

الخطاب ودخلت في ميادين مختلفة من قضائية ووصايا وحرص على الأموال العامة ومواثيق وعهود ودواوين وغيرها، فكان الخليفة يكتب إلى عماله في مختلف الأمور التي يراها، وكان العمال يكتبون إليه كلما دعت الحاجة.

وكانت تلك الرسائل بسيطة في مقدمتها إذ تبدأ من فلان إلى فلان خالية من التفخيم والتعظيم، وتفوح منها رائحة الإيمان وتوجيهات الاسلام، لأنّ عمر في ذلك كلّه يستلهم القرآن والسنة النبوية.

وأخيراً يمكننا القول: لم ينته عهد ابن الخطاب حتى أصبحت الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة، متضمّنة كل ما رسمته تلك الدولة للمسلمين وأهل الذمّة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وغيرها.

3 ـ عثمان بن عفّان والكتابة

يمكننا أن نعتبر فترة حكم، عثمان، رضوان الله عليه، قد مرّت بمرحلتين: الأولى كانت استمرارية لعصر عمر بن الخطاب، والثانية صُبغت بشخصية عثمان؛ وفي الفترة الأولى أُنجزت أعمال كبيرة، كان في مقدمتها إكْمالُ مشروع جمع سور القرآن وآياته وإخراجها برسم معتمد واحد؛ ولا شك أن هذا العمل الذي قام به عثمان يعتبر من أعظم ما تمّ صنعه في تاريخ الاسلام، فهو قد أعطى القرآن حصانة مستمرة دفعت عنه كلَّ محاولة للتزييف.

ولقد تسلّم عثمان الخلافة في مرحلة حساسة من مراحل تاريخ الإسلام، بحيث كان المجتمع الإسلامي، يمرّ بنقطة تحوّل في حياته نتيجة الاختلاط بين القادمين الجدد من جزيرة العرب، والسكان الأصليين في المدن، فنجم عن ذلك صراعات متعدّد الأشكال والأسباب، وقد ترتّب على الخلافة مواجهة جميع المشاكل وإيجاد الحلول الناجعة لها.

لقد أدرك عثمان، رضوان الله عليه، كل ذلك فبادر إلى الكتابة إلى عمّاله في الأمصار وأمراء الأجناد، وعمال الخراج وإلى العامة.

وكان أوّلُ كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد في الفروج:

أما بعد. فإنّكم حُماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر، ما لم

يغب عنّا، بل كان عن ملأٍ منّا، ولا يبلغنّي عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغيِّر الله ما بكم، ويستبدلَ بكم غيرَكم؛ فانظروا كيف تكونون، فإنّي أنظر فيما ألزمني اللّهُ النظرَ فيه، والقيام عليه[1].

وكتب عثمان بن عفّان إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما حين أُحيطَ به:

أما بعد. فإنّه قد جاوَزَ الماءُ الزُّبى[*]، وبلغ الحِزامُ الطُّبْيَيْنِ، وتجاوَزَ الأمرُ بي قَدْرَهُ، وطَمِعَ فيَّ من لا يدفَعُ عن نفسه.

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكِلٍ وإلاّ فأدْرِكْني ولمّا أُمَزَّقِ[2]

وعندما قُتِلَ ابن الحيسُمان الخُزاعي، على يد جماعة من شباب الكوفة، كتب عاملها فيهم إلى الخليفة عثمان، الذي كتب إليه في قتلهم على باب القصر في الرَّحَبَة[3].

وكتب سعيد بن العاص إلى عثمان، أنّ أهل الكوفة قد اضطرب أمرُهم، فكتب إليه عثمان:

أما بعد. فَفَضِّلْ أهلَ السابقة والقُدْمة ممّن فتح اللّهُ عليه تلك البلاد، وليكنْ مَنْ نزلها بسببهم تبعاً لهم، إلاّ أن يكونوا تثاقَلُوا عن الحقّ، وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكلٍّ منزلتَهُ، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحقّ، فإنّ المعرفة بالناس بها يُصاب العدلُ[4].

هذه نماذج من الكتابات في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضوان الله عليه، نلاحظ فيها توجيهات الخليفة وإرشاداته إلى مختلف طبقات الشعب من

---

(1) تاريخ الطبري 245/4.

(*) جاور وقيل جاوز الماء الزّبى: أي قد جَلَّ الأمرُ عن أن يُغَيَّرَ ويُصْلحَ. بلغ الحزام الطبيين: أي انتهى في المكروه.

(2) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرّد 11/1.

(3) تاريخ الطبري 272/4.

(4) تاريخ الطبري 279/4.

أمراء وعمال وقواد وعامة الناس، تلك التوجيهات النابعة من العقيدة الإسلاميّة وتشريعاتها.

وكذلك نلاحظ أن الأمراء كانوا يكتبون إلى الخليفة فيما يعترضهم من أمور، وكان يردّ عليهم فيما يجب عليهم أن يفعلوه.

لذلك يمكننا القول: إن الكتابة أصبحت شائعة بين الناس في عهد عثمان، رضي الله عنه، وزاد الاهتمام بها، ويكفيها فخراً أنها ساهمت في كتابة سور القرآن الكريم، وأخرجته برسم واحد معتمد.

وقد كتب لعثمان عدد من الكتاب في مجالات مختلفة منهم: عقبة بن عمرو، على بيت المال؛ وزيد بن ثابت على القضاء. وكتب له أيضاً مروان بن الحكم، وكان عبد الملك بن مروان يكتب له على ديوان المدينة، وأبو جبيرة على ديوان الكوفة، وعبد الله بن الأرقم على بيت المال، وأبو غَطَفان بن عوف، وكان يكتب له من مواليه: أُهَيْب وحُمْران[1].

4 ـ علي بن أبي طالب والكتابة

خلا منصبُ الخلافة من صاحبه بعد مصرع عثمان، وظلّ خالياً لعدة أيام، أراد فيها الثوّار مع بقيّة سكان المدينة (يثرب) تعيين خليفة جديد، ولم يكن أمامهم غير علي بن أبي طالب، بسبب شخصيته ومركزه في الاسلام وسابقته فيه مع قرابته من النبيّ ﷺ وعلاقته به، فهو ابن عمّه وربيبه وصهره، ووالد الأولاد الذكور من أسرته، وكان عليّ مرشّحاً لخلافة النبيّ منذ لحظة وفاته، لكنّ سنّه وظروفاً كثيرة حالت بينه وبين الوصول إلى السلطة.

وكانت مسؤولية عليّ الجديدة على جانب كبير من الخطورة والصعوبة، فهو لم يكن يتمتع برِضَى جميع الأحزاب السياسية، وكان عليه تثبيت سلطته وإيجاد حلٍّ للمشاكل التي سبّبتها الثورة على عثمان.

وبما أن الكتابة، كانت شائعة بين الناس، لذلك كان لها دورها في تلك

(1) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 164/4 وانظر تاريخ الطبري 422/4.

الأمور، من ذلك كتبه إلى الأمصار، فقد أرسل كتاباً إلى أهل مصر، حمله إليهم قيس بن سعد، جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى مَنْ بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين.

سلام عليكم. فإنّي أحمَد إليكم اللّهَ الذي لا إلٰه إلا هو.

أما بعد. فإنّ الله عزّ وجلّ بحسن صِنْعه وتقديره وتدبيره، اختار الاسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله... فكان مما أكرم اللّهُ عزّ وجلّ به هذه الأمة... أن بعث إليهم محمّداً ﷺ، فعلّمهم الكتابَ والحكمة والفرائضَ والسنّة، لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيما لا يتفرّقوا...

ألاَ وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ... وقد بعثت إليكم قيسَ بن سعد بن عبادة أميراً... وقد أمرتُه بالإحسان إلى محسنكم، والشدّة على مُريبكم، والرّفقِ بعوامِّكم وخواصِّكم... أسأل الله عزّ وجلّ لنا ولكم عملاً زاكياً، وثواباً جزيلاً، ورحمة واسعة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

نستنتج من هذه المقتطفات من كتاب علي رضي الله عنه إلى أهل مصر، أنّه مماثل للكتب التي عرفناها عند رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، جميعها تبدأ بالبسملة، ثم من عبد الله فلان إلى فلان، وبعدها السلام والحمد، وأما بعد، ثم يتناول الموضوع الرئيسي بالبحث مستوحياً في ذلك القرآن الكريم وسنّة النبي صلوات الله وسلامه عليه، وتنتهي بالدعاء والسلام.

وقد تعودنا على الرسائل التي تتضمّن العبارات الموجزة البليغة، بينما نرى بعض الرسائل الطويلة في عهد عليّ رضوان الله عليه، وقد يكون السبب في ذلك، الجوّ السياسي العام، وتعدد الأحزاب والفرق، فكان لزاماً على الخليفة العمل على إقناع الجماهير بوجهة نظره، فكان لا بدّ من الإلحاح على الفكرة،

(1) تاريخ الطبري 548/4.

وكأنّ تلك الرسائل تشبه إلى حدٍّ ما، القوانين والأنظمة التي نراها الآن، من حيث بيان الأسباب الموجبة والتعليل والنتائج والأحكام ونحوها.

ولعلّ أطول عهد مكتوب في صدر الإسلام، ذاك الذي كتبه الإمام عليّ كرّم الله وجهه إلى الأشتر النخعي حين ولاه على مصر وأعمالها حيث بلغ حوالى ثمان وعشرين صفحة، في كتاب نهج البلاغة، ويتضمن على ما يشغل بال عليّ فيما ينبغي أن يكون عليه الراعي مع رعيته، والكتاب آية في البلاغة والفصاحة، وغزارة المعاني، وصدق اللهجة، إنه الاسلام الذي تجسّد في شخصية صاحبه وقد بدأه بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أَمَرَ به عبدُ الله عليّ أميرُ المؤمنينَ مالكَ بنَ الحارثِ الأشترَ في عهده إليه حين ولاّه مِصْرَ: جِباية خَراجِها، وجِهادَ عَدُوِّها، واستصلاحَ أهلِها، وعِمارَة بلادها.

أمره بتقوى الله... وأن يَكْسِرَ نفسه من الشهوات...

ثم تابع موضحاً الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الراعي مع رعيته، وكيف تكون العلاقة مع الله عزّ وجلّ، وأمره بالعدل، ووضّح له كيف يجب أن يختار بطانته، وطلب إليه الإكثار من مدارسة العلماء والحكماء، وبيّن له رأيه في طبقات المجتمع وصفات كل منها وكيف يجب أن يتعامل معها، وتحدّث عن الجنود مبيّناً مكانتهم وحقوقهم وواجباتهم، وعلاقته برؤساء الجند، وطريقة اختيار رجال القضاء والعمّال، وطلب إليه تفقُّدَ أمرِ الخَراج، وحُسْنِ اختيار الكُتّاب، والترفُّق بالتجار وذوي الصناعات وبيّن الأسباب الموجبة لذلك، وأَمَرَهُ أيضاً أن يخصّص وقتاً لذوي الحاجات، وأن لا يَحْجُبَ نفسه عن رعيّته، وأن لا يَدْفَعَ صلحاً دعاه إليه عدوٌّ وأن يبقى على حذر من الأعداء وأن يحترم معهد العهود والمواثيق، وحذّره من سفك الدماء بغير حِلِّها، ومن الإعجاب بنفسه والمَنِّ على رعيّتِه، والعَجَلَة بالأمور قبل أوانها. وأمره أن يقتدي بالسلف الصالح وأن يضع نصب عينيه الكتاب والسنّة. ثم ختم كتابه بقوله:

وأنا أسألُ الله بسَعَةِ رحمته وعظيم قُدرته على إعطاء كل رَغْبَةٍ، أن

يُوفِّقَني وإيّاك لما فيه رضاه... مع حُسْنِ الثّناء في العباد وجميلِ الأثرِ في البلادِ، وتمامِ النِّعمة... وأن يَخْتِمَ لي ولك بالسعادة والشهادة، وإنّا إليه راغبون. والسلام على رسول الله ﷺ وآله الطيّبينَ الطاهرين وسلّم تسليماً كثيراً. والسلام[1].

إن هذا الكتاب يبين لنا ما كان عليه الخليفة عليّ رضوان الله عليه من سعة الادراك في جميع الأمور، والمرتبة العالية في سلّم الفصاحة والبلاغة، حتى يمكننا أن نعتبر هذا الكتاب دستوراً يحتذى لكلِّ مَنْ تسلّم زمام الملك في أي بلد من البلدان لما فيه من معارف ثاقبة ومناهج فاضلة وأفكار شاملة.

هذا وقد جمع الشريف الرضي كثيراً من الكتب والرسائل في كتاب نهج البلاغة، ينسبها إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب منها إلى أعدائه، وإلى أمراء بلاده، وإلى قواد جيوشه، ومنها عهود ومواثيق وغيرها[2].

لا شك أن تلك الكتب التي كان يبعثها الخليفة عليّ في طول البلاد وعرضها، كان يتلقّى أجوبة مكتوبة عليها، مما يدلّ على انتشار القراءة والكتابة، فهناك الكاتبون للرسائل، وهناك القارئون لها وبالتالي الرّادّون عليها بالكتابة أيضاً.

ومن الوثائق الهامة في عهد عليّ كرّم الله وجهه، تلك الوثيقة التي كتبت في أعقاب معركة صفين بين جماعة علي وجماعة معاوية وضعتها حكومة المحكمين، ومما جاء فيها:

هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم، إننا نتزل عند حكم الله وكتابه، وأن لا يجمع بيننا غيره..الخ[3].

لقد كتبت هذه الوثيقة بأسلوب مبهم يحتمل معه التأويل والاجتهاد.

وأرسل عليّ رضوان الله عليه، جريرَ بن عبد الله البجليّ، إلى معاوية يأخذه بالبيعة له. فكتب معاوية إلى علي:

---

(1) نهج البلاغة 82/3 وحتى 111.

(2) نهج البلاغة ـ الجزء الثالث بكامله.

(3) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 320/3.

بسم الله الرحمن الرحيم

من معاوية بن صخر إلى عليّ بن أبي طالب.

أما بعد، فَلَعمْري لو بايَعَكَ القومُ الذين بايعوك وأنت بريءٌ من دم عثمان، كنتَ كأبي بكرٍ وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين. ولكنّك أَغْرَيْتَ بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهلُ وقويَ بك الضعيفُ، وقد أبى أهلُ الشامِ إلاّ قتالَك حتى تدفَعَ إليهم قتلةَ عثمان...[1]الخ.

هذه نماذج من الكتابة والمواثيق في عهد الخليفة الراشدي الرابع، مما يدل على أن الكتابة أصبحت شائعة بين الناس، ونشير أيضاً إلى ما ذكره ابن النديم، من أن علي بن أبي طالب أول من وضع شيئاً في أصول النحو، وأخذه عنه أبو الأسود الدوئلي، الذي وضع أيضاً النقط للحروف تدل على الفتح والكسر والضمّ والتنوين وذلك في عهده ونزولاً عند رغبته[2].

وذكر صاحب العقد الفريد: «كان يكتب لعلي رضوان الله عليه: سعيد بن نِمْران الهَمْداني، ثم ولى قضاء الكوفة لابن الزبير، وكان عبد الله بن جعفر يكتب له، ورُوي أنّ عبد الله بن حَسن كتب له، وكان عبد الله بن أبي رافع يكتب له، وسِماك بن حرب»[3].

بعد أن تحدثنا عن مراحل الكتابة وتطورها في عصر صدر الاسلام، وقدمنا عدة نماذج منها يمكننا القول، إنها تقدّمت تقدّماً حثيثاً عما كانت عليه في العصر الجاهلي، فقد كانت الوسيلة في تدوين القرآن الكريم ومن بعد في تدوين أحاديث الرسول ﷺ، وكان لها دورها في نشر الدعوة الإسلامية، عن طريق الرسائل التي كتبت لكثير من الناس متضمّنة الدعوة إلى الإسلام، وتوضيح عقائده ونشر مبادئه وتبيان أحكامه وشرائعه.

وكان للكتابة دورها في شؤون الحرب والسلم وكتابة العهود والمواثيق

---

(1) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرّد ـ 191/1.

(2) الفهرست ـ ابن النديم ص 45 ـ تحقيق رضا ـ تجدد.

(3) العقد الفريد ـ ابن عبد ربّه 164/4.

والوصايا والنصائح، وأصبحت وسيلة الاتصال الأساسية بين الخليفة وعماله وقواده في مختلف الأصقاع، ثم دعت الحاجة إليها في تدوين الدواوين وتنظيمها لضبط موارد الدولة ومصاريفها.

وكانت تلك الرسائل سهلة واضحة بعيدة عن التكلّف، خالية من مظاهر التبجيل والتفخيم متأثرة بالأسلوب القرآني، مقتبسة منه معانيها. تميل بمجملها إلى الإيجاز، والإطالة عند الضرورة.

وكانت بمعظمها متشابهة إذ تبدأ بـ: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم من فلان إلى فلان، ثم السلام عليكم، وأما بعد، ويثنون بقولهم: إني أحمد الله إليك. ويتخلّصون من صدر الكتاب إلى مضمونه ويختمونها بالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وعليه يمكننا القول: إن النثر الكتابي بلغ في عصر صدر الإسلام كلّ ما كان يُنتظر منه من تطوّر ونهوض.



الباب الخامس

نصوص وشخصيات

الفصل الأول

أ ـ مختارات من القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب الله المعجز، المنزَّلُ على محمد، خاتَم الأنبياء والمرسلين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ هو نور ورحمة، بشير ونذير؛ احتوى بين دفّتيه على آيات وسور، اشتملت على أمور الدين والدنيا، إنّها السبيل القويم لبلوغ البشريّة إلى ما تصبو إليه من رخاء وسعادة، ولنقل الانسانية من الفوضى والعبودية وسفك الدماء إلى الأمن والعدل والحريّة والمساواة، فتبارك الله ربّ العالمين.

وإذا كان المسلمون في شرق الأرض ومغربها، يعيشون حياة مريرة في ظل التخلّف والجهل والفوضى، فإنّ العيب كلّ العيب فيهم، وليس في عقيدتهم وشريعتهم، إذ إنهم ابتعدوا عن كتاب الله وسنّة نبيّه، فلمّا نسوا الله أنساهم أنفسهم.

وهذا قبس من الآيات القرآنية نعرضها فيما يلي:

جاء في سورة الاسراء:

﴿وقَضَى ربُّكَ ألاَّ تَعْبُدوا إلاَّ إيّاهُ، وبِالْوالدينِ إحساناً، إمَّا يَبْلُغَنَّ عندكَ الكِبَرَ أحَدُهُما أو كِلاهُما فلا تَقُلْ لهُما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لَهُما قولاً كريماً * واخْفِضْ لهما جناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُلْ ربِّ ارْحَمْهُمَا كما ربَّيَانِي صغيراً * رَبُّكُمْ أعْلَمُ بما في نُفوسِكُمْ إنْ تَكونُوا صَالِحِينَ فإنَّهُ كانَ لِلأوَّابينَ غَفُوراً

﴿وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ والمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ ولا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إنّ المُبَذِّرِينَ كانوا إخْوَانَ الشَّياطِينِ وكانَ الشَّيطانُ لِرَبِّه كَفُوراً * وإمّا تُعْرِضَنَّ عنهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قولاً مَيْسُوراً * ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً * إنّ ربَّك يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يشاءُ وَيَقْدِرُ، إنّه كانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً *﴾[1].

بما أنّ الله عزّ وجلّ هو الذي خلقك أيّها الانسان وسوّاك وبيده أمركَ كلّه، فمن واجباتك نحوه أن لا تعبد إلاّ إيّاه، ومن مقتضيات العبادة، أن تطيعه في جميع أوامره وأن تنتهي عن نواهيه.

وبما أنّ الوالدين يتحملان في سبيل تربية أولادهما العناء الكبير، إذ انّه من العسير أن يلمّ أحدنا بكل ما تتجشّمه الأمّ من مشاقٍّ في سبيل ولدها، وما يعانيه الأبُ في سبيل ابنه، وما يبذلانه من عظيم التضحيات، وهذا لا شكّ يدركه كلٌّ منّا، وإن بنسبٍ متفاوتة، حتى أننا نلاحظه على الحيوان بغريزته فكيف بالانسان العاقل؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي واجبات الإنسان نحو خالقه ونحو والديه؟

إنّ القرآن الكريم يرشدنا إلى السبيل القويم: وقضى ربُّك أي وأَمَرَ ربُّك، وحكَمَ وألزمَ، وأوْصى أن لا تعبدوا إلاّ إيّاه، ولا تُشْركوا بعبادته أحداً.

وبالوالدين إحساناً، أي وأَمَرَ بالوالدين إحساناً، فأَمَامُكَ والداك كلاهما، أو أحدهما وهو طاعنٌ في السنّ، ضعيفُ الجسد، خائرُ القوى، وربّما يكون مُنْهَدَّ القوى العقليّة، يتكلّمُ فلا يُحسنُ الكلام، وتحدّثه فلا يفهم الحديث، وقد يرتجف بلا بردٍ ولا مرضٍ، وقد يكون منه ما كان منك وأنت طفل صغير لا تعي.

والآن وقد أصبحتَ أنت شاباً طافحاً بالحياة والقوّة والعنفوان، فماذا يطلب الإسلام منك؟ تقول الآية الكريمة: وبالوالدين إحساناً. فكيف يكون الإحسان؟

(1) سورة الإسراء ـ الآيات من 23 إلى 30.

إنّ الاحسان يكون بالمحبّة الصادقة، والعاطفة النبيلة، والبذل والعطاء. والسهر على راحة الوالدين، ومن هذا الاحسان أن لا تقول كلمة ولو كانت صغيرة، تُشْعِرُهما بانزعاجك، فلا تتأفّف، وإياك إياك أن تقول لهما: أفّ. وإياك، إياك أن تنهرهما، وإنّ من الإحسان أن لا يتحرّك لسانُك معهما إلاّ بالقول الكريم، وأن لا تختلج عضلات وجهك إلاّ بالرّضى عنهما، وطلب برّهما ورضائهما، وأَلِنْ جانِبَكَ متذلّلاً لهما من مبالغتك في الرّحمة بهما والتواضع لهما بالقول والفعل. ثم ارفع رأسك إلى السماء وقل: ربّي ارحمهما في كبرهما وعند وفاتهما، كما ربياني صغيراً حينما كنت ضعيفاً عاجزاً. وعُدْ إلى طاعة الله فإنّه للأوّابين غفوراً، أي للرّاجعين إليه.

إنّ هذا الاحسان هو واجب عليك، ليس لك فيه مِنّة ولا جميل، أَلَمْ تَسْتَلِفْ منهما فيما مضى أكثر مما يُطْلَبُ منك؟ أَلَسْتَ أنت الانسان الصالح الذي يردّ الحقوقَ إلى أصحابها؟ إنها تجربة من تجارب الله لك، وبها تثبت صلاحك أو فسادك، وبالإحسان إلى الوالدين تقترب من الله، ويتوب عليك، ويحسن إليك، وما أروع إحسان الله وغفرانه، وما أحوج الإنسان إليه.

ويجدر الانتباه إلى أنّ الله عز وجلّ قرن برَّ الوالدين بعبادته: وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً.. وهذا دليل على تلك النظرة السامية التي ينظرها الله إلى الإنسان الذي يبرّ والديه. ونظراً لأهميّة هذا الموضوع فقد تكررت الآيات التي تحثّ عليه[1].

هذا جانب من التشريع الاسلامي، في مجال التربية وعلاقة الأبناء بوالديهما، وهناك جوانب أخرى في العلاقات الانسانية اهتمّ بها القرآن فقد جاء في الآية التالية:

﴿وآتِ ذا القربى حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولا تبذّرْ تبذيراً﴾.

هذا أمرٌ من الله مقرون بالعطف، فبعد أن ذكر تعالى برَّ الوالدين عطف بذكر الاحسان إلى القرابة وصلة الأرحام وطلب أن يعطى ذوي القرابة من صلة

(1) انظر سورة العنكبوت ـ الآية 8، وسورة لقمان ـ الآية 14، وسورة الأحقاف ـ الآية 15.

الرّحِم حقوقَهم من المال والمودّة والمعاضدة والزيارة وحُسن المعاشرة، والمؤالفة على السّراء والضرّاء ونحو ذلك.

وأمر أيضاً بإعطاء المسكين حقّه، فمن هو المسكين؟ قال الرسول ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس فَتَردِه اللقمة واللقمتان والتّمرة والتمرتان. قالوا فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجدُ غِنىً يغنيه، ولا يُفطنُ له فيتصدّق عليه، ولا يسأل الناسَ شيئاً»[1].

وهناك واجب آخر نحو ابن السبيل، وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فَيُعْطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده.

إنّ مساعدة ذوي القربى، والمساكين، وأبناء السبيل لا تعني أن تقدّم كل ما جَنَتْهُ يداك في سبيلهم فتصبح أنت الفقير المحتاج.

ولا يحقّ لك أيها الإنسان أن تبذّر أموالك التي مَنَحَكَ الله إياها، في طريق السَّفَه والمعاصي فتصبح قريناً للشيطان في جحوده وإنكاره لنعمة الله عليه.

وفي الآية الكريمة: **﴿وإمّا تُعْرِضَنَّ عنهمُ ٱبتغاءَ رحمةٍ من ربِّكَ تَرْجوها، فَقُلْ لهم قولاً ميسوراً﴾**.

إنها توجيه وإرشاد في التربية وحُسْن المعاملة، إذ المقصود أنه إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم، وليس عندك شيءٌ، وأعرضت عنهم، فقل لهم قولاً ميسوراً، سهلاً ليّناً وعِدْهُم بالمساعدةَ حين تَحْسُن الأحوال معك: **﴿ابتغاء رحمة من ربّك ترجوها﴾**.

﴿ولا تجعلْ يَدَكَ مَغْلولَةً إلى عُنُقك ولا تَبْسُطْها كلَّ الْبَسْطِ فتقعُدَ ملوماً محسوراً﴾. أي أنّ الله يأمر بالاقتصاد في العيش، يذمّ البخلِ وينهى عن السّرَف، فالبخيل يبتعد عنه الناس ويذمّونه، والمسرف يُنْفِقُ أكثر من دَخْلِه، فلم يبقَ عنده شيئاً، فيبتعد عنه الناس ويذمّونه أيضاً، فتكون النتيجة أن يقعد كلٌّ من البخيل والمسرف ملوماً محسوراً أي ضعيفاً لا قوّة له.

(1) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ الآية 364/2.

ثم يخبرنا أخيراً أن الله سبحانه وتعالى هو الرزّاق، القابض المتصرّف في خلقه بما يشاء، فيُغني من يشاء، ويُفقرُ من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة ولهذا قال: ﴿**إنه كان بعباده خبيراً بصيراً**﴾.

هذا من ناحية المعنى العام لتلك الآيات الكريمة أمّا من ناحية الأسلوب الملاحظ قبل كل شيء، أول كلمة فيها وهي ﴿**وقضى**﴾، إنها فعل ماضي تدل على أن الحكم من الله تعالى قد صدر وانتهى وفُرضت الطاعة وليس هناك من مجال أمام الإنسان إلا تنفيذ الأمر.

ونلاحظ تقديم كلمة ﴿**بالوالدين**﴾ وهي جار ومجرور على متعلقهما وهو ﴿**إحساناً**﴾ وهذا يفيد التخصيص والاهتمام بأمرهما.

ونلاحظ تثنية الوالدين وإفرادَهما، فالبرّ واجب على الإنسان إن كان له والدان أو واحد فقط.

واستعمال كلمة «أفّ» بهذه الصيغة، سهلة اللفظ، قليلة الحروف، تدلّ على وجوب الامتناع عن التفوّه بأصغر كلمة تشير إلى التأفّف.

وهناك الكناية الرائعة في قوله تعالى: ﴿**واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة**﴾ ففيها صورة الخضوع والرحمة التي ما بعدها من مزيد، فهي كناية عن التذلّل.

وكذلك الكناية الأخرى في قوله تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾ وهذا مجاز أيضاً، عَبَّر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله، فضرب له مثلاً الغلّ الذي يمنع من تصرّف اليدين، وكناية مصوّرة موحية.

أما تلك النغمة الموسيقية ففيها الهدوء أكثر مما فيها الضجة والعنفوان لقد تكوّنت من المفردات ونظمها والمدّ والحركات، ومن الفواصل الإيقاعية المنسجمة: صغيراً، غفوراً، تبذيراً، كفوراً، ميسوراً، محسوراً الخ..

وبعد، لم يكن القرآن الكريم إلاّ دستورَ مجتمعٍ، يربط الإنسان بالله، كما يربط الإنسان بأخيه الإنسان، أيّاً كان ذلك الإنسان، ولا يتركه ينسى ذاته، يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقّه.

وليس إعجاز القرآن إلاّ بما تضمّنه من معاني رائعة، خالدة على مدى الزمن، مسبوكة بقوالب عجز الإنسان عن سبك مثلها، وأسلوب وقف الناسُ أمامه ذاهلين حيارى.

ب ـ مختارت من الحديث الشريف

إنّ رسالة الأنبياء هي هداية البشر إلى ما فيه نجاحهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وقد نزل القرآن الكريم لتلك الهداية، منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب، وأخر متشابهات. ومنه القضية العامةّ والقاعدة الخاصة، يشرحها النبيّ للناس، فيبيّن ما يعوزهم بيانه، ويفصّل ما ينقصهم تفصيله، بكلام سهل فصيح.

وقد آثرت هنا أن أختار من الحديث الشريف ما يتلاءم مع الآيات القرآنية التي سبق التحدث عنها: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً..**﴾ إلى آخر الآيات. فقد جاء في برّ الوالدين أحاديث كثيرة منها:

وفي الصحيح، عن أبي بَكْرة، قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخْبِركم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال الإشراكُ بالله، وعقوق الوالدين».

وعن أَنَس، في الصحيح أيضاً: الإشراكُ بالله، وقَتْلُ النفس، وعقوقُ الوالدين، ومن البرِّ إليهما، والإحسان إليهما ألاّ نتعرّض لسبِّهما.

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمرو، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ من أكبر الكبائر أن يَلْعَنَ الرَّجلُ والديه. قيل: يا رسول الله، كيف يلعنُ الرجلُ والديه؟ قال: يسبُّ أبا الرجل، فيسبّ أباه، ويسبّ أمّه فيسبّ أمّه[1].

ونلاحظ هنا أنّ الرسول ﷺ قد وضع مرتبة عقوق الوالدين في مرتبة الإشراك بالله، وبما أنّ المشرك لا حظّ له في الاسلام ولن يدخل الجنة فكذلك حال عاقّ الوالدين. وهذا ينسجم مع مضمون الآية الكريمة: ﴿**وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً...**﴾ ثم إنّه يعتبر عقوق الوالدين كقتل النفس، وقاتل النفس لا يدخل الجنّة، وقاتل النفس كأنما قتل الناس جميعاً، ثم يضيف

(1) أحكام القرآن ـ ابن العربي 1197/2 وما بعدها.

لرسول ﷺ مرشداً وموجِّهاً، انّ من البرّ والإحسان إلى الوالدين أن نتجنّب سبّ الآخرين حتى لا يسبانهما، ونلاحظ هنا الاستفهام الإنكاري: وكيف يلعن...؟.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه!

قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنّة.

والتكرار اللفظي هنا: رغم أنفه ثلاث مرات هو تأكيد لفظي ينطوي على إنذار وتهديد، وهي جملة فعليّة دعائية، والفعل الماضي هنا تأكيد للوقوع، ولو لم يكرره الرسول لكفى لصاحبه الخَيْبة والخسران، وتتكرر ثم تتكرر حتى يخفق قلبُ السامع، ويستولي عليه الرعب، وهذا ما حصل، فقد فزع الصحابي وبادر بالسؤال فأجابه الرسول ﷺ، أنّ هذا الشقيّ المحروم هو عاقٌّ الوالدين أو أحدهما، وينسب إدخال الإنسان الجنّة أو عدم إدخاله، إلى الوالدين وكأنّهما يملكان هذا الحقّ تماماً.

وجاء رجل من الأنصار فقال يا رسول الله هل بقيَ عليّ من بِرّ أَبَوَيَّ شيء بعد موتهما أبرّهما به؟ قال: نعم خصال أربع:

الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرّحم التي لا رحم لك إلاّ من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من برّهما بعد موتهما[1].

وهكذا نرى أنّ بِرَّ الوالدين، في نظر الاسلام، لا ينقطع عند موتهما، وإنما على الإنسان المسلم أن يستمر في بِرّهما بما فصّله الرسول ﷺ في الخصال الأربعة الآنفة الذكر.

أمّا من الناحية الماديّة فقد قال عليه الصلاة والسلام: أنت ومالُكَ لأبيك. أي تشبيههما بما يملكه الأب، وكأن الرسول ﷺ يقول للإنسان: نَزِّلْ نفسك وَمَالَكَ من أبيكَ منزلة المملوك من المالك.

هذا شيء من حقوق الوالدين، فما هي حقوق الآخرين في أحاديث

(1) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير 35/3.

الرسول ﷺ بعدما ذكرناه عن الآية الكريمة: ﴿وآت ذا القُرْبى حقّهُ والـمسكينَ وابنَ السبيـلِ ولا تبذّر تبذيرا﴾.

يقول ابن كثير: وفي الحديث: «أمَّكَ وأباكَ ثم أدناكَ أدناكَ». وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب». وفي الحديث: «من أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقه وَيُنْسَأَ له في أجله فَلْيَصِلْ رحمه»[1].

كما ذكر تعالى برَّ الوالدين وهما أقرب الأقربين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة الأَبْعَدِ بطريقة تسلسلية وصلة الأرحام ثم تابع: والـمسكين وابن السبيل.

قال ابن العربي في كتابه (أحكام القرآن): قوله تعالى: ﴿والـمساكين﴾ يعني الذين لا يسألون، والسائلين يعني الذين كشفوا وجوههم، وقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ليس الـمسكين الذي تردُّهُ اللّقمةُ واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكنّ المسكين الذي لا يجدُ غِنىً يُغْنِيهِ، ولا يُفْطَنُ له فَيُتَصَدَّقُ عليه»[2].

ونلاحظ هنا في هذا الحديث الشريف أن الرسول ﷺ استعمل طريقة القصر بلفظة (لكن)، وهي من الطرق الصريحة فقد ذكر ما أثبت له، وما نفى عنه تأكيداً لمضمون الكلام، وهذا شيءٌ من البلاغة والبيان النبويّ.

وقد ورد هذا الحديث الشريف بشكل آخر، فقد جاء في الموطّأ ما يلي: عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الـمسكينُ بهذا الطّوّافِ الذي يطوف على الناسِ فتردُّهُ اللُّقْمَةُ واللقمتان والتمرةُ والتمرتان». قالوا: فما الـمسكينَ يا رسولَ الله؟ قال: «الذي لا يَجِدُ غِنىً يُغْنيهِ، ولا يَفْطِنُ الناسُ له فَيُتَصَدَّقُ عليه، ولا يقومُ فيسأَلُ الناسَ»[3].

وقد سبق وأشرنا إلى أنّ ابن السبيل هو ذلك المسافر الذي يجتاز بلادك ولم يبق معه نفقات العودة إلى وطنه.

---

(1) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير 36/3.

(2) أحكام القرآن ـ ابن العربي 60/1.

(3) الموطّأ ـ الإمام مالك ص 661.

وهؤلاء لهم حقّان: أحدهما أداء الزكاة. والثاني: الحقّ المفترض من الحاجة عند عدم الزكاة، أو فنائها، أو تقصيرها من عموم المحتاجين[1].

وقال رسول الله ﷺ: «للسائل حقّ وإن جاء على فرس»[2].

لقد حثّ الإسلامُ الناسَ على البذل والعطاء، وهناك أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ في هذا المجال منها: «مَنْ تصدّقَ بصدقة من كسبٍ طيّب(*) - ولا يَقْبَلُ اللّه إلاّ طَيّباً - كان إنّما يَضَعُها في كفِّ الرحمن، يُرَبِّيها كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوّهُ(*) أو فَصِيلَهُ(*)، حتى يكونَ مثلَ الجبل»[3].

لقد أَمَر اللّه عزّ وجلّ بالإقبال على الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل عند التمكّن من العطاء، والقدرة، وإذا كان هناك عَجْزٌ، جازَ الإعراضُ عن ذوي الحاجة، بانتظار التّيسير من الله، على أن يقولَ لهم قولاً حسناً بَدَلَ العطاء.

وقد أَمَرَ الله أيضاً بعدم الاسراف والتبذير وكذلك بعدم البخل والتقتير، وأن يسلك الإنسان بين ذلك طريقاً وسطاً.

وإذا كان الإسلام قد حثّ على البذل والعطاء، فقد حثّ من جهة أخرى على التعفّف والبعد عن ذلّ السؤال، فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال:

«ما يكونُ عندي من خيرٍ فلن أدَّخِرَهُ عنكم، ومن يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ الله، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، ومن يَتَصَبَّرْ يُصبِّرْهُ الله، وما أُعْطِيَ أحدٌ عطاءً هو خَيْرٌ وأوسعُ من الصَّبْرِ».

وعن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «اليدُ العُليا خيرٌ من اليد السُّفْلى، واليدُ العليا هي المُنْفِقَةُ، والسُّفْلى هي السّائلة»[4].

---

(1) أحكام القرآن - ابن العربي - 1203/2.

(2) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير 234/4.

(3) الموطّأ - الإمام مالك ص 703.

(*) الطيّب: الحلال. الفلو: المهر الصغير. الفصيل: ولد الناقة.

(4) الموطّأ - الإمام مالك ص 705.

إنّ المتأمل في هذا الحديث يرى أن الرسول ﷺ يريد من المؤمن أن يكون عزيز النفس، ولا يريده عالةً يسأل الناس: أَعطوه أو منعوه. وفي الحديث تصوير لحال المُعْطِي والآخذ: فَيَدٌ ممتدة للسؤال، ذليلة، منتظره، ويد عزيزة، عالية. وليس المقصود مدح يدٍ وذمّ أخرى، وإنما الممدوح والمذموم صاحبُ اليد، فالقصد من الحديث جَعْلُ الشخصين في منزلتين: عليا وسفلى، وتقرير فضل الأولى على الثانية في الخير.

وقد اختار الرسول ﷺ التعبير باليد لأنّها آلةُ الأَخْذِ والعطاء، وإن إيجاز العبارة مع إيحائها وتصويرها المعنى، تُنَفِّر السائلَ من أن يسألَ فيكون الأسفل، وهذا أيضاً من البيان النبويّ.

الفصل الثاني

شخصيات مميزة للعصر

أ ـــ كعب بن زهير ... -26هـ = ... - 645م (*)

ترجمته:

هو كعب بن زهير بن أبي سُلْمى من مُزَيْنَة وكانت محلّتهم عند أخواله في بلاد غطفان، فيظن الناس أنهم من غطفان، أمّه يقال له كَبْشة بنت عَمَّار، وهي أمُّ سائر أولاد زهير.

وكان والده زهير أحد الشعراء الثلاثة الفحول المتقدّمين على سائر الشعراء بالاتفاق، وإنما اختلفوا في تقديم أحدهم على الآخر وهم: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة الذبياني، قال ابن قتيبة: يقال إنّه لم يتصل الشعر في وَلَدِ أَحَدٍ من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير. وقال ابن الاعرابي: لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وأخته الخنساء شاعرة، وإبناه كعب وبجير شاعرين، وإبن ابنه المضرب بن كعب شاعراً[1].

وكعب، هو أحد فحول الشعراء المخضرمين، وصاحب قصيدة «بانت سعاد»، وهي اللّامية المشهورة في مدح النبيّ الأمين. وكان يكنّى أبا عقبة وقيل هو أبو المضرب، وفي المضرب لقب عقبة الذي شبّب بامرأة فضربه أخوها بالسيف ضربات كثيرة فلم يمت. وقيل كان لعقبة ولد يقال له العوّام وكان

(*) الأعلام: الزركلي: 226/5.

(1) خزانة الأدب البغدادي ـ 375/1 ـ الأغاني ـ الأصفهاني 82/17.

شاعراً أيضاً، فهؤلاء خمسة شعراء في نسق: العوّام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى[1].

شاعريته:

تحرّك كعب بن زهير وهو يتكلّم الشعر، فكان زهير ينهاهُ مخافةَ أن يكونَ لـم يَسْتَحْكِمْ شعرهُ، فَيُرْوَى له ما لا خَيْرَ فيه، فكان يَضْرِبُهُ في ذلك، فكلّما ضربه يزيدُ فيه فغلبه. ثم أطلقه وسَرَّحَه في بَهْمه وهو غُلَيِّم صغير، فانطلق فَرَعَى، ثم راح عشيَّة وهو يرتجز:

كـأنّـمـا أحْـدُو بـبـهـمـي عِـيـرَا مـن الـقُـرَى مُـوقَـرَةً شـعـيـراً(*)

فخرج إليه زهير وهو غضبان... ثم أَرْدَفَه خلفه على ناقته، ثم خرج وهو يريد أن يَعْلَمَ ما عنده من الشعر، فقال زهير حين بَرَزَ إلى الحيّ:

إنّـي لَـتُـعْـدِيـنـي عـلـى الـحـيّ جَـسْـرَةٌ تَـخُـبُّ بِـوَصّـالٍ صَـرُومٍ وتُـعْـنِـقُ(**)

ثم ضرب كَعْباً، وقال له: أَجِزْ يا لُكع(***)، فقال كعب:

كـبُنْيَـانَـةِ الـقَـرْئِـيِّ مـوضـعُ رحـلـهـا وآثارُ نِسْعَيْها من الدَّفِّ أَبْلَقُ(****)

ثم ترك الإبل وانتقل زهير فبدأ في نعت النعام، وهو يقول لكعب: أجز يا لكع؛ وبعد أن امتحنه امتحاناً شديداً واستوثق من شاعريّته وإجادته، أخذ بيده ثم قال له: قد أَذِنْتُ لك في الشعر يا بنيّ.

فلما نزل كعب وانتهى إلى أهله ــ وهو صغير يومئذ ــ قال:

---

(1) الشعر والشعراء ــ ابن قتيبة 80/1 - 89 ــ خزانة الأدب العربي ــ البغدادي 11/4.

(*) البهم: الصغار من ولد الضأن.

(**) الجسرة: الناقة الطويلة الضخمة. الخبب: ضرب من العدو السريع. تعنق: تسير سيراً منبسطاً، أي أنه لتساعدني ناقة طويلة نشيطة.

(***) لُكَع: المُهْرُ والجَحْشُ ويقال للصبيّ الصغير أيضاً لُكَعٌ، وقيل: اللئيم الأحمق.

(****) وذكر: كقنطرة الروميّ. الدّفّ: المشي. النسع: سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره. أبلق: تجحيل، سواد وبياض، قرئي: نسبة إلى قرية تشبيه ببيان القرى.

أبِيتُ فلا أهجو الصديقَ ومَنْ يَبِعْ بِعِرْضِ أبيه في المَعَاشِرِ يُنْفِقِ[1][*]

إن المرتبة العالية التي تبوّأها زهير بن أبي سلمى بين شعراء العصر الجاهلي، معروفة واضحة ومع ذلك قيل لخلف الأحمر: زهيرٌ أشعر أم ابنه كعب؟ قال: لولا أبياتٌ لزهير أكبرَها الناسُ لقلتُ إنّ كعباً أشعرُ منه. ويذكر ابن قتيبة أيضاً أن كعباً كان مبرزاً في الوصف، ومما سبق إليه فأخذه الشعراء منه وصفه للذئب والغراب حيث أبدع في ذلك وبعدها سطا على وصفه هذا الشاعران: ذو الرمّة والطرِمّاح[2].

وذكر ابن رشيق: «أجمعَ الناسُ على تقديم قول كعب بن زهير يمدح رسول الله ﷺ:

تحمِلُهُ الناقةُ الأدماءُ مُعْتَجِراً بالبردِ كالبدرِ جلّى ليلةَ الظُّلَمِ

وفي عِطَافَيْهِ أو أثناءَ رَيْطَتِهِ ما يَعْلَمُ اللّهُ من دينٍ ومن كَرَمِ[3]

لقد كان كعب شاعراً له قدره، وكفاه فخراً أنّ الحطيئة الشاعر الفحل - على شهرته - رجاه أن ينوّه به في شعره. فقد ذكر ابن سلاّم:

وكان الحطيئةُ متين الشعرِ شرود القافية، وكان راويةً لزهير وآل زهير،... وقال لكعب بن زهير: قد علمتَ روايتي شِعْرَ أهلِ البيتِ وانقطاعي، وقد ذهب الفحولُ غيري وغيرُك، فلو قلتَ شعراً تذكرُ فيه نفسَكَ وتَضَعُني موضعاً، فإنّ الناسَ لأشعارِكم أرْوى وإليها أسرَع. فقال كعب:

فَمَنْ لِلْقَوَافِي؟ شَانَها من يحوكُها إذا ما ثَوَى كعبٌ وفَوَّزَ جَرْوَلُ

يقولُ، فلا يَعْيَى بشيءٍ يقولُه ومِنْ قائليها من يُسِيءُ ويَعْمَلُ

كَفَيْتكَ، لا تَلْقَى من النّاس واحداً تَنَخَّلَ منها مثلَ ما يتنخَّلُ

(*) من يبع: من يشتر. المعاشر: جمع معشر، وهو الجماعة. ينفق: يجد نفاقاً لمتاعه. أي يجد من يشتمه.

(1) الأغاني - الأصفهاني 84/17 وانظر شعر زهير بن أبي سلمى - صنعة الأعلم الشنتمري - تحقيق فخر الدين قباوة ص 43.

(2) الشعر والشعراء - ابن قتيبة 77/1 وما بعدها.

(3) العمدة - ابن رشيق 136/2 - البداية والنهاية - ابن كثير 373/4.

يُثَقِّفُها حتّى تَلينَ مُتُونُها　　　فَيَقْصُرُ عنها كلُّ ما يُتَمَثَّلُ[1](*)

وهكذا تلاحظ أن كعباً قد تلقّن الشعر عن أبيه زهير، الذي درّبه ومرّنه على صوغ الشعر ونظمه حتى أصبح من كبار الشعراء الجاهليين، ويبدو أنّ شهرته فاقت شهرة الحطيئة لذلك طلب هذا من كعب أن يذكره في شعره ليخلّد ذكره، وهذا ما حصل.

ومما يُتمثَّل به من شعر كعب قوله:

ومن دعا الناسَ إلى ذَمِّهِ　　　ذمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ

مقالةُ السُّوءِ إلى أَهْلِها　　　أسرعُ من مُنْحدرٍ سائلِ[2]

ومما يُستجاد لكعب من شعره تلك الأبيات التي تدلّ على نظرات صادقة في القدر ونصيب المرء في هذه الدنيا، ومنها قوله:

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجبني　　　سَعْيُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدرُ

يسعى الفتى لأمورٍ ليس يُدْرِكُها　　　فالنفسُ واحدة والهمُّ مُنْتَشِرُ

والمرءُ ما عاشَ ممدودٌ له أملٌ　　　لا تنتهي الْعَيْنُ حتى ينتهي الأثرُ[3]

وهكذا نلاحظ أن كعباً في حكمه هذه، متأثر بمدرسة أبيه زهير، والتي تجنحُ إلى النصح والموعظة، وكلّها خلاصة طيبة لتجارب حياة طويلة.

إسلامه وقصيدته الغرّاء «بانت سعاد»:

عن أبي عمرو بن العلاء أن سبب إسلام كعب بن زهير هو: أنّ زهيراً قال لبنيه: إنّي رأيتُ في منامي سبباً دُلِّيَ من السماء إلى الأرض، فمددت يدي لأتناولَه ففاتني، فأوّلته بالنبيِّ الذي يُبْعَثُ في هذا الزمان، وإنّي لا أدركُه، فمن أدركه منكم فليؤمن به. فلما بعث الله محمّداً ﷺ، آمن بُجَير بن زهير، وأقام

(*) شانها: عابها. ثوى: هلك. فوّز: مات. جرول: الحطيئة. يعيى: لم يهتد. كفيتك: حسبك وكفاك. تنخّل: اختار. يثقفها: يسوّيها. المتن: جنب الظهر. يتمثل: أجود الشعر.

(1) طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام 104/1 ـ وانظر الأغاني ـ الأصفهاني 165/2.

(2) نهاية الأرب ـ النويري 70/3.

(3) خزانة الأدب ـ البغدادي 11/4 (صادر) ـ الحماسة البصرية ـ البصْري 23/2.

كعبٌ على الكفر والتشبب بنساء المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «لئن وَقَعَ كعبُ بن زهير في يدي لأقطعنّ لسانه»[1].

وفي رواية أخرى: خرج كعب وبجيز إبنا زهير حتى أتيا «أبرق»[*]، فقال بُجَيْر لكعب أثبت في غنمنا هذا في هذا المكان حتى آتي هذا الرجل - يعني رسول الله ﷺ - فأسمع ما يقول، فثبت كعب وخرج بجير، فجاء رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام فأسلم، وبلغ ذلك كعباً، فقال:

ألا أَبْلِغا عنّي بُجَيْراً رسالةً ... على أيّ شيءٍ - وَيْبَ غيْرِكَ - دَلَّكَا
على خُلُقٍ لم تُلْفِ أمّاً ولا أباً ... عليه ولم تُدرك عليه أخاً لَكَا
سقاكَ أبو بكرٍ بكأسٍ رَوِيَّةٍ ... فأنهلَك المأمونُ منها وَعَلَّكَا[*][2]

فبلغت أبياته هذه رسول الله ﷺ فأهدر دمه، وقال: من لقي منكم كعب بن زهير فلْيَقْتُلْه. ولما انصرف النبيّ ﷺ عن الطائف، كتب بُجير إلى أخيه كعب يخبره أنّ النبيّ ﷺ قتل رجلاً بمكة ممّن كان يهجوه ويؤذيه، وأنّ من بقي من شعراء قريش كابن الزِّبَعْري، وهُبَيْرة بن أبي وَهْب قد هربوا في كلّ وَجْه، فإن كانت لك في نفسك حاجة، فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ، فإنّه لا يقتلُ أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل، فأنْجُ إلى نَجَائِك من الأرض وما أراكَ بمفلت، وكتب بُجير إلى كعب:

من مُبْلِغٌ كعباً فهل لك في التي ... تلومُ عليها باطلاً وهي أحزمُ
إلى الله لا العزّى ولا اللاّت وحدَهُ ... فَتَنْجُو إذا كان النَّجاءُ وتَسْلَمُ

فلما بلغ كعبٌ الكتابَ ضاقت به الأرض، ثم خرج حتى قَدِمَ المدينة متنكّراً، فصلى مع رسول الله ﷺ صلاة الفَجْرِ ثم وضع كعبٌ يده في يد النبيّ

---

(1) خزانة الأدب - البغدادي 154/9.

(*) أبرق: ماء لبني أسد.

(2) الاصابة في تمييز الصحابة - العسقلاني 295/3 - البداية والنهاية - ابن كثير 372/4 - الأغاني - الأصفهاني 86/17.

(*) المأمون: يعني النبيّ ﷺ وكانت قريش تسميه المأمون والأمين. النهل: الشرب الأول. العلل: الشرب الثاني.

ﷺ وكان الرسول لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إنّ كعب بن زهير قد أتى مستأمناً تائباً، أَفَتُؤَمِّنه فآتيك به؟ قال: هو آمن، فحَسَرَ كعبٌ عن وجهه وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هذا مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير، فأمّنه النبيّ ﷺ[1]. ثم قام وأنشد قصيدته المشهورة «بانت سعاد» التي اعتذر فيها إلى الرسول ﷺ ومنها قوله:

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبي اليومَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ عندها لم يُجزَ مَكْبُولُ[2]
وما سعادُ غداةَ الْبَيْنِ إذ عَرَضَتْ ... إلاّ أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ[3]

* * *

كانتْ مَوَاعِيدُ عُرقوبٍ لها مَثَلاً ... وما مَوَاعِيدُها إلاّ الأَباطِيلُ[4]

* * *

أَمْسَتْ سعادُ بأرضٍ ما يُبَلِّغُها ... إلاّ العِتاقُ النَّجيباتُ الْمَراسِيلُ[5]

* * *

وقال كلُّ صديقٍ كنتُ آمُلُهُ ... لا أُلْهِيَنَّكَ إنِّي عنكَ مَشْغُولُ[6]
فقلتُ خَلُّوا طريقِي لا أَبَا لَكُمُ ... فكلُّ ما قَدَّرَ الرحمنُ مَفْعُولُ
كلُّ ابْنِ أُنْثَى وإن طالتْ سلامتُهُ ... يوماً على آلةٍ حَدْبَاءَ مَحمولُ[7]
نُبِّئْتُ أنَّ رسولَ اللّهِ أَوْعَدَنِي ... والْعَفْوُ عندَ رسولِ اللّهِ مأمولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الذي أعطاكَ نافِلَةَ الـ ... قُرآنِ فيها مواعيظٌ وتَفْصِيلُ[8]

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 22/1. الأغاني ـ الأصفهاني 86/17. البداية والنهاية ـ ابن كثير 368/4.

(2) بانت: فارقت. متبول: غلبه الحب. متيّم: مذلّل، مستعبد. يجز: من الجزاء. مكبول: مقيّد.

(3) الأغن: الذي في صوته غنّة. غضيض الطرف: فاتر الطرف.

(4) عرقوب: رجل يضرب به المثل في خلف الوعد، وكان بالمدينة.

(5) المراسيل: الخفاف. يقول: لا يبلّغني سعاد إلا مثل هذه النوق لبعدها.

(6) لا ألهينّك: لا أشغلك عما أنت فيه.

(7) الآلة: النعش. حدباء: معوّجة.

(8) النافلة: العطيّة الزيادة المتطوع بها زيادة على غيرها. إشارة إلى أن القرآن زيادة على ما أنعم الله به على الرسول من العلوم.

لا تَـأْخُـذَنِّـي بـأقـوالِ الـوُشَـاةِ ولـم ... أُذْنِبْ ولو كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَاوِيلُ

* * *

إنَّ الـرسـولَ لَـنُـورٌ يُـسْـتَـضـاءُ بـه ... مُهَنَّدٌ من سُيُوفِ اللّهِ مَسْلُولُ

أَغَـرُّ أَبْـلَـجُ يُـسْـتَـسْـقَـى الـغَـمـامُ بـه ... كأنَّ طَلْعَتَهُ في اللّيلِ قِنْدِيلُ

فـي عُـصْـبَـةٍ مـن قـريـشٍ قـال قَـائِلُـهـم ... بِبَطْنِ مَكَّةَ لـمّا أَسْلَمُوا زُولُوا[1]

* * *

شُـمُّ الـعَـرَانـيـن أبـطـالٌ لَـبُـوسُـهُـمُ ... مِن نَسْجِ داودَ في الهيجا سَرَابِيلُ[2]

* * *

لا يَـقَـعُ الـطَّـعْـنُ إلاّ فـي نُـحُـورِهِـمُ ... وما لهم عن حِيَاضِ الموتِ تَهْلِيلُ[3]

هذه بعض الأبيات من قصيدة «بانت سعاد» أو «اللامية» أو قصيدة «البردة» التي أنشدها كعب بن زهير، بين يدي رسول الله ﷺ حين جاءه معتذراً، مادحاً، معلناً إسلامه. وهي قصيدة طويلة، فقد ذكرها النويري في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» فبلغ عدد أبياتها سبعة وخمسين، بينما نجدها عند ابن كثير وقد بلغت أربعة وخمسين بيتاً من الشعر، وذكر ابن قتيبة منها اثني عشر بيتاً، وابن سلام عشرة أبيات فقط[4].

إنّ هذه القصيدة «بانت سعاد» هي أشهر ما بقي لنا من شعر كعب بن زهير، وقد أعجب بها الرسول ﷺ فخلع عليه بردته، لذلك سمّيت قصيدة «البردة». فلمّا كان زمن معاوية بن أبي سفيان، أرسل إلى كعب: أن بعْنا بُردة رسول الله. فقال: ما كنتُ لأوثر بثوب رسول الله أحداً. فلما مات كعب اشتراها

---

(1) زولوا: انتقلوا من مكة إلى المدينة.

(2) العرانين: الأنوف. الشمم: الحدة في طرف الأنف مع تشمير. نسج داود: الدروع. الهيجا: الحرب. سربال: قميص.

(3) تهليل: هروب من الحرب.

(4) نهاية الأرب ـ النويري 431/16 ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير 370/4. الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 89/1 طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام الجمحي 99/1.

معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم، وهي البردة التي يلبسها الخلفاء في الأعياد[1].

وكان لهذه القصيدة في نفوس الناس المكانة العظمى، لذلك تبارى الشرّاح في شرحها والتعليق عليها، وتنافس الشعراء في معارضتها وتشطيرها وتخميسها حتى جاوزت آثارهم الخمسين. ولعلَّ أشهر المعارضات قصيدة «البوصيري» صاحب «البردة، واسمها: ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد». ومطلعها:

إلى متى أنت باللذات مشغول   وأنت عن كلّ ما قدمت مسؤول[2]

لقد ظفرت قصيدة كعب هذه بعناية بالغة لم تظفر بها قصيدة أخرى، وقد ترجمها المستشرقون إلى عدة لغات، وهي من أشهر أشعار العرب، وألبست الشاعر حلّة مجدٍ لا يبلى[3].

ونحن نلاحظ في هذه القصيدة كيف أنه بدأ بمطلع غزلي تقليدي، وكلام على الوعد والخُلف بالوعد، على غرار الشعراء الجاهليين، ثم يذكر كيف أن الناس، حتى الأصدقاء منهم، قد تخلُّوا عنه، وهو هنا يجنح إلى غرابة الألفاظ وبداوتها مع فخامة الأسلوب وشدّة الأسر.

ثم نراه يطرق باب الحكمة في قوله: فقلت خلُّوا طريقي... و: كلّ ابن أنثى... وهل يعقل أن ينسى كعب الحكمة، وهو ابن زهير شاعرالحكمة، وراويته، وقد نشأ وترعرع في أحضانه.

وبعد ذلك ينتقل إلى الغرض الذي من أجله أنشأ قصيدته، وهو المدح، وهنا نلاحظ أنه يفترق عمن سبقه من شعراء الجاهلية، فقد كان أحدهم يمدح سيداً من سادات العرب الجاهليين فيصفه بالشجاعة والكرم المطلق وسداد الرأي وامتناع النّظير. وكعب يمدح نبيّاً كريماً أتى بالهداية بعد الضلال وبالرشد

---

(1) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير 276/2 ـ الاصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني 296/3.

(2) زهير بن أبي سلمى ـ عبد الحميد سند الجندي ـ ص 162 ـ المؤسسة المصرية للطباعة والنشر.

(3) تاريخ الأدب العربي ـ كارل بروكلمان ـ 156/1.

بعد الغيّ وبالنور بعد الظلمة، ويعتذر عن جريرته، ويرجو منه كريم صفحه.

ثم يتابع كلامه بمدح صحابة الرسول، ونراه حين يدخل في المدح تلين ألفاظه، وتسهل إلى حدّ كبير، حتى ليخيّل إلينا أننا لا نقرأ شعراً جاهلياً يمتّ إلى البداوة بسبب، وهي مزدانة أيضاً ببعض الألفاظ الإسلامية.

هذا هو كعب بن زهير، الشاعر الصحابي الإسلامي، وهذه قصيدته الغراء «بانت سعاد» وهو من الشخصيات المميزة لعصر صدر الإسلام. فلنبحث الآن على شخصية أخرى من ذلك العصر، ولتكن من الجنس الآخر، أنثى، إنّها الخنساء.

ب ـ الخنساء (... - 24 هـ = ... - 645 م) أو (575 م ـ 664 م)(*)

الخنساء، اسمها تُماضِر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد من سراة قبائل سُلَيْم بن منصور بن عكرمة... بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، السّليميّة الشاعرة المشهورة التي أجمع أهل المعرفة بالشعر أنه لم تقم قبلها ولا بعدها امرأة مثلها في الشعر، فعُدَّت من طبقات فحول الشعراء من الرجال[1].

والخنساء، تكنّى أم عمرو، ومصداقُ ذلك قول أخيها صخر:

أرى أمَّ عـمـروٍ لا تَـمَـلُّ عـيـادتـي ... وملّت سُلَيْمى مَضْجَعِي ومَكاني

وهو هنا يُعرّض بزوجته سليمى التي ملّت من طول مرضه. وإنما لُقبت «الخنساء» كناية عن الظبية، وكان الأصمعي يقدّم عليها ليلى الأخيلية. وقال المبرد: كانت الخنساء وليلى الأخيلية في أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول، وقلّما رأيت امرأة تتقدم في صناعة[2].

(*) الأعلام ـ الزركلي 86/2 وانظر أروع ما قيل في الرثاء ـ إعداد أميل ناصيف ص 13 ـ المؤسسة الحديثة للكتاب ـ ط 1992/1.

(1) دائرة المعارف ـ بطرس البستاني 484/7 ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ وانظر جمهرة أنساب العرب ـ ابن حزم ص 261.

(2) زهر الآداب ـ القيرواني 998/4 ـ الكامل في اللغة والأدب ـ المبرّد 335/2.

وقد ذكر ابن قتيبة البيت السابق كما يلي:

أرى أمَّ صخرٍ ما تَمَلُّ عيادتي وملَّت سُليمى مَضْجَعِي ومكاني

في خمسة أبيات لاحقة، وذكر، أنه بعد أن طال مرض صخر، كانت سليمى إذا سُئلت عن حال زوجها صخرٍ قالت: لا هو حيٌّ فَيُرْجَى، ولا مَيِّتٌ فَيُنْسَى، وصخر يسمع، فشقّ عليه، وإذا قالوا لأمّه: كيف صخر اليوم؟ قالت: أصبح صالحاً بنعمة الله[1].

والأرجح أن هذه الرواية صحيحة وعليه يكون استشهاد القيرواني ساقطاً، وكنية الخنساء أم عمرو باطلة.

وأما بالنسبة إلى أنّ اسمهما تُماضِر (بضم التاء وكسر الضاد) فالشاهد على ذلك قول دريد ابن الصمة:

حَيُّوا تُمَاضِرَ وَارْبَعُوا صَحْبِي وَقِفُوا فإنَّ وقوفكم حَسْبِي

في خمسة أبيات أخرى. وسبب ذلك أنّ تماضر، خرجت فهنأت بالقطران جمالاً لها جَرْبَى، ثم نَضَتْ عنها ثيابها واغتسلت، ودريدٌ يراها ولا تراه. فأنشد تلك الأبيات[2].

وكانت الخنساء في أول عمرها من أجمل نساء عصرها، وقد أَعْجَبتْ دريد بن الصمة فأرسل يخطبها فردّته لأنه كان شيخاً، وقالت: ما كنت لأدع بني عمّي وهم مثل عوالي الرماح، وأتزوّج شيخاً فقال:

وَقَاكِ اللّهُ يا ابنةَ آلِ عمرو مِنَ الفتيانِ أشباهي ونَفْسي

وقالتْ إنَّني شيخٌ كبيرٌ وما نَبَّأْتُها أنّي ابنُ أَمْسِ

فقالت الخنساء تجيبه:

مَعَاذَ اللّهَ يَنْكِحُني حَبَرْكَى يقال أبوه من جُشَمِ بنِ بكرِ

(1) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 262/1 ـ وانظر فصل المقال ـ البكري ص 71 مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط 1983/3.

(2) الأمالي ـ أبو علي القالي 161/2. شرح مقامات الحريري البصري ـ الشريشي 3/4 المكتبة الشعبية ط 1979/2.

ولو أصبحتُ في جُشَم هَدِيّاً إذاً أصبحتُ في دَنَسٍ وفَقْرِ[1][*]

ثم تزوجت الخنساء برواحة بن عبد العزيز السلمي فولدت له عبد الله. ثم خلف عليها مرداس بن أبي عامر فولدت له يزيد ومعاوية وبنتاً اسمها عمرة، وقيل إنّها لم تلد إلاّ شاعراً، أي جميع أولادها من الشعراء. وكانت أول أمرها تقول البيتين والثلاثة حتى قتل أخوها معاوية ثم أخوها صخر، فتفتّقت شاعريتها[2].

إسلامها:

نشأت الخنساء في بيت ثروة وجاه، وقد أدركت الاسلام فاعتنقته بعد أن قضت معظم عمرها في الجاهلية، إذ قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها بني سُليم، ولسُليم في الاسلام سابقة حسنة، إذ اشترك منهم حوالى ألف رجل مع الرسول ﷺ في فتح مكة وحرب حُنين، وذُكر أن الرسول ﷺ كان يستنشد الخنساء ويعجبه شعرها، فكانت تنشده، وهو يقول: هيه يا خناس، ويُومِي بيده، ويُنسب إلى الرسول قوله لعديّ بن حاتم الطائي: أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو.

وقد دخلت الخنساء على عائشة رضي الله عنها، وعليها صدار من شَعْر، فقالت: يا خنساء أَتَلْبَسِينَ الصدار وقد نهى عنه رسول الله ﷺ؟ فقالت: لم أعلم بنهي الرسول ﷺ، وإنما لهذا الصدار حديثاً، وهو: إنّ أبي زوجني سيّداً من سادات قومي متلافاً، مِعْطاءً، فَأَنْفَدَ ماله وأملق وأراد أن يسافر، فقلت له أقم حتى آتي أخي صخراً، فأتيته، فقاسمناه ماله، وأعطانا خير النّصفين. فأقبل زوجي يعطي ويهب حتى أنفذه. فكنت أعود إلى صخر ثانية وثالثة ورابعة وكان كذلك يعطيني خير النصفين، فقالت له زوجته: إنّ هذا المال مُتْلَفٌ فامْنَحْها شِرارَ مالِكَ، فقال:

(*) حبركى: الطويل الظهر القصير الرجلين. الهدي: العروس تهدى إلى بعلها.

(1) الأغاني ـ الأصفهاني 76/15.

(2) دائرة المعارف ـ بطرس البستاني 485/7 ـ المفصل ـ جواد علي 876/9. وانظر جمهرة أنساب العرب 261.

ـلّـهِ لا أمْـنَـحُـهـا شِـرَارَهـا وهي حصانٌ قد كَفَتْني عارَها
ـو هَـلَـكْـتُ خـرقـتْ خـمـارَهـا واتـخـذتْ مـن شـعـرِهـا صـدارَها

فذاك الذي دعاني إلى لبس الصدار[1]. وظلّت ترثيه وتبكيه بعد موته تى عميت.

وذكر أنّ الخنساء، أقبلت حاجّة، فمرّت بالمدينة ومعها أناس من قومها، تُوا عمر بن الخطاب فقالوا: هذه خنساء، فلو وعظتها فقد طال بكاؤها في جاهلية والاسلام. فقام عمر وأتاها وقال: يا خنساء. فرفعت رأسها، فقالت: ما شاء وما الذي تريد؟ فقال: ما الذي أقرح مآقي عينيك؟ قالت: البكاء على سادات مضر. قال: إنهم هلكوا في الجاهلية وهم أعضاء اللهب. قالت: فداك بي وأمي، فذلك الذي زادني وجعاً. ثم أنشدته بعض الأبيات في الرثاء. فقال عمر: دعوها فإنّها لا تزال حزينة أبداً[2]. وظلت الخنساء تبكي على أخويها صخرٍ ومعاوية حتى ماتت.

وورد أنّ الخنساء حضرت حرب القادسيّة ومعها بنوها، أربعة رجال، فقالت لهم: يا بَنِيّ أنتم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله، الذي لا إله غيره، إنّكم لبنو رجل واحد كما انكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا غيّرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين، واعلموا أنّ الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عز وجل: **﴿يا أيّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون﴾**. فإذا أصبحتم غداً، فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين. فلما أضاء لهم الصّبح، باكروا مراكزهم، فتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون الأراجيز، فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً، فلما بلغها الخبر، قالت: الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته[3].

---

(1) خزانة الأدب ـ البغدادي 208/1. وشرح مقامات الحريري البصري ـ الشريشي 46/4 ـ ونهاية الأرب ـ النويري 24/18. الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 263/1.

(2) المحاسن والأضداد ـ الجاحظ ص 108. زهر الآداب ـ القيرواني 1000/4.

(3) خزانة الأدب ـ البغدادي 210/1. الأعلام ـ الزركلي 86/2، نهاية الأرب ـ النويري 26/18.

شعر الخنساء:

لم تظهر شاعريّة الخنساء في أولّ أمرها، وكان شعرها مقصوراً على أبيات تنشدها في مناسبات مختلفة، وكانوا يقولون: أجود أشعار النساء أشعار الموتورات(*)، الحاضات على الطلب، والمغيرات في ذلك بالتقصير والثاكلات المؤبنات، وهذا ينطبق على الخنساء، فقد قتلت بنو مرة بن سعد بن ذبيان، أخاها معاوية فأخذت تحرّض أخاها صخراً على الطلب بدمه قائلة:

لا تقتلنَّ بني فزارة إنما قتلى فزارة والكلاب سواء

ودع الثعالب غ.ثها وسمينها ما في الثعالب من أخيك وفاء

وعليك مرّة إن قتلت وإنما قتلاك مرّة إن قتلت شفاء[1]

ثم قُتِلَ أخوها صخر بعد أن أخذ بثأر أخيه معاوية، وكان أن قُتل والدها، وأخذ الشعر يتدفّق على لسانها، حتى ملأت الدنيا بشعر الرثاء.

وذكر أنها كانت سوّمت هودجها براية في الموسم، وعاظمت العرب بمصيبتها بابنها (عمرو) وبأخويها صخر ومعاوية، وجعلت تشهد الموسم وتبكيهم، وأنّ هنداً ابنة عتبة لما قتل ببدر أبوها وعمّها شيبة وأخوها الوليد فعلت كذلك وقالت: أقرنوا جملي بجمل الخنساء، فصارتا تبكيان وتتناشدان[2].

وكان النابغة الذبياني تُضرب له قبّة حمراء من أدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، فأنشده الأعشى (أبو بصير) ثم أنشده حسان بن ثابت، ثم الشعراء، ثم جاءت الخنساء فأنشدته، فقال لها النابغة: والله لولا أنّ أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت أنّك أشعر الجنّ والانس. فغضب حسان وقال: أنا أشعر منك منها. فقال: ليس الأمر كما ظننتَ. ثم التفت إلى الخنساء. فقال: يا خناس خاطبيه. فالتفتت إليه الخنساء فقالت: ما أجودُ بيتٍ في قصيدتك هذه التي عرضتها آنفاً. قال: قَوْلي فيها:

(*) موتورات جمع موتورة، من قتل لها قتيل فلم يؤخذ بثأره.

(1) بلاغات النساء ـ طيفور ـ ص 232 ـ دار النهضة الحديثة ـ بيروت ـ 1972.

(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 876/9.

لنا الجَفَناتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

فقالت: ضعّفتَ افتخارك وأنزرته في ثمانية مواضع في بيتك هذا. قال: وكيف. قالت: قلت: لنا الجفنات، والجفنات ما دون العشر، ولو قلت: الجفان، لكان أكثر. وقلت: الغرّ، والغرّة البياض في الجهة، ولو قلت: البيض، لكان أكثر اتساعاً، وقلت: يلمعن، واللمع شيء يأتي بعد شيء، ولو قلت يشرقنَ، لكان أكثر لأنّ الإشراق أدوم من اللمعان. وقلت: بالضُّحى، ولو قلت: بالدُّجى، لكان أكثر طرّاقاً. وقلت: أسياف، والأسياف ما دون العشرة، ولو قلت سيوف، كان أكثر. وقلت: يقطُرْن، ولو قلت: يَسِلْنَ، كان أكثر. وقلت: دَمَا. والدِّماء أكثر من الدَّم. فسكت حسان ولم يُجِزْ جواباً[1].

وكان بشّار بن برد (الشاعر المعروف) يقول: لم تقل امرأة شعراً إلاّ ظهر الضّعفُ فيه، فقيل له: أَوَكذلك الخنساء؟ فقال تلك كان لها أربع خُصَى[2]. وهذا يعني تفوّقها على الفحول من الشعراء.

وقيل لجرير: من أشعر الناس؟ قال: أنا، لولا هذه الفاعلة، يعني الخنساء. قيل له: فَبِمَ فَضَلَتْكَ؟ قال: بقولها:

إنَّ الزَّمَانَ وما تَفْنَى عَجَائِبُهُ أَبْقَى لَنَا ذَنَباً وَٱسْتُؤْصِلَ الرَّاسُ

أَبْقَى لنا كلَّ مَجْهُولٍ وَفَجَّعَنَا بالْحَالِمِينَ فَهُمْ هَامٌ وَأَرْمَاسُ

إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ في طولِ ٱخْتِلاَفِهِمَا لا يَفْسُدَانِ ولكنْ يَفْسُدُ النَّاسُ[3]

وأما مقتل أخويها معاوية وصخر ففيه اختلاف وكلام طويل، وكان صخر معدوداً من أجمل رجال العرب وكانت الخنساء تحبّه محبة شُديدة، وكان أبوها وأخوها معاوية قد قتلا من قبل، فلما قُتل صخر ازدادت مصيبتها وضرب بها المثل في الحزن، وأكثرت من مراثي أخيها صخر وجلست على قبره زمناً طويلاً تبكيه وترثيه، ومراثيها فيه أشدّ تأثيراً من مراثيها في أخيها معاوية، هذا مع أنه قيل إن معاوية

(1) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 261/1 وانظر ديوان الخنساء ص 6 ـ المكتبة الثقافية ـ بيروت.

(2) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرّد ـ 327/2 ـ شرح مقامات الحريري البصري ـ الشريشي 46/4.

(3) شرح مقامات الحريري البصري ـ الشريشي 46/4 ـ ديوان الخنساء ـ ص 70.

أخوها لأبيها وأمها، وكان صخر أخاها لأبيها وكان أحبُّهما إليها، وقد اشتهرت شاعرتنا هذه بمراثيها فيهما، حتى بلغت في فنّ الرثاء أقصى مراتب الشهرة.

قيل للخنساء صفي لنا صخراً ومعاوية فأنشدت:

أَسَدَانِ مُحْمَرَّا الْمَخَالِبِ نَجْدَةً   غَيْثَانِ في الزَّمَنِ الغَضُوبِ الأَعْصَرِ
قَمَرانِ في النَّادِي رَفِيعَا مَحْتِدٍ   في الْمَجْدِ فَرْعَا سُؤْدَدٍ مُتَخَيَّرِ[1]

ومن محاسن شعرها، قولها في رثاء أخيها صخر:

يُؤَرِّقُنِي التَّذَكُّرُ حينَ أُمْسِي   فَأُصبحُ قد بُلِيتُ بِفَرْطِ نَكْسِ
على صَخْرٍ وأيُّ فَتىً كَصخرٍ   لِيومِ كَرِيهَةٍ وَطِعَانِ خَلْسِ

* * *

ألا يا صخرُ لا أَنْسَاكَ حتى   أُفَارِقَ مُهْجَتِي ويُشَقَّ رَمْسِي
ولولا كثرةُ الباكينَ حَوْلِي   على إِخْوانهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

* * *

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشمسِ صَخْراً   وأَبْكِيهِ لكلِّ غُروبِ شَمْسِ
وما يبكونَ مثلَ أخي ولكنْ   أُعَزِّي النَّفْسَ عنه بالتَّأَسِّي[*]

* * *

فيا لَهْفِي عليهِ وَلَهْفَ أُمِّي   أَيُصْبِحُ في الضَّريحِ وفيهِ يُمْسِي[2]

وقيل: كان رسول الله ﷺ يستحسن قول الخنساء في صخر أخيها:

لا بُدَّ مِنْ مَيْتَةٍ في صَرْفِها غِيَرٌ   والدَّهْرُ مِنْ شَأْنِهِ حَوْلٌ وإِضْرارُ
وإِنَّ صخراً لَتَأْتَمُّ الْهُداةُ به   كأنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ[**][3]

---

(1) المحاسن والأضداد ـ الجاحظ ـ ص 106.

(*) التأسّي: الصبر للمساواة في المصيبة.

(2) كتاب الأمالي ـ أبو علي القالي 162/2 ـ ديوان الخنساء ص 67.

(3) المحاسن والأضداد ـ الجاحظ ص 106.

(**) علم: جبل.

ومما رثت به الخنساء أخاها صخراً:

أَعَيْنَيَّ جُودَا ولا تَجْمُدَا ... ألا تبكيانِ لصخرِ النَّدَى

ألا تبكيانِ الجريءَ الجميلَ ... ألا تبكيانِ الفتى السَّيِّدَا

طَويلُ النِّجادِ رفيعُ العِما ... دِ سَادَ عشيرتَه أَمْرَدَا

* * *

يُحَمِّلُهُ القومُ ما عالَهم ... وإن كان أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدَا

* * *

وإنْ ذُكِرَ المجدُ أَلْفَيْتَهُ ... تَأَزَّرَ بالمَجدِ ثمَّ ٱرْتَدَى[1]

وبعد، هذه هي الخنساء التي نشأت في بيت ثروة وجاه في العصر الجاهلي، في تلك البيئة التي لا ترحم، فقُتِلَ أبوها وأخواها صخر ومعاوية، فبكتهم حتى تقرّحت مقلتاها، بل حتى عميت، ورثتهم بشعر رقيق، وخصّت صخراً بالقسم الأكبر منه.

إننا ونحن نقرأ ديوان شعرها نحسّ وكأننا في مأتم نسمع فيه عويل النائحات وندب النادبات. لقد أدركت الإسلام وحسن إسلامهما وقدّمت في سبيله فلذات كبدها. وماتت في البادية بعد أن أَثْرَتْ الأدب العربي بإرث كبير من شعر الرثاء، قلّما نجد نظيراً له في تاريخه الطويل.

(1) الأغاني ـ الأصفهاني 86/15 ـ دائرة المعارف ـ بطرس البستاني 487/7.

المصادر والمراجع

1 ـ **أحكام القرآن:** لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف **بابن العربي** (468هـ ـ 543) ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار الفكر ـ بيروت.

2 ـ **أدب الكاتب:** تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدِّينوري ـ دار صادر ـ بيروت 1967 ـ عن مطبعة بريل ـ ليد/ 1900.

3 ـ **الأدب الاسلامي في عهد النبوّة وخلافة الراشدين:** نايف معروف ـ دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1990.

4 ـ **أروع ما قيل في الرثاء:** إعداد آميل ناصيف ـ المؤسسة الحديثة للكتاب ـ الطبعة الأولى/ 1992.

5 ـ **الأسطورة عند العرب في الجاهلية:** حسين الحاج حسن ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت / 1988.

6 ـ **الأصمعيات:** اختيار **الأصمعي** أبي سعيد عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك (122 ---- 216) **ـــ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ـــ دار المعارف ـــ مصر ـــ الطبعة الخامسة/** 1979.

7 ـ **الاصابة في تمييز الصحابة:** ابن حجر العسقلاني ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى/ 1328 هجرية.

8 ـ **أصول النقد الأدبي:** أحمد الشايب ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة السابعة/ 1964.

9 ـ **الأعلام:** خير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الخامسة/ 1980.

10 ـ **أعلام المسلمين:** صادرة عن دار القلم ـ دمشق ـ بيروت ـ الطبعة الأولى/ 1979.

11 ـ **الأغانـي:** تأليف أبي الفرج **الأصبهانـي** ـ مؤسسة جمّال للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان ـ مصور عن طبعة دار الكتب.

12 ـ **الأمالـي:** أبو علي القالي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.

13 ـ **أنساب الأشراف:** البلاذري ـ تحقيق محمد حميد الله ـ دار المعارف بمصر/ 1959.

14 ـ **البداية والنهاية:** ابن كثير ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة/ 1981.

15 ـ **بلاغات النساء:** طيفور ـ دار النهضة الحديثة ـ بيروت/ 1972.

16 ـ **البيـان والتبيـين:** الجاحظ ـ تحقيق فوزي عطوي ـ دار صعب ـ بيروت.

17 ـ **تاريخ الآداب العربية:** كارلو نالينو ـ تقديم طه حسين ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر/ 1970.

18 ـ **تاريخ الأدب العربي: (العصر الجاهلي)** شوقي ضيف ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر/ 1976.

19 ـ **تاريخ الأدب العربـي:** عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة/ 1981.

20 ـ **تـاريـخ الأدب الـعربـي: (الـعـصـر الاسلامي)** شـوقـي ضـيـف ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الرابعة/ 1963.

21 ـ **تاريخ الأدب العربـي:** كارل بروكلمان ـ نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ـ دار المعارف ـ مصر ـ الطبعة الرابعة/ 1977.

22 ـ **التاريخ الإسلامي في تفسير جديد:** محمد عبد الحي شعبان ـ دار الدراسات الخليجية/ 1982.

23 ـ **تاريـخ الاسلام:** حسن ابراهيم حسن ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة السابعة/ 1964.

24 ـ **تاريخ الرسل والملوك:** محمد بن جرير **الطبري** ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر/ 1968.

25 ـ **تاريخ العرب:** فيليب حتّي ـ أدورد جرجي ـ جبرائيل جبور ـ دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الخامسة/ 1974.

26 ـ **تاريخ اليعقوبي:** أحمد بن أبي يعقوب ـ دار صادر ـ بيروت.

27 ـ **التراتيب الإدارية: (نظام الحكومة النبويّة)** عبد الحيّ الكتاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

28 ـ **تفسير القرآن العظيم:** ابن كثير ـ دار المعرفة ـ بيروت/ 1982.

29 ـ **التنبيه والاشراف:** المسعودي ـ دار صعب ـ بيروت.

30 ـ **جمهرة أنساب العرب:علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي** ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الرابعة/ 1977.

31 ـ **الحديث النبوي الشريف: (من الوجهة البلاغية)**: كمال عز الدين ـ دار إقرأ ـ مصر.

32 ـ **الحماسة البصرية:** البصري ـ عالم الكتب ـ بيروت.

33 ـ **حياة محمد:** محمد حسين هيكل ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة عشرة/ 1968.

34 ـ **حياة الصحابة:** محمد يوسف الكاندهلوي ـ دار القلم ـ دمشق، الطبعة الثانية/ 1983.

35 ـ **الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام:** محمد عبد المنعم خفاجي ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ الطبعة الأولى/1973.

36 ـ **الحيوان:** الجاحظ ـ تحقيق وشرح عبد السلام هارون ـ منشورات المجمع العلمي الاسلامي ـ بيروت.

37 ـ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب:** عبد القادر بن عمر البغدادي ـ دار صادر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى.

38 ـ **خصائص شعر المخضرمين:** يحيى الجبوري ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية/ 1981.

39 ـ **الخصائص:** لأبي الفتح عثمان **بن جني** ـ تحقيق محمد علي النجار ـ دار الهدى ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة.

40 ـ **دائرة المعارف:** بطرس البستاني: دار المعرفة ـ بيروت.

41 ـ **ديوان حسان بن ثابت الأنصاري:** دار صادر ـ بيروت.

42 ـ **ديوان الخنساء:** المكتبة الثقافية ـ بيروت.

43 ـ **ديوان زهير بن أبي سلمى:** تحقيق عبد الحميد سند الجندي ـ المؤسسة المصرية للطباعة والنشر.

44 ـ **ديوان شعر زهير بن أبي سلمى:** صنعة الإمام الشنتمري ـ تحقيق فخر الدين قباوة ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة/ 1980.

45 ـ **ديوان طرفة بن العبد:** المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.

46 ـ **ديوان شعر عبد الله بن الزِّبعري:** تحقيق يحيى الجبوري ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية/ 1981.

47 ـ **ديوان عبيد بن الأبرص:** دار بيروت للطباعة والنشر/ 1979.

48 ـ **ديوان كعب بن مالك الأنصاري:** سامي مكي العاني ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى/ 1979.

49 ـ **ديوان شعر النابغة الجعدي:** منشورات المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ الطبعة الأولى 1964.

50 ـ **ديوان الهذليين:** الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة/ 1965 ـ **نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.**

51 ـ **الرّوائع:** فؤاد أفرام البستاني ـ المكتبة الشرقية ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة.

52 ـ **زاد المعاد:** ابن القيِّم الجوزي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

53 ـ **زهر الآداب وثمر الألباب:** ابراهيم بن علي **الحصري القيرواني** ـ شرح زكي مبارك ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة/ 1972.

54 ـ **السيرة النبوية**: ابن هشام ـ تحقيق وشرح: مصطفى السّقّا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ الشلبي. الطبعة الثانية.

55 ـ **شرح ديوان الحماسة (أبو تمام)**: شرح الامام **التبريزي** الشهير بالخطيب. عالم الكتب ـ بيروت.

56 ـ **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**: الأنباري ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية/ 1969.

57 ـ **شرح مقامات الحريري البصري**: أحمد القيسي **الشريشي** ـ بإشراف عبد المنعم خفاجي ـ المكتبة الشعبية ـ الطبعة الثانية/ 1979.

58 ـ **الشعر والشعراء**: عبد الله بن مسلم **بن قتيبة** ـ نشر وتوزيع دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الرابعة/ 1980.

59 ـ **الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية**: شوقي ضيف ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية/ 1967.

60 ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: أحمد بن علي **القلقشندي** ـ نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة.

61 ـ **صفوة البيان لمعاني القرآن**: حسنين مخلوف ـ الكويت ـ الطبعة الثالثة/ 1978.

62 ـ **الصناعات والحرف في العصر الجاهلي**: واضح الصمد ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ مجد ـ الطبعة الأولى/ 1981.

63 ـ **الطبقات الكبرى**: ابن سعد ـ دار صادر ـ بيروت.

64 ـ **طبقات فحول الشعراء**: محمد **بن سلام الجمحي** ـ قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة.

65 ـ **العقد الفريد**: أحمد **بن عبد ربّه** الأندلسي ـ تحقيق وشرح: أحمد أمين، أحمد الزين، ابراهيم الأبياري ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة/ 1965.

66 ـ **العمدة**: الحسن **بن رشيق** القيرواني الأزدي ـ تحقيق محمد محي

الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة/ 1972.

67 ـ **عيون الأخبار**: عبد الله بن مسلم **بن قتيبة الدّينوري** ـ نسخة مصورة عن دار الكتب ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة/ 1963.

68 ـ **فتوح البلدان**: أبو الحسن **البلاذري** ـ مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت/ 1978.

69 ـ **فجر الإسلام**: أحمد أمين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة العاشرة/ 1969.

70 ـ **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال**: لأبي عُبيد البكري ـ تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين ـ دار الأمانة ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثالثة/ 1983.

71 ـ **الفهرست للنديم**: أبو الفرج محمد المعروف **بالورّاق** ـ تحقيق رضا ـ تجدّد ـ طهران/ 1971.

72 ـ **القرآن الكريم**.

73 ـ **القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية**: عبد العالم سالم مكرم ـ دار المعارف بمصر/ 1965.

74 ـ **قصّة الحضارة**: ول ديورانت ـ ترجمة محمد بدران ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية/ 1964.

75 ـ **قصص العرب**: محمد أبو الفضل ابراهيم، علي محمد البجاوي، محمد أحمد جاد المولى ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة/ 1962.

76 ـ **الكامل في اللغة والأدب**: أبو العباس محمد بن يزيد المعروف **بالمبرد** ـ إشراف ونشر مكتبة المعارف ـ بيروت.

77 ـ **الكامل في التاريخ**: عز الدين... الشيباني المعروف **بابن الأثير** ـ دار صادر ـ بيروت/ 1979.

78 ـ **كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)**: لأبي هلال العسكري ـ تحقيق

مفيد قميحة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى/ 1981.

79 ـ **لسان العرب:** أبو الفضل جمال الدين.. **ابن منظور** ـ دار صادر ـ بيروت.

80 ـ **مائة أوائل:** سهيل زكار ـ دار إحسان ـ دمشق ـ الطبعة الثانية/ 1982.

81 ـ **مباحث في علوم القرآن:** منّاع القطّان ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة التاسعة عشرة/ 1983.

82 ـ **مجمع الأمثال:** أبو الفضل أحمد بن محمد.. النيسابوري، **الميداني** ـ تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السنّة المحمديّة/ 1955.

83 ـ **محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر:** علاء الدين البسنوي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثانية/ 1978.

84 ـ **محاضرات في علم الحديث والمصطلح:** عبد الله الشريف ـ مكتبة كريدية/ 1973.

85 ـ **المحاسن والأضداد:** الجاحظ ـ تحقيق فوزي عطوي ـ دار صعب ـ بيروت.

86 ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر:** علي بن الحسين **المسعودي** ـ تدقيق يوسف أسعد داغر ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة/ 1981.

87 ـ **مصادر الشعر الجاهلي:** ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الرابعة/ 1969.

88 ـ **المعارف:** عبد الله بن مسلم **بن قتيبة الدّينوري** ـ دار المعارف بمصر/ 1969.

89 ـ **معجم الأدباء:** ياقوت الحموي ـ دار المشرق ـ بيروت.

90 ـ **معجم البلدان:** ياقوت الحموي ـ دار صادر ـ بيروت/ 1977.

91 ـ **معجم الشعراء والمؤتلف والمختلف:** المرزباني والآمدي ـ تصحيح وتعليق ف. كرنكو ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ مكتبة القدسي ـ الطبعة الثانية/ 1982.

92 ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ عن دار الكتب المصرية/ 1945.

93 ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: جواد علي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت. مكتبة النهضة ـ بغداد/ 1978.

94 ـ **المفضليات**: المفضّل بن محمد الضبيّ ـ تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الخامسة/ 1976.

95 ـ **مقاتل الطالبيين**: لأبي الفرج الأصفهاني ـ شرح وتحقيق السيّد أحمد صقر ـ دار المعرفة ـ بيروت.

96 ـ **مقدمة ابن خلدون**: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة.

97 ـ **الموطّأ**: الإمام مالك ـ رواية يحيى بن يحيى الليثي ـ دار النفائس ـ الطبعة الخامسة/ 1981.

98 ـ **النظم الإسلامية**: صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت/ 1980.

99 ـ **نظرات في الشعر الاسلامي والأموي**: ظافر القاسمي ـ دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الأولى/ 1977.

100 ـ **النقائض**: أبو عبيدة البصري ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.

101 ـ **نقد النثر**: قدامة بن جعفر ـ المكتبة العلمية ـ بيروت/ 1980.

102 ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب**: شهاب الدين أحمد... **النويري** ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر.

103 ـ **نهج البلاغة**: شرح الإمام محمد عبده ـ منشورات الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان.

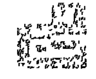
فهرس

الباب الخامس: نصوص وشخصيات

1994/2/586







المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع